

روایات تاریخی اسلام

العباسة ابن الرشيد

جرجی زیدان

مجله علمی و تاریخی



دار الهدى

روايات تاريخ الإسلام
العباسة أنتف الرشيد

جرجي زيدان
تقديم ودراسة
د. ناجي نجيب



١٩٨٤

تصدر من مؤسسة
دار الهلال
أسما جودجي زيدان
سنة ١٨٩٢

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

892-73٤

٢٠
٤

الفلاف بريشة
الفنان
جمال كامل

رقم الايداع : ٣٦٥٥ / ٨٤
الترقيم السولي : ٩ - ٩٥ - ١١٨ - ٩٧٧

مقدمة

● في الصفحات التالية نعرض المادة التاريخية التي تستند إليها شهرة « العباسية » أخت هارون الرشيد ، ونحاول استيضاح العلاقة بين المادة التاريخية والرواية التاريخية وحين نتحدث عن « العباسية » فنحن نتحدث بالضرورة عن « نكبة البرامكة » كما يشير جورجى زيدان من خلال العنوان .
والأحرى أن نفسح المجال أولا للرواية لكي تعبر عن نفسها وتتحدث مباشرة إلى القارئ ، وأن ننظر إلى هذه الكلمة كتعليق على الرواية أو تذييل لها ، ومن ثم فالترتيب الذى نقتصره على القارئ هو أن يبدأ بالنص وأن يعود فى النهاية إلى التعليق أن أراد .

نكبة البرامكة بين التاريخ والرواية التاريخية روايات الرواة

تنوعت السجون وكثرت الطرق التى تؤدى إلى السجون فى العصر العباسى ، ومن بينها مصاحبة الأمراء والقرب من الخلفاء وتولى المناصب ، « فنذر من نجا من الوزراء ولم يسجن وربما قتل ولم يحبس ، وربما أصابه الأمران معا » وعلى كثرة هذه الوقائع فليس من واقعة منها كان لها الصدى الذى أحدثه مقتل جعفر ابن يحيى البرمكى وزير الرشيد ونهاية آل برمك سنة ١٧٨ هـ - ٨٠٣ م .

كان لنكبة البرامكة وقع المفاجأة ، فما أن سرى النبا حتى عم الدهول بغداد فبكاهم الناس ، ورثاهم الخطباء والشعراء ، وحاك حولهم الخيال الشعبى والقصصى والاساطير . وذهب الرواة فى أسباب فتك هارون الرشيد بهم مذاهب شتى . وعلى كثرة الروايات والأقوال والتفاصيل وأيضا الترهات تبدو دوافع الرشيد واضحة : وهى تصاعد نفوذ البرامكة وتضخم ثروتهم ، وما أصابوه من جاه

وسلطان ، حتى بدا وكان الامر لهم دونه .
البرامكة من اصل فارسي وموطنهم الاول خوراسان وجددهم الاول
هو برمك ، وكان يتولى سدانة معبد بوذى فى بلخ ، وهو منصب
كبير اذ ذاك . وقد ظلت سدانة هذا المعبد لاجيال فى بيته ، ودخلت
اسرته الاسلام بعد فتح قتيبة بن مسلم لخراسان (نحو سنة
٨٥ هـ) . واحتفظ البرامكة فى خراسان بنفوذهم ومكانتهم ، حتى
بعد اتصالهم بدار الخلافة فى بغداد فى عهد المنصور (١٣٦ -
١٥٨ هـ) .

واستوزر المهدي (١٥ - ١٦٩ هـ) يحيى بن خالد برمك -
والد جعفر - وعهد اليه بتاديب ابنه هارون (الرشيد) ، وتنقل
الروايات أن زوجة يحيى قد أرضعت الرشيد ، وأنه شرب مع اولاده
منذ الصبا ، وأنه كان ينادى يحيى : بـ « يا ابي » . . . وقد كان
ليحيى بن خالد فضل كبير فى ولاية الرشيد للخلافة ، اذ عاضده
ضد مؤامرات اخيه الهادي التي كانت تستهدف نزع ولاية العهد
منه ، ومبايعة ابنه جعفر .

بعد تولى الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ هـ استوزر يحيى بن خالد
وعهد اليه ببيت المال واستعان باولاده فى شئون الدولة وقربهم اليه
وخالطهم ، وبعد اعتزال يحيى استوزر والداه الفضل وجعفر ،
وخص بها فى النهاية جعفرا ، وعلى مرور السنين ارتفع قدر البرامكة
وكثرت قصورهم على الضفة الشرقية لنهر دجلة وجرى كرمهم
مجرى الامثال (فيقال فلان يتبرمك أى يتشبه بكرم البرامكة) ،
وقصدهم اصحاب الحاجات ومدحهم الشعراء وخضع لهم اعيان
الناس وكثرت احزابهم ومجالسهم . . . وقد دام لهم الحال حتى
باغتهم الرشيد ، فذهب مجدهم بين يوم وليلة ، وكان ذلك سنة
١٨٧ هـ .

تختلف الروايات فى بيان الاسباب واكثرها يبدو هزيلا ، او من
نسج الخيال لا يرتفع الى حجم هذا الحدث الذى يعد من احداث
التاريخ الاسلامي ويورد الطبرى (- ٩٢٣ م) فى « تاريخ
الرسل والملوك » ، بعضا من هذه الروايات . . . واولها يندرج تحت

وشاية ، الوشاة وحسد الحاسدين ، وانكارهم منزلة البرامكة في الدولة وهم من الموالي الفرس . وثانيها أن الرشيد دفع يحيى ابن عبد الله (وهو من زعماء العلويين) الى جعفر لسجنه ، ولكنه اطلق سراحه وأخفى أمره ، فلما بلغ الرشيد الخبر وتأكد منه ، أقسم أن يقتل جعفرا ، وثالثها أن جعفرا ابتنى دارا أنفق فيها نحواً من عشرين ألف ألف درهم ، فكانت اشعاراً بما أصبح للبرامكة من جاه وسلطان : ورابعها أن يحيى بن خالد كان يخشى صروف الدهر وتغير الاحوال ، وأنه رأى وهو يطوف حول البيت في مكة ويقول : « اللهم ان كان رضاك أن تسلبني اهل و مالي وولدي فاسلبني . . الخ اللهم ان كنت تعاقبني . . فاجعل عقوبتي في الدنيا . . »

فأوقع الرشيد بالبرامكة بعد قليل ، (وقد لا يعد ذلك سبباً ولكنه من وجهة البعض « أقوى الاسباب » بتعبير ابن الاثير) . وخامسها ما كان بين العباسية وجعفر وينقل الطبري هذه الرواية كغيرها دون تفصيل أو ترجيح ، ونقلها عنه موجزة بعض الشيء وقال :

« حدثني أحمد بن زهير . . أن سبب هلاك جعفر والبرامكة أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن اخته عباسية بنت المهدي ، وكان يحضرهما اذا جلس للشرب . . فقال لجعفر : أزوجكما حتى يحل لك النظر اليها اذا أحضرتهما مجلسي » . واشترط عليه « ألا يمسها ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل الى زوجته » ، وعقد لهما ، « وكان يحضرهما مجلسه اذا جلس للشراب ، ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما ، فيثملان من الشراب ، وهما شسبان ، فيقوم اليها جعفر فيجامعهما ، فحملت منه وولدت غلاماً فخافت على نفسها من الرشيد أن علم بذلك ، فأرسلت المولود مع جواز لها الى مكة ، وظل الامر مجهولاً » حتى وقع بين العباسية وبين بعض جواريهما شد ، فأبتهت أمرها وأمن الصبي الى الرشيد . . »

(الطبري ٢٩٤/٨)

أخذ زيدان عن تاريخ الطبري كما أخذ عن « مروج الذهب »

للمسعودى (- ٩٥٦ او ٩٥٧ م) ويقول المسعودى ان سبب ايقاع الرشيد بالبرامكة هو فى الظاهر « احتجان الاموال (اى اقتطاعها والتفرد بها) ، وانهم أطلقوا رجلا من آل أبى طالب كان فى أيديهم واما الباطن فلا يعلم .. » (٢٣٣/٤) .

ويبرز المسعودى بوضوح قصة العباسية وجعفر وهى لا تختلف من حيث المبنى عن رواية الطبرى ، ولكنها تتضمن الكثير من التفاصيل عن دهاء النساء « وحيل بنات الملوك » تذكرنا بما هو مألوف فى هذا الباب فى « الف ليلة وليلة » . فالعباسية وفقا لروايته هى التى سعت حتى أوقعت بجعفر فجاءها وهو فى غيبة من فعل الشراب ، بل انها قد استعانت بأم جعفر لتصل الى مرادها : « وانصرفت العباسية مشتملة على حمل ، ثم ولدت له غلاما ، فوكلت به خادما من خدامها يقال له رياش وحاضنة لها تسمى برة ، فلما خافت ظهور الخبر وانتشاره وجهته الى مكة مع الخادمين وامرتهما بتربيته ، وطالت مدة جعفر وغلب هو وابوه واخوته على امر المملكة .. » (٢٤٨ / ٤) .

وتنسب رواية المسعودى الى زبيدة زوجة الرشيد انها بضيقها يحيى بن خالد أفضت اليه بقصة العباسية مع جعفر . فسألها : (أفيعلم ذلك أحد غيرك ؟) فقالت : (ما فى قصرى جارية الا وقد علمت به) ، فامسك على ذلك وطوى عليه كشعا « (٢٤٩/٤) . ويتفق ابن الاثير (- ١٢٣٤ م) صاحب « الكامل فى التاريخ » مع الطبرى فيما أورده من روايات ، على أنه يضع قصة العباسية وجعفر فى المقدمة باعتبارها أول الاسباب (١٧٥/٦) ، ويذكر للفضل بن ربيع وزير الامين دورا فى التآمر على البرامكة ، وغير ذلك لا يختلف مع الطبرى الا فى بعض التفاصيل .

اما ابن خلكان (- ١٢٨٢ م) صاحب « وفيات الاعيان » فقد نقل عن المصادر السابقة وغيرها ، فلم يترك رواية او نادرة الا وسجلها ، وأورد الكثير من التيسائد فى رثاء البرامكة ومدحهم ، وتغاضى فى الحديث عن علاقة جعفر بالعباسية وكيف احتالت عليه حتى واقعها .. الخ (٣٣٣/٦) .

مفهوم التاريخ

هذه هي أهم الروايات المبكرة ، والتاريخ حتى ذاك هو ، رواية الاخبار والاحداث كما جاءت على لسان الرواة والثقات دون تحقيق او تصويب او تفضيل ، فالتبعة تقع على الراوى الذى ينقل عنه المؤرخ ، وهذا هو « الظاهر » ، اما « الباطن » فخفى او مجهول . ثم ان التاريخ فى منظارهم احداث متتابعة وايام . . . وسير ملوك واعيان واعلام . ومعروف ان ابن خلدون هو اول من فلسف للتاريخ ورأى ان مهمة المؤرخ هى مراجعة الاخبار والاحداث ثم النقد والتفسير والتعليل . ومن هذا التصور الجديد للتاريخ يعارض ابن خلدون فى « مقدمته » المؤرخون كافة فيما نقلوه عن العباسية وجعفر ، ويرى انها من « الحكايات المدخولة » ، « وهيهات ذلك من منصب العباسية فى دينها وابويها وجلالها » ، فهى « ابنة خليفة واخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية ومحبة الرسول وعمومته . . . وكيف للرشيذ أن يصهر الى موالى الاعاجم على بعد همته وعظم آبائه ؟ . . . واين قدر العباسية والرشيذ من الناس » . (١٧ / ١٦)

اعتزاز بنى هاشم بنسبهم واقع تاريخى عبر عن نفسه من خلال الاحداث ولا ينفيه ان الناس سواسية فى الاسلام ، ولا تنفيه الاشارة الى الحديث القدسي « لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » مبدا الانساب هذا حجة قوية ضد قصة العقد المذكور ، واذا كان مشروطا بعدم النفاذ . فالذى ابدع القصة ، ان كانت من ابداع الخيال ، قد ادخل فيها ايضا هذا الاعتبار فنفاذ العقد هو الجرم . ويدفع ابن خلدون فى معروض حديثه هذا ببطلان ما يروى من ان الرشيذ « كان يعاقر الخمر او يجاهر بها » (١٩) ، كما ينفي عنه وعن ذويه تهمة الترف او الاسراف فى الملبس والزينة . . . الخ . فذلك جميعه كما يذهب لا يتفق مع ما « كانوا عليه من خشونة البداوة وسداجة الدين التى لم يفارقوها بعد ، فما ظنك بما يخرج من الاباحة الى الحظر ، وعن الحلية الى الحرمة » (٢٠) . يرى ابن خلدون تهافت قصة علاقة العباسية بجعفر وضعفها ،

ولكنه يحتاج من موقع فروضه النظرية وقناعاته المسبقة ، فكيف لنا ان ننسب الى دار الخلافة ببغداد في عهد الرشيد - وهي اذ ذاك عاصمة الحضارة - حياة التقشف « وسداجة الدين » الاولى ؟
ونحن اليوم اذ نتأمل قصة العباسية وجعفر ، يراودنا الكثير من الريب ، فهي قصة من قصص الحب التعس ، شخوصها او اطرافها كالمالوف ثلاثة وهي قصة حب غريبة ، يعقد له الخليفة ويبطله في نفس الوقت ، يحلله الشرع وينهى عنه اختلاف الانساب ، وعقدة القضية او علتها من باب الحواديت ، وهي ان الرشيد كان كلفا باخته العباسية وبجعفر شقيقه في الرضاعة ، ولا يحلو له مجلس الشراب دونهما ، ومن ثم جاءت الفكرة وهو ان يزوج العباسية جعفرا بعقد بلا خلوة .. حتى يحل له ان ينظر اليها ، وهكذا ارضى الرشيد الشرع وحل الحرام ولان هذا العقد المزدوج ينسافي الطبيعة والعقل والشرع ، فلا حل له غير النهاية المساوية .. ايا كانت المكونات ، الاصلية التي بنيت منها القصة ، فما ان اكتملت حتى تداولها الرواة وتناولوها بالصقل والاضافة والتحوير وحتى اصبحت جزءا لا يتجزأ من نكبة البرامكة . وعلى مرور الاجيال اقترن في الازهان افول سلطان البرامكة وزوال مجدهم بقصة جعفر والعباسية . واصبحت العباسية من خلالها من « اعلام النساء » ومن « شهرات النساء في الاسلام » .. بحيث يصف محمد حسين هيكل قصتها بأنها « قصة متجددة على الايام » ..

ولم تقتصر شهرة العباسية على الشرق ، وانما انتقلت الى الغرب ودخلت الاداب الاوربية في وقت مبكر كمادة روائية ودرامية . وبطبيعة الحال فقد اثارت نكبة البرامكة لاسباب شتى اهتمام المستشرقين في الماضي . وكان ايضا لقصة العباسية جاذبية خاصة عليهم ، بحيث يراها المستشرق الالماني جوستاف فيل في مؤلفه الكبير « تاريخ الخلفاء » سبب الاسباب وعلة العلل فيما اصاب البرامكة من داهية كبرى ، ويرى ان ما يورده الرواة من اسباب انها قد اشيع من اجل اخفاء السبب الحقيقي ، الا وهو ما اصاب الرشيد من امتهان بسبب علاقة جعفر بالعباسية . ولو

صحت جميع الروايات كما يقول ، لما كانت كافية لتعليل نهاية البرامكة على النحو الذى حدث .

وعلى نحو مماثل ، وان لم يغال فى ذلك ، يرى المستشرق الالماني مولر فى كتابه « الاسلام فى الشرق والغرب » (١٨٨٥) أن استئثار البرامكة بالامر والنهى فى شئون الدولة لا يكفى وحده لتفسير نكبتهم . لابد من دافع . آخر لا مرد له على ما أقدم عليه الرشيد ، وقد تكون علاقة العباسية بجعفر هى سر ما غمض .

الغريب أن يظل دور العباسية فى القصة فى روايات المؤرخين العرب الاوائل هامشيا . فالمصادر المبكرة تصمت عنها وعن مصيرها وعن مصير ابنها من جعفر . هذا على خلاف المصادر المتأخرة (مثل « اعلام الناس بما وقع للبرامكة من بنى العباس » لمحمد دياب الاقلىدى - الذى أتمه سنة ١١٠٠ هـ) المصادر المتأخرة تستفيض فى تصوير نهاية العباسية وصبغتها بصبغة مروعة ، ومنها ما يذهب الى أن الرشيد قد دفنها حية ، وتختلف هذه المصادر فى عدد ابنائها من جعفر فمصادر التاريخ العربى المتأخرة على خلاف المصادر المتقدمة تنسج حول الوقائع والاخبار الكثير من التفاصيل والغرائب وتجنح بها الى « الادب » و « الاساطير » ونفتقد فى هذه المصادر تلك « الموضوعية الظاهرية » والنظرة الحيادية التى قد نحسها ازاء المصادر المبكرة . وهما يكن الامر ، فنحن نقرا فى « معجم البلدان » لياقوت الحموى (- ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) ما يكاد ينقض القصة بأكملها ، او على الاقل يسلبها اطارها الرومانسى ، فهو يقول عن العباسية :

« هى عباسية بنت الهدى تزوجها محمد بن سليمان بن على فمات عنها ثم تزوجها ابراهيم بن صالح بن المنصور فمات عنها ثم تزوجها محمد بن على بن داود بن على فمات عنها ، ثم اراد ان يخطبها عيسى بن جعفر ، فسمع شعرا قاله ابو نواس فيها فتشاور منه ، « وتخامى الرجال فى تزوجها الى أن ماتت » (٢٨٨/٣) .

وابيات ابى نواس المشار اليها هى :

الاقبل لامين الله
اذا منا ناكث سر
فلا تقتله بالسيف
له وابن السادة الساسة
ك ان تفقده راسه
وزوجه بعساسه
فمتى كانت علاقة العباسية بجعفر ؟ لم تكن على اى حال
بحساب السنين علاقة حب فى اوج الشباب .
المؤرخ والراوى

● هل يستطيع الكاتب الروائى او المسرحى ان يقاوم اغراء هذه
القصة التى تهبه اياها كتب التاريخ دون عناء ، وهى قصة تجتمع
فيها مقومات قصص « الف ليلة وليلة » من حيث الحيلة والخيال
والصنعة والنهاية ؟ وهل يستطيع ان يقاوم اغراء شهرة « البطلة » ؟
لم يستطع زيدان ان يقاوم هذا الاغراء ، على الرغم من انه فى
مؤلفه « تاريخ التمدن الاسلامى » (١٩٠١ - ١٩٠٦) لا يعول على
قصة العباسية وجعفر ، ويلمح اليها بعبارة سريعة فى حديثه عن
نكبة البرامكة ، ويفسر هذا الحدث بغير ذلك من الاسباب ، وقد
يبدو واضحا من العرض السابق كيف ان مصنفات التاريخ ذاتها
لا تخلو من عناصر التشويق والخيال ، وانها تميل فى سبيل
ذلك الى الغريب والطريف ، فما بالك بمؤلف الرواية التاريخية ،
الذى لابد له ان يصيغ مادته فى شكل كل متكامل ، وان يربط
بين الوقائع والاحداث والشخص .

يعنون زيدان روايته « العباسية اخت الرشيد او نكبة البرامكة »
ويصفها بانها « (رواية تاريخية غرامية) » كالمألوف فى رواياته الاخرى
التي يبتكر فيها القصة الغرامية .

بطل روايات زيدان - كما هو الحال فى روايات والتر سكوت
التاريخية - هو فى المعتاد شخصية وهمية لا تقيدها الوقائع
والتفاصيل التاريخية . . هذه الشخصية أشبه بالوسيلة او الحيلة
الفنية التى من خلالها يستطيع المؤلف ان يبعث الحياة فى المادة
التاريخية ، ومن وظائفها المألوفة تقريب الاحداث وربط المشاهد
والاماكن والاشخاص . . ثم انها شخصية مجهولة المصير قريبة
فى مشاعرها ودوافعها وتفكيرها من نفس القارئ . القاعدة هو

أن يخلق زيدان بطل الرواية ويعلقه في قصة غرامية لا تنتهي إلا بانتهاء الأحداث التاريخية .. ولا يخرج عن هذا النموذج إلا في أربع روايات هي : « عذراء قریش » و « أبو مسلم الخراساني » و « العباسية » و « شجرة الدر » . والأغلب أن طبيعة الصدام التاريخي الذي تصوره هذه الروايات تيسر للمؤلف هذا النهج ، كما هو الحال في « العباسية » و « أبو مسلم الخراساني » .

كمؤلف روائي يضع زيدان قصة العباسية موضع الصدارة ، كمؤرخ يستقصي جميع الأسباب والعلاقات التي أدت إلى نكبة البرامكة ، ولا يكاد يغفل رواية يعول عليها في هذا الصدد ، ويستفيض في ذلك بحيث تبهر قصة العلاقة بين العباسية وجعفر كسبب من أسباب نكبة البرامكة . ولو دقت النظر في رواية زيدان لوجدت أن موطن الداء أو بيت القصيد هو تعاظم سلطان البرامكة وثروتهم ، واستبدادهم بالأمر وتعاليمهم ، وكان أمر الخلافة سائر إليهم ، وهم من الموالى الفرس وتربطهم الكثير من الأسباب بالعلويين ، وتحيط بهم الريب .. وتستجد أيضا أن الرشيد قد عقد العزم على إزالة « دولة البرامكة » قبل أن ينمو إلى علمه خبر العباسية وجعفر . فحساسة المؤرخ الذي يحقق منطق العلاقات والأحداث تفوق بوضوح بواعث المؤلف الروائي . وهكذا تتضاءل قصة العباسية وتتحول إلى إطار عاطفي يغلف نكبة البرامكة . ولكن لاغناء لزيدان وقراء زيدان عن هذا الإطار . فقارئ روايات زيدان الأول يقرأ القصة الغرامية من أجل المادة التاريخية ، ويقرأ المادة التاريخية من أجل القصة .. ولقد دفع هذا بزيدان إلى تنمية قصة العباسية وجعفر ، فحولها إلى قصة غرام ووفاء لا منجاة فيه من حكم القدر . وكان من الطبيعي أن يتوقف عند النهاية الفاجعة ، وأن يختار لها أكثر الروايات والتفاصيل إثارة لشحن القارئ وعواطفه . فإذا كان لابد من النهاية الحزينة - وهي نادرة في روايات زيدان - فلا أقل من أن يستفيض في عرض هذه النهاية ، وأن يشبع حاجة القراء ، وهو يكتب لقارئ رومانسي المشاعر ، يتنسم الاحساس بدائيته من خلال الأدب . ثم أن نكبة البرامكة هي

الحدث الذي تدور حوله رواية « العباسية » هذا على خلاف روايات زيدان الأخرى التي تتكون من تتابع سريع من الأحداث والوقائع والمغامرات .

ويعرض زيدان عن النقص في الأحداث بوصف الآداب والعادات ومظاهر الحياة وال عمران في بغداد ، بحيث يستغرق هذا الوصف نحو نصف صفحات الكتاب . فالكثير من الفصول لا تستهدف غير هذه الغاية كما تشير العناوين : « ألوان من الرقيق » ، « الجوارى المولكات » ، « المساومة » ، « الصولجان والكرة » ، « مناطق الكباش » ، « دار النساء » ، « مجلس الطرب » ، « المغنيات وأبو نواس » ، « الطرب بالطعن » ، « دار القبرار والجوارى المقنودات » .

القصة الغرامية والحب والتاريخي و ظهور « الآداب والعادات » هي دعائم الرواية الزيدانية ، ومن أهم أساليبها « الحوار » فهو يمثل - إلى جانب المقدمات التاريخية التمهيدية - الوسيلة الأساسية لنقل المادة التاريخية إلى القارئ ، ومن ثم كان الطابع السردى الذي يسم الحوار .

يبدأ زيدان قصة العباسية قرب النهاية بعد أن اكتملت فصولها أو كادت ، ثم يستعيد عن طريق الحوار بين الشيخوخة بداياتها ومبقاتها ، وأسلوب الحوار السردى كما هو معروف من الأساليب المفضلة عند الرواة والأخباريين الذين ينقل المؤرخون العرب عنهم ، والحوار من ملامح فنون القول والآداب الشعرية ومن الأساليب الأساسية في النصوص الشعرية . وأوليس من الغريب أن يترك هذا التواتر الأدبي بصماته الواضحة على مؤلفات التاريخ العربي ، وإن يصيغها بصيغته .

ونعكس أثر هذا التواتر واضحا في مؤلفات زيدان في فترة يأخذ الحوار من المصادر التاريخية دون تحوير أو تغيير ملحوظ . (مثال ذلك استجواب الرشيد لجنود مصر يخبر ابن عبد الله العلوي في فصل « الملاحمة » 10 وتاريخي أجوى - وهذا هو الأعم - يوزع روايات الرواة إلى أبواب ، أي يقيمها في شكل حديث بين الشيخوخة

(وامتلة ذلك كثيرة ، منها حديث جعفر بن الهادي مع اسماعيل بن يحيى في فصل « مقتل الهادي » و « البرامكة والدولة » ، وفي الفصل المعنون « عبد الملك بن صالح »)

وأحيانا ما يأتي زيدان برواية من الروايات على لسان أحد الشخصيات للتعريف بوجهة نظر بعينها يرى الا يغفلها فهو على سبيل المثال يجرى على لسان « عتبة » جارية العباسية عبارات ابن خلدون . تقول « عتبة » لمولاتها : « فانك بنت خليفة واخت خليفة ، ، ويتصل نسبك بعم النبي صلى الله عليه وسلم . والوزير مولى فارسي مثل سائر الموالى ، فكيف تتزوجينه ، ومثلك تتزوج احد أبناء عمها الهاشميين . . على أن الخلاف هو أن ابن خلدون يرفض بهذه الحجة فكرة العقد من الأساس ، أما عتبة فهي تبرر بها شرط العقد ، وهو أنه دون خلوة . فزيدان يبنى روايته على فكرة العقد ، ومع ذلك فهو لا يسقط وجهة نظر ابن خلدون تماما ، وإنما يوردها بشكل مغاير .

ونادرا ما يأخذ الحوار صورة الجدل الدرامي أو ينبع من موقف الصراع المباشر ، فالوظيفة الأساسية للحوار هي نقل الاخبار والوصف . وربما الاصح القول : أنه « وصف وتاريخ في صورة حوارية » .

من أوضح ما تبرزه روايات المؤرخين عن نكبة البرامكة هو انعدام الحد الفاصل بين التاريخ والادب . والتاريخ بوجه عام لا غناء له عن فنون العرض والتصوير والتفسير ، أى لا غناء له أيضا عن وسائل الادب . ومن جانب آخر ، فالرواية التاريخية - مثلها مثل الفيلم التاريخي الذي ورث هذا الفن عنهما - تكتمل أولا بادماج المادة التاريخية في اطار الرواية الادبية . وليست هذه المهمة بيسيرة ، خاصة حين يكتب المؤلف لقارئ ليست له دراية كبيرة أو دراية ما بوقائع التاريخ وتفاصيله وبيئته ، بل ولا تتوفر لديه مراجع التاريخ بالمعنى الحديث ، وهو ما ينطبق على القارئ العربي في القرن الماضي ومطلع القرن الحالي ولا غرابة أن يسند زيدان الى الرواية التاريخية مهمة تعليم التاريخ ، ولا غرابة أن تغلب عليه

صفة المؤرخ على صفة القصاص ، وان تستغرقه مهمة التجميع والتركيب والتنسيق للمادة التاريخية على ما عداه ، بحيث نلمس باستمرار التوتر بين المادة التاريخية والمادة الروائية فهو أيضا يمارس فن الرواية دون الاستناد الى تراث ، وفي مرحلة لم تتطور فيها بعد أساليب هذا الفن في العربية .

وايا كان الامر ، فالمادة التاريخية التي تعالجها « العباسية » تكاد تندرج تحت مفهوم الادب ، والمادة الروائية تنبع دون جهد من اخبار المؤرخين ، وجميع شخصيات الرواية ، بما في ذلك الشخصيات الثانوية ، ترد في المصادر التاريخية ، واحداث الرواية تنحصر في حيز محدود من الزمان والمكان . بهذه المسبقات تميزت « العباسية » عن غيرها من روايات زيدان بالبساطة في التكوين والاتساق .

لا يعبر زيدان عن فلسفة خاصة للتاريخ ، وانما يترك احداث الماضي واخباره تعبر عن نفسها . وقد يتعاطف مع الضحايا ، ولكنه يعود فيجتهد في موازنة هذا التعاطف ، وقد يجتهد في تقصي الاسباب والروابط ولكنه لا يذهب في ذلك بعيدا ، ويوكل الكلمة الاخيرة لما جرى به التاريخ . وهو في جميع الاحوال لا يخضع الماضي لفكرة فوقية او عقيدية ، ولا يتسامي بعيدا بالاحداث والشخصيات .

فمن قناعاته الاساسية التي ترتبط بتكوينه الذاتي : ان الحقيقة نسبية ، وقد تكون متعددة الوجوه ، وقد اثار عليه هذا الموقف البعض لانه - بايجاز - لم يكتب كما ارادوا منه ، او كما يقول مصطفى لطفى المنفلوطى : فهو « لم يكتب التاريخ بلسان الدين كما يكتبون وينهج فيه كما ينهجون » (١٦) . وانما قصد التعريف بالتاريخ الاسلامي عامة وبتاريخ التمدن والحضارة الاسلامية خاصة . ومن هذا المنظور نستطيع ان نقرا « العباسية » كقصيدة تصف جوانب من مظاهر الحياة والعمران في مدينة بغداد في عصر الرشيد .

د . ناجي نجيب

العباسة أخت الرشيد

أو

نكبة البرامكة

رواية تاريخية تشتمل على نكبة البرامكة
وأسبابها ، وما يتخلل ذلك من وصف مجالس
الخلفاء وملابسهم ومواكبهم ، وبيان ما بلغت
اليه الدولة من الحضارة والابهة في عصر الرشيد

تأليف

عرجى زيدان

دار الهلال

أبطال الرواية

* هرون الرشيد	: الخليفة العباسي
* جعفر البرمكي	: وزير الرشيد
* العباسة	: أخت الرشيد
* زبيدة	: زوجة الرشيد
* أبو العتاهية	: شاعر الرشيد
* الامين	: ابن هرون الرشيد
* عتبة	: جارية العباسة
* الفضل بن الربيع	: وزير الامين
* مسرور الفرغاني	: الجلاد

مراجع هذه الرواية

هذه هي المراجع التي اعتمدها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

- | | |
|-------------------------------------|-----------------------|
| * تاريخ الطبري - الفخري - ابن | * مروج الذهب للمسعودي |
| * الاثير - أبي القداء - المسعودي | * فوات الوغيات |
| * كتاب الاغانى لأبي الفرج الاصفهاني | * نفع الطيب |
| * تاريخ ابن خلكان | * ديوان أبي نواس |
| * العقد الفريد | * سراج الملوك |
| * اعلام الناس للاتليدي | * الفرج بعد الشدة |

مدينة بغداد

كانت عاصمة الاسلام في أيام الراشدين يثرب (المدينة) تبركا بقبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعلها بنو أمية في دمشق مقر أحزابهم من قبائل العرب . فلما أفضت الخلافة الى بنى العباس ، وقد ساعدتهم عليها مواليهم الفرس ، جعلوا عاصمة ملكهم على حدود بلاد الفرس . وكانوا أولا في الكوفة ، اذ بايعهم أهلها ثم انتقلوا الى الانبار على الفرات ، وفيها توفي السفاح أول الخلفاء العباسيين وخلفه المنصور . وأول شيء قام به ، قتل أبي مسلم خوفا منه على منصبه .. فقتله غيلة كما تقدم في رواية « أبي مسلم الخراساني » فأصبح المنصور بعد قتله يخشى على نفسه من أصحاب أبي مسلم وأشياعه ، وخاصة بعد أن ثار عليه منهم جماعة الراوندية ، وكادوا يفتكون به لو لم يدافع عنه معن ابن زائدة . وقد فتك رجال المنصور بالراوندية وقتلوهم ، لكنه ظل خائفا من مثل هذه الثورة .. فعمد الى بناء حصن يأوي اليه بأهله ورجال حكومته ، فبنى بغداد بشكل مستدير سمى مدينة المنصور ، وجعل قصره في منتصفها وسماه قصر الذهب ، وجعل قصور الأمراء ورجال الدولة وأبنية مصالح الدولة حوله

وبينها الأسواق للبيع والشراء . وبنى حول المدينة سورا في ثلاثة أسوار الواحد داخل الآخر .. الأول أو الداخلى يحيط بالأبنية ووراءه فراغ فيه أبنية كالقلاع ونحوها ، ووراء الأبنية سور ثان متين ووراءه فراغ للمرور حوله . ووراء هذا الفراغ سور ثالث ، ووراء هذا السور خندق فيه الماء . وجعل للمدينة أربعة أبواب سماها بأسماء المدن التى تتجه نحوها ، وهى أبواب البصرة ، والكوفة ، والشام ، وخراسان . وافتتح فيها أربعة شوارع كبرى تمتد من الأبواب الى مركز المدينة

وكان المنصور يقيم أولا فى قصر الذهب فى منتصف مدينته ، ثم اطمأن باله وازدحمت المدينة .. فشيّد قصرا خارج المدينة على شاطئ دجلة سماه قصر الخلد . وظل القصران مقر الخلفاء بعد المنصور الى أيام الرشيد ، وكان الرشيد يفضل الإقامة فى قصر الخلد وأكثر إقامته فيه

على ان مدينة المنصور لم تكن وحدها كافية لإقامة الجند ومن يلحق بهم من الباعة والأهل وغيرهم ، فاهيك بمن نقاطر الى تلك العاصمة من المسلمين وغير المسلمين ، فابتنوا المنازل خارج المدينة ، ورأى المنصور أن يقلل الازدحام ، فرغّب الناس فى السكنى على البر الشرقى فى مكان سمي الرصافة وأنشأ فيه مسجدا وقصرا فابتنى الناس حولهما المنازل . واتفق ان ابنه المهدي جاء بجيشه من خراسان فنزلوا فى الرصافة لأنها آخر

طريقهم برا من خراسان ، فأمرهم المنصور أن يبقوا هناك ، وأقطعهم القطائع فبنوا المنازل وأصبحت الرصافة بلدا كبيرا . وكانت في بادئ الأمر معسكرا يعرف بمعسكر المهدي ، ثم امتدت جنوبا وشمالا فتولدت أحياء المخرم والشماسية . وأقام الخلفاء الدور على ضفاف دجلة شرقا وغربا ، يهنا منها في هذا المقام قصر الخلد ، وقصر زبيدة ، وكلاهما على الضفة الغربية ، وقصر جعفر البرمكي ، ووراءه قصر الأمين على الضفة الشرقية ونشأت حول مدينة المنصور أحياء أخرى على الجانب الغربي، أهمها الكرخ ، وفيه كان يقيم التجار من الأجانب وخاصة الفرس . وحى الحرية في الشمال وأكثر سكانه من العرب . فكانت بغداد في أيام الرشيد قسمين : قسما شرقيا ، وقسما غربيا بينهما ثلاثة جسور أهمها الأوسط ، ويعرف بالجسر ، أو جسر بغداد وهو يوصل بين مدينة المنصور والرصافة رأسا . وكان في بغداد على عهد الرشيد وما بعده ، أنهار تنبع من دجلة والفرات وتخترق أحياء المدينة ، وقد بنى الناس قصورهم على ضفافها أو فيما بينها .. أشهرها : نهر عيسى ، ونهر طابق ، ونهر الدجاج ، ونهر البزازين ، ونهر الصراة ، ونهر جعفر ، وغيرها

وكانت بغداد في أيام الرشيد آهلة بالقصور والحدائق وأهلها في رغد ورخاء ، والأموال تنصب في خزائنها بالملايين ، والخليفة يهب ويجيز ، والناس يتقاطرون الى بغداد التماسا للتكسب بما

يَرْضَى الخليفة أو رجاله من أسباب الارتزاق .. وفيهم العربى ،
 والفارسى ، والرومى ، والتركى ، والكردى ، والأرمنى ،
 والكرجى ، والسندى ، والهندى ، والصينى ، والزنجى ،
 والحبشى .. على اختلاف الأجناس ، بين صانع ، وتاجر ، ونحاس ،
 وشاعر ، ومغن ، وأديب ، ونحوى ، وراو .. وفيهم المسلم ،
 والذمى ، والحر ، والمولى ، والعبد ، والغلام ، والجارية . وكلهم
 يحومون حول دار الخلافة ، أو دور الأمراء يبيعونهم السلع ، أو
 يتملقونهم بالمديح ، أو يدسون اليهم أسباب الزلفى استنزافا
 للأموال . وهؤلاء يبذلون الأموال بسخاء ، يأنفون أن تعد
 عطاياهم بمئات الدراهم ، وإنما يعدونها بالآلوف وألوف الألوف .
 وكيف يقدرّون قيمة المال ، وهو ينصب فى خزائنها انصباب
 السيل .. اذ كانوا يشاطرون أهل الأرض غلاتهم فزلا عن الجزية
 والغنيمة ، فاذا صار ذلك الى الخليفة وأمرائه استكثروه فأنفقوه
 على من يحوم حولهم من المقربين

- ٢ -

أبو العتاهية

وكان فى جملة المرتزقين بالشعر على أبواب الخلفاء أبو العتاهية
 وأصله من الموالى مثل أكثر شعراء ذلك العصر

وكان أبو العتاهية في أول أمره يصنع الجرار ويحملها في قفص على ظهره ويتجول في الكوفة لبيعها ، وكان ذا قريحة شعرية فنزل بغداد .. وما لبث أن ارتقى بشعره الى مجالسة الخلفاء . وأول من قربه منهم المهدي بن المنصور ، وقد فتن به وبشعره حتى كان المهدي يصحبه في الصيد أو النزهة ويكرمه ويجيزه . وكان ذلك شأنه مع الهادي بن المهدي ، ولم تطل مدة حكم الهادي ولكنها على قصرها أثرت في قلب أبي العتاهية ، فلما مات الهادي عاهد أبو العتاهية نفسه ألا يقول شعرا بعده

فلما تولى هارون الرشيد ، طلب اليه أن يقول شعرا فأبى فغضب عليه ، وأمر بحبسه في مكان مساحته خمسة أشبار في خمسة فاستعطفه وقال شعرا غنى به الموصلى المغنى المشهور ، فأمر له الرشيد بخمسين ألف درهم .. وأصبحت له عند الرشيد منزلة كبيرة ، حتى كان لا يفارقه في حضر ولا سفر الا في طريق الحج ، وعيّن له الرشيد راتبا سنويا غير الجوائز ، وغير ما كان يناله من رجال الدولة وجوائزهم يومئذ بالوف الدراهم ، فجمع مالا كثيرا ، لكنه كان مع ذلك طماعا شديد البخل يجمع المال ولا ينفقه ، ولا يدخر وسعا في حشده بأية طريقة كانت ، وخاصة بعد أن نذر الزهد وعاهد نفسه أن لا ينظم شعرا فقل تكسبه من الشعر ، فأخذ يغتنم الفرص للاكتساب من أبواب أخرى

وكان أبو العتاهية في خلافة الرشيد حوالي سنة ١٧٨ هـ

يحضر مجلس محمد الأمين بن الرشيد ، وهو يومئذ في السابعة عشرة من عمره . وكان الأمين ميالا الى القصف واللهو منذ نعومة أظفاره لا يخلو مجلسه من المغنين ، وأهل الخلاعة ، والجواري ، والعلمان ، وهو أول من استكثر من العلمان والخدم وتفنن في اتقائهم وتزيينهم . وكان يشهد مجلسه كثيرون من الشعراء ولا سيما أهل القصف والمجون منهم ، كالحسن بن هانيء الملقب بأبي نواس : وكان أبو العتاهية مقربا من زبيدة أم الأمين ، فكان يحضر مجلس الأمين لعله يصيب كسبا أو جائزة بسبيل من السبل . وكان الأمين كريما مسرفا لا يعرف للمال قيمة

وكان لا يشهد مجلس الأمير من أهل الجد والدهاء الا من كان له غرض سياسى لا يرى الوصول اليه الا على يد الأمين ، أو تقربا به الى أمه زبيدة وهى أحب نساء الرشيد اليه لأنها ابنة عمه ولها كلمة نافذة عليه

وكان أكثر نساء الخليفة يومئذ من الجواري المعتقات ، ولذلك لم يكن بين العباسيين خليفة أمه وأبوه هاشميان الا الأمين . فكان الذين يحبون التقرب من الرشيد بالدالة أو الوساطة أو الدسائس يتزلفون اليها بالثناء على ابنها ، مع اعتقادهم انه ليس أهلا للخلافة ، ويطعنون على أخيه المأمون لأن أمه جارية فارسية ، ويحطون من قدره عندها .. وهو في الحقيقة أفضل من ابنها عقلا وأدبا

وكان أكثر الناس سعيا في هذا السبيل الفضل بن الربيع لأن أباه كان وزيرا للمنصور والمهدى ، وكان هو يرشح نفسه للوزارة . فلما تولى الرشيد الخلافة ، قرَّب يحيى بن خالد البرمكى وفوض الى ابنه جعفر بن يحيى الوزارة بكل معانيها لأن أباه يحيى كان سببا في توليه الخلافة ، فشق ذلك على الفضل بن الربيع ، واثارت في نفسه عوامل الحسد ولم يدخر وسعا في خلق الأسباب للإيقاع به ، ولم يجد سبيلا الى ذلك الا بالتزلف الى زبيدة وابنها لعلمه انها تكره الفرس جملة والبرامكة خاصة ، ولا سيما جعفر بن يحيى لأنه حمل الرشيد على مبايعة المأمون (ابن جاريته) بولاية العهد بعد ابنها الأمين .. فكانت تقرَّب كل من ينصر ابنها ويطعن على المأمون ، ولذلك كان الفضل يحضر مجلس الأمين في لهوه ويسايره في قصفه ويتملقه للغرض الذي قدمناه فاتفق في مجلس حضره أبو العتاهية تلك السنة ، ان ذكَّر الأمين عزمه على ابتياع بعض الجوارى البيض ممن يحسن الغناء ، يضمهن الى اللواتى في قصره ، وأكثر المغنيات يومئذ من الجوارى الصفر ..

وكانوا يقتنون الجوارى البيض للترفيه فقط ، وأول من علم الجوارى البيض الغناء ابراهيم الموصلى مغنى الرشيد . فأحب الأمين أن يتخذ مغنيات من البيض ، فأخبره الفضل بن الربيع أن كبير النخاسين أتى بعدد من الجوارى الحسان ، أنزلهن عند كبير

من تجار الرقيق في بغداد ، وهو يهودى واسمه فنحاس ، وان
الناس معجبون بجَمَالهن الفتان ، فيمكنه ابتياع بعضهن ويعهد
الى الموصلى أن يعلمهن الغناء . وأخذ الفضل على نفسه أن
يذهب في الغد الى ذلك التاجر ، فينتقى له أحسنهن طلعة وأطربهن
صوتا . فلما سمع أبو العتاهية ذلك ، توقع منه ربحا كبيرا
بالتواطؤ مع فنحاس لعلمه أن الأمين لا يهتم بمقدار ما يدفعه من
المال في هذا السبيل

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، فرأى أن يذهب في تلك
الليلة الى فنحاس يخبره بعزم الأمين ، وانه هو الذى حمله على
إبتىاع الجوارى من عنده ، ويغريه على زيادة مبالغ كبيرة على
الثمن الذى يقدره هو ، على أن تكون تلك الزيادة مقابل سعيه
في ذلك

- ٣ -

غريبان

فهول أبو العتاهية من ساعته يتلمس دار ذلك التاجر ،
والمسافة بينهما بعيدة لأن قصر الأمين في جنوب المخرم في الجانب
الشرقى من بغداد ، ودار فنحاس في أعالي الجانب الغربى ، بقرب
دار الرقيق التى أنشأها المنصور ، لما كان يتتاعه من الجوارى

والعلمان المجلوين . وكان أبو العتاهية أبيض اللون ، أسود الشعر ، نظيف الثياب ، له هيئة حسنة ، وقد عرف باللباقة والخصافة . وكان تلك الليلة في ملبس بسيط غير ما تعود لبسه في مجلس الخليفة أو ابنه أيام كان ينظم الشعر ، وكان منذ عاهد نفسه على الزهد يلبس ثياب الفقراء ، ولعل بخله حفزه الى ذلك . وكان يلبس فوق ثيابه عباءة بسيطة ، ويعتَمُ بعمامة بسيطة ، كأنه من عامة الناس .. فالتفت تلك الليلة بالعباءة وغير شكل عمامته اخفاء لحقيقة أمره لأنه ذاهب في شأن يحتاج الى التستر فمشى على شاطئ دجلة وهو يتردد بين أن يصعد في إحدى السفن التي تسير في دجلة حتى يصل الى الجسر ، وينزل من هناك ماشيا الى دار الرقيق ، أو يجعل طريقه كله برا . وكان يفضل الذهاب ماشيا فرارا من نفقة الانتقال بالسفينة ، أو على دابة من دواب الأجرة . فلما أطل على دجلة ، رأى بالقرب من الشاطئ شراعا منشورا وسفينة تخترق عباب الماء على عجل . فاستبشر وعزم على الركوب بها . وكان الليل قد أسدل ستاره وسكنت الطبيعة بعد ذلك المكان عن الشوارع المزدحمة في الكرخ ، لأن أكثر الأبنية القائمة على ضفاف دجلة من القصور الشامخة ، والحدائق الغناء ، للخليفة أو وزيره أو بعض أولاده أو أهله .. فصاح أبو العتاهية بالسفينة أن تقف فلم يجد صياحه نفعا ، فأعاد النداء فأجابه ربانها بأنه لا يستطيع الوقوف ، فأعاد الصياح

قائلا : « قف .. ناشدتك المروءة »

فسمع أبو العتاهية عند ذلك لفظا ، ورأى النوتية في حركة عند الشراع فأرخوه بحيث تبطيء السفينة في سيرها ، ورأى حركة المجاذيف .. فعلم أن أهلها في عجلة لأمر ما ، وليس لمجرد النزهة في مياه النهر على جارى عادة أهل بغداد ، ولم تكن الليلة مقمرة تشجع على النزهة . وبرز رجل حتى وقف على حافة السفينة ونادى : « من أنت ؟ »

فقال أبو العتاهية : « انى غريب أمسى على المساء ، وأحب الطلوع الى الحرية ، ولا أعرف الطريق »

فلما سمع الربان قوله تحول عن حافة السفينة حتى توارى ، والسفينة تتباطأ في سيرها . ولبث أبو العتاهية في انتظاره ، وبعد هنيهة عاد الربان وهو يقول : « مرحبا بك .. تفضل » وأدنى السفينة من الشاطئ ثم أمر أحد النوتية فألقى خشبة بينها وبين الشاطئ ، مشى عليها أبو العتاهية حتى دخل السفينة ، وحيّا الربان فرد التحية وأشار اليه أن يجلس على مقعد بجانب الشراع . فجلس وأجال نظره فلم يجد هناك غير النوتية وهم أربعة يستعينون على سرعة المسير بالتجذيف . وحانت منه التفاتة الى مؤخر السفينة فرأى على نور القبس رجلا وامرأة عليهما ثياب أهل البادية ، وقد جلسا وأحنيا رأسيهما من النعاس ، وبجانب الرجل نعال غليظة من نعال أهل الحجاز

ورأى بين أيديهما غلامين قد توسدا ظهر السفينة وجعللا رأسيهما على حجر المرأة ، كل واحد من ناحية .. وعليهما ثياب أهل البادية ، وقد غطتهما المرأة بمطرف من الخزالموشى ، فاستغرب ذلك .. ودفعه حب الاطلاع الى معرفة خبرهما

وكانت السفينة تخترق النهر .. والجو هادىء لا يسمع فيه غير مسير السفينة تشق عباب الماء ، وأصوات المجاذيف تنقر سطحه بانتظام . وما لبثوا بعد برهة أن أطلوا على أبنية بغداد وقد أنيرت القصور على الضفتين ، ثم سمعوا أصوات المؤذنين يدعون الناس الى صلاة العشاء ، فوجد أبو العتاهية بذلك حيلة لمخاطبة الربان فةال : « أليس عندك طنفسة أصلى عليها العشاء ؟ » فنهض الربان وجاءه بطنفسة فرشها على ظهر السفينة بالقرب من أولئك الغرباء . فنهض أبو العتاهية وأخذ فى الصلاة وعيناه لا تتحولان عن الغريبين والغلامين وهو يتفرس الوجوه . فعلم ان الرجل والمرأة من أهل الحجاز .. وهما كهلان ، وخشونة البادية ظاهرة فى ملبسهما .. أما الغلامان فكان نور القبس قد وقع على وجهيهما ، فعرف أبو العتاهية من خلال خفقان نور القبس انهما أخوان ، أحدهما فى الخامسة من العمر ، والآخر فى نحو الرابعة ، وفى وجهيهما جمال أهل المدن بلون أبيض مشرب بحمرة ، ولهما عيون طويلة الأهداب كأنها مكحولة بالاثمد ، وقد زادهما دفء الغطاء اشراقا وحمرة وهما مستغرقان فى النوم . ورآهما أصغر

سنا من أن يكونا ابني هذين البدوين .. فازداد رغبة في معرفة الحقيقة عنهما .. وما أن فرغ من الصلاة حتى اقترب من الربان وسأله قائلاً : « لم أعرف رفاقنا الليلة ، فهل هم غرباء مثلى ؟ » فقال : « نعم .. » .

قال أبو العتاهية : « من أين أتوا ؟ »

فقال الربان : « مالك ولهذا السؤال ؟ »

قال : « لأن الغرباء أنسباء »

فضحك الربان ضحكة مصطنعة وقال : « لا يهمك الاطلاع على أخبار الناس ، دع عنك الفضول .. فانى لم أسألك من أين أتيت ، أو الى أين أنت ذاهب ، ولا ماهو اسمك ونسبك » . قال ذلك وتركه وتحول الى حافة السفينة ، وكانت السفينة قد تجاوزت الجسر السفلى وكان مفتوحا ، وفتحه سهل لأنه مؤلف من السفن السابحة متصلة بعضها ببعض بالسلاسل ، وفوقها ألواح من الخشب لمرور الناس والدواب . وبعد أن تجاوزت السفينة الجسر أطلت على مدينة المنصور واقتربت من الجسر الأوسط ، ويندر أن يكون مفتوحا ، فقال الربان : « قد اقتربنا من الجسر ، وهذا آخر شوطنا .. فتفضل وانزل »

وكان أبو العتاهية قد استاء من خشونة الربان ، وهم ان يطلعه على حقيقة حاله ، لأنه لو عرفه لاحترمه .. وذلك لما كان للشعراء من النفوذ في ده الخلفاء ولكنه فضل الكتمان . ولما

سمعه يناديه وقف وأسرع الى حافة السفينة فاذا هو بقرب قصر الخلد حيث يقيم الرشيد ، وقد أضيء القصر بالشموع الملونة ، وانبعثت الأنوار من النوافذ على أزهار الحديقة .. وتضوعت الروائح الزكية ، فاختلطت رائحة البخور والطيب بشذا الأزهار والرياحين ، وتذكر أبو العتاهية المهمة التي هو ذاعب اليها وما يتوقعه من وراء نجاحها من الكسب المالى ، فأغضى عما كان يبعثه عليه حب الاستطلاع وقال للربان وهو يضحك : « هل تنزل فى قصر أمير المؤمنين ؟ »

قال : « سننزلك وراءه بالقرب من الجسر »

قال : « حسنا » وعاد الى التفكير فى تدبير ما ينبغى أن يقوله لفنحاس صاحب دار الرقيق اذا لقيه .. وأخذ يعد نفسه للمسير على قدميه المسافة الباقية وما هى بقليلة ، وود لو ان هذا الجسر مفتوح مثل الجسر السفلى ل يتم سفره بالسفينة ، فأصلح عمامته وشد منطقته فوق القباء وتزمل بالعباءة حتى اذا دنت السفينة من الشاطئ الغربى ألقوا له خشبة يعبر عليها ، وهو يثنى على الربان لحسن وفادته ، وذهنه لا يزال عالقا بما شاهده هناك .. ولكن سروره بما كان يأمل فيه من الكسب أنساه كل شيء

- ٤ -

عتبة

فلما وطىء الشاطيء سار مهرولا نحو الشمال حتى قطع شارع باب خراسان ، ودخل في شارع دار الرقيق ، فرأى الحوانيت قد أغلق معظمها والأزقة لا تزال مزدحمة بعابري السبيل . فحدثته نفسه أن يكتري حمارا يركبه ولكن غلب عليه البخل ، فظل ماشيا وهو يطيل خطواته حتى أقبل على دار فنحاس ، وهي قصر كبير لأن الرجل كان من أهل اليسار والثروة بما كان يكتسبه من تجارة الرقيق ، وكان أكثر بيعه للخلفاء أو لأولادهم فاذا وقف على جارية جميلة أو غلام جميل انفذ بعض السماسرة الى دار الخليفة أو الأمير أو غيرهما يسعون في ترويج تلك السلع ، وكثيرا ما يكون الوسيط بالسمسرة بعض المقربين من بطانة الخليفة أو ولي العهد ممن يحبون الكسب من هذا السبيل وخاصة الشعراء والمغنين ، ولم تكن هذه أول مرة اكتسب أبو العتاهية فيها مالا بالسمسرة

فلما أطل أبو العتاهية على قصر فنحاس اتبته لنفسه ، وقد مضى هزيع من الليل ، فخشى أن يكون الرجل قد ذهب الى الفراش لأنه قلما يطيل السهر ، اذ لم يكن مغرما بالسماع أو مجالس الشراب .. وانما همته أن يروج سلعته بين أهل اللهو ،

ويسره أن يبالغوا في الترف والقصف لتزداد أرباحه . فكانت عاداته أن يتناول عشاءه عند الغروب ، فاذا حان وقت العشاء ذهب الى فراشه

وكان أبو العتاهية يعلم ذلك ، ولكنه كان يأمل أن يكون فنحاس ساهرا تلك الليلة .. فلما أطل على القصر رأى فيه الأنوار على غير المعتاد فانشرح صدره ، وعده ذلك من أسباب توفيقه.. فتحوّل من شارع دار الرقيق نحو اليسار في طريق يؤدي الى القصر . فلما دخل الزقاق المؤدى الى بابه رأى عند الباب أشباحا وسمع عن بعد لغطا ، فأصاخ وتفرس فرأى دابتين ترجل عنهما شخصان معهما غلامان ، فدهش لما علم انهم الرفاق الذين شاهدتهم في السفينة ، وتبادر الى ذهنه حينئذ ان الغلامين من الرقيق جيء بهما للبيع ، ولكن الرجل لم يكن يبدو أنه من النخاسين أو التجار ، وانما كان مظهره يوحي بأنه من البدو ..

فتباطأ أبو العتاهية وانزوى في مستتر بحيث يرى ويسمع ولا يعلم به أحد ، فرأى الرجل الشيخ بعد أن ترجل عن البغلة وهو يحمل الغلام على كتفه ، أمسك بحلقة الباب ودقها دقا عنيفا ، ووقف ينتظر الجواب فابتدرته المرأة قائلة : « هل تظنهم في انتظارنا ؟ »

فأجابها الرجل : « لا بد من ذلك .. ألا ترين الأنوار في القصر ؟ .. لا بد أن تكون مولاتنا في انتظارنا هنا على أحر من

الجمر لأتنا أبطأنا عليها »

فلما سمع أبو العتاهية كلامهما ، لم يجد فيه لغة أهل مكة ولا المدينة بل هو أقرب الى لغة أهل بغداد المولدين ، فزادت رغبته في معرفة سر هذا الأمر ، وما لبث أن رأى خوخة الباب قد فتحت وأطل منها رأس امرأة بيدها مصباح قد وقع نوره على وجهها ، وظهرت ملامحها ظهورا تاما .. فشاهد وجهها مشرقا ، وعينين سوداوين ، وحاجبين مقوسين ، ومبسما لطيفا ، وشعرا قد ضفر ببسطة .. وكان مظهرها يدل على انها من الجوارى البيض ، وانها في نحو الأربعين من عمرها ولا يزال الجمال ظاهرا في عينيها . ولما وقع بصره عليها خفق قلبه لأنه تذكر وجهها يعرفه ويحبه ، وكان قد تعلق بصاحبته منذ بضع عشرة سنة ، وقد منعت عنه وبقيت لذلك حرقة في قلبه.. فأخذ يتفرس في المرأة ليتحقق من ظنه ، فاذا هي تقول بلهفة : « جئتم ؟ الحمد لله .. لقد أبطأت علينا يا رياش »

قال : « لقد أبطأنا رغم ارادتنا ، اسألى برئة عما لاقيناه من الصعاب في أثناء الطريق ، ألم نذهب أولا الى سيدنا أعزه الله فأبقانا عنده الى المساء .. فجئنا من عنده توا الى هنا .. هل مولاتنا هنا يا عتبة ؟ »

فلما سمع أبو العتاهية ذلك الاسم بعد أن سمع صوت الجارية يغت وتزايدت ضربات قلبه ، وتحقق انها الجارية التي كان يهواها

في أيام المهدي ، وقد أكثر من تشبيهه بها وهو لا يجرو أن يطلبها منه ، فاحتال في عيد النيروز فأهدى الى المهدي برنية فيها ثوب مطيب ، وكتب على حواشيه بيتين يشير الى طلبها منه ، وهما :

نفسى بشيء من الدنيا معلقة

الله والقائم المهدي يكفيها

انى لأياس منها ثم يطمعنى

فيها احتقارك للدنيا وما فيها

فأدرك المهدي يومئذ غرضه ، فهمم بدفع عتبة اليه .. فجزعت الجارية وقالت : « هل يرضيك يا أمير المؤمنين أن تدفعنى الى رجل بائع جرار ومتكسب بالشعر ؟ » . فأعفاها وقال : « املأوا له البرنية مالا » وأوصاه أن يكف عن التشبيب بها ، فكف أبو العتاهية عن ذكرها .. ولكن حبها ظل في قلبه . ولما مات المهدي وتفرقت جواريه لم يعلم أين كان مصيرها ، فلما رآها في تلك الليلة هاجت في قلبه حرارة الشباب .. ولكن دهشته مما يراه شغلته عن تلك الذكرى ..

— ٥ —

دار فنحاس

أما عتبة ، فانها عادت الى الخوخة ، وأمرت البواب ففتح

الباب ، فدخل الرجل (ريش) يحمل أحد الصبيين على كتفه ،
وقد ألقى الصبي رأسه على زنديه فوق رأس الرجل ، واستغرق
في النوم وذؤابتا شعره مرسلتان على كتفيه فوق الدراعة ،
وكذلك كان الصبي الآخر على كتف المرأة ، وعتبة تسير بين
أيديهما بالمصباح في فناء الدار حتى تواروا عن بصر أبي العتاهية.
ثم رأى البغلتين في الزقاق عائدتين يسوقهما المكارى ، فظل واقفا
وهو يفكر فيما رآه ، وقد نسي المهمة الأصلية التي جاء من
أجلها ، وأصبح همه كشف ذلك السر ، وخاصة بعد أن سمعهم
يتساءلون عن مولاتهم فقال في نفسه : « من عسى أن تكون تلك
المولاة ! لعل في الأمر سرا اكتسب من وراء كشفه مالا ! » فرأى
أن يؤخر دخوله هنيهة لئلا يلحظ أهل البيت انه عرف شيئا من
أمر القادمين .. فاذا دخل بعد ذلك احتال في كشف السر، فانتظر
حتى سمع صرير الباب ورآه يغلق ، ثم سمع صوت اغلاقه فتقدم
نحوه ودقه بالحلقة فسمع رجلا ينادى : « من ؟ »

فأعاد القرع ففتحت الخوخة ، وأطل رجل من أنباط السواد
اسمه حيان، كان فنحاس قد جعله بوابا .. وكان يعرف أبا العتاهية
وشاهده هناك غير مرة . فلما رآه في تلك الساعة وقد توسط
الليل استغرب مجيئه ، لكنه رحب به وفتح له فدخل أبو العتاهية
وهو يتظاهر بالتعب وقال : « هل مولاك في البيت يا حيان ؟ »
فقال بلهجة الأنباط وهم يلفظون الحاء هاء ، والعين همزة ،

والقاف كافا : « نأَم .. هل تريد الدخول إليه ؟ »

أى : « نعم ... هل تريد الدخول عليه ؟ »

فقال وهو يمشى فى فناء الدار : « لم يكن مرادى الدخول عليكم فى هذه الساعة لو لم أر البيت يشع نورا على غير المعتاد ، لأننى لم أعهد المعلم فنحاس يظل ساهرا الى ما بعد العشاء ، فاستغربت ذلك وأحببت أن أعرف الباعث على هذه السهرة ، فأرجو أن يكون السبب احتفالكم بزواج ، أو مجيء زائر » قال ذلك وهو يمازح البواب ، لعله ييوح بشيء

فأجابه : « ليس ثمة ما يثكلِك (يقلق) الراحة ، ولكنى لا أأرف (أعرف) سبب السهرة .. » ثم بدل الحديث حالا فقال : « أتريد أن ترى سيدى الآن ؟ »

قال : « نعم .. أين هو ؟ »

فقال : « انى ذاهب لأدأوه (لأدعوه) لك » وأسرع فى مشيته حتى دخل فى دهليز ينفذ الى سلم صعد عليه ، وأبو العتاهية يتبعه لثلا يبقى خارجا ويحدث ما يمنعه عن الصعود . وكان الدهليز والسلالم كلها مضيئة بالشموع ، ولكنه لم ير أحدا من الخدم أو الجوارى فى طريقه ، ولم يكن يسمع ضوضاء ولا غوغاء ، فعلم ان القادم يريد التستر . ثم وصل حيان الى غرفة تعود أبو العتاهية أن يجالس فيها فنحاس ، وكانت مظلمة فأدخل اليها حيان مشمعة فيها عدة شموع ودعاه للجلوس فجلس ،

وذهب النبطى ليدعو مولاه فمكث أبو العتاهية فى انتظاره وهو يدبر الحيلة للبقاء هناك تلك الليلة ، ويود أن يعرف مقر أولئك الضيوف فى القصر ، فسمع صوت غلام يضحك ، فعرف أنهم فى غرفة قريبة من غرفته يعرف الطريق إليها

ثم عاد حيان وهو يقول : « ان سيدى ذهب الى الفراش ، هل ايكظه (أوقظه) ؟ »

فاستبشر أبو العتاهية بنومه وقال : « دعه نائما وسأقابله فى الصباح .. » قال ذلك وتشاءب وتمطى وهو يظهر التعب والنعاس ، فقال له البواب : « هل تريد النوم ، أم آتيك بطعام قبل ؟ » (مع تحريف الأحرف بلفظه)

قال : « لاجابة بى الى الطعام ، ولكننى أشكو التعب .. فقد كنت فى مكان بعيد وتعبت من كثرة الركوب ، ولما اقتربت من قصركم ورأيت الأنوار فيه قلق خاطرى ، وأتيت أقضى ساعة مع المعلم فنحاس ، فصرفت الدابة والمكارى ولا أدرى اذا أردت الذهاب هل أجد دابة بقرب هذا المكان ؟ »

فقال حيان : « اذا كان لابد من ذهابك فان فى الاصطبل دواب كثيرة ، ولكنى لا أرى حاجة الى السرعة .. فاسترح عندنا الليلة ، واذا شئت النوم أخذتك الى حجرة فيها فراش »

فقال : « ولكنى لا أستطيع النوم فى الثور على هذه الصورة » قال حيان : « قد أخذنا فى اطفاء الأنوار ، ولا تلبث أن ترى

القصر مظلما «

فقال : « اذا كان الأمر كذلك ، فانتى أفضل النوم هنا على أن أذهب وأعود في الغد ، لأنى جئت الى المعلم فنحاس بأمر فيه كسب كثير بعون الله .. »

فازداد البواب رغبة فى ابقائه لعلمه ان سيده يتوقع منه ذلك لكثرة جشعه للمال ، بالرغم مما عنده من الثروة الطائلة . وكان فنحاس انما يهيمه كسب المال ولا يبالى بالطريقة المؤدية الى كسبه ، فكثيرا ما كان يغضى فى سبيل ذلك عن أمور لا يغضى عنها الحر . وعذره ان الناس على ضلال فى أمر دنياهم ، فهم يتمسكون بأمور اعتبارية لا طائل تحتها يسمونها الشرف أو عزة النفس ، ويبدلون فى سبيلها حياتهم أو يضيعون فيها أموالهم ويفوتهم كثير من المكاسب الطائلة ، وما كان الشرف يشبعهم اذا جاعوا أو يدفئهم اذا تعرضوا للبرد ، أو يرويههم اذا عطشوا .. أما المال فهو عنده السلطان أو هو الصولجان ، فمن استولى عليه كان سلطانا تطأطىء له الرءوس ويخدمه الزملاء .. تلك هى مبادئ المعلم فنحاس ، وكان أبو العتاهية يعرف ذلك فيه ، وكثيرا ما كان يستعين به فى أعمال يكسب بها الاثنان على نحو ما جاء به تلك الليلة

فلما توسم البواب من أبى العتاهية ما يسر مولاه ألح عليه فى النوم هناك ودعاه أن يتبعه ، فسار وأبو العتاهية ينصت ويتلفت

لعله يعرف الغرفة التي تتوق نفسه الى معرفة سر أهلها ، ثم وقف حيان أمام باب فتحه ودعاه الى الدخول والمشمعة بيده ، فدخل واذا هناك فراش على طنفسة لا بأس بها ، فقال أبو العتاهية : « هذا فراش نظيف .. جزاك الله خيرا » وأظهر انه يريد النوم فتركه حيان ومضى . وكان أبو العتاهية قد عرف الجهة التي فيها أولئك الناس ، فلما ذهب حيان وأطفئت الأنوار ونام أهل البيت نزع عمامته وعباءته وتخفف بطاقيه كانت على الفرش ، وخرج يتلمس الحائط وركبته ترتجفان .. وقد نام أهل القصر وساد السكون على المكان ، وأصبحت معرفة تلك الغرفة أقرب من جبل الوريد ، فاذا لم يدل عليها الصوت دل عليها النور المنبعث من شقوق بابها

- ٦ -

التلصص

فما لبث أن وصل الغرفة وهو يسمع أناسا يتكلمون همسا كأنهم يحاذرون أن يسمعهم أحد ، فوقف بالباب ونظر من ثقب فيه الى الداخل ، فرأى امرأة عليها ثياب الملوك وهيبة الملائكة ، جالسة على سرير في صدر المكان ، وفي حجرها دانتك الطفلان ، وقد ضمتها الى صدرها وأخذت تقبّلها وعيناها تتلألآن بالدمع ، وفي ملامح وجهها مزيج من علامات السرور والحزن ،

فلا تدري أهى تبكى فرحا أم حزنا . وتفرس أبو العتاهية فى تلك المرأة فاذا هى بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمرها ، وفى وجهها جمال وهىبة لم يشاهد مثلها ، بالرغم من كثرة ما رآه من الجوارى الحسان فى دور الخلفاء أو ولاية العهد ، أو فى دار جعفر البرمكى أو غيره من البرامكة ، ورأى فارقا كبيرا بين ما يعرف من جمال أولئك وما فى جمال هذه من الهىبة والوقار .. ولو تأملت فى تلك الهىبة لرأيت مصدرها العينين ، ولم تكونا كبيرتين ولا واسعتين ولكنهما ترسلان أشعة براقه . ولم يكن فيهما ذبول مثل سائر عيون الغوانى ، بل كاتتا حادثين يشعر الرجل اذا اتجهتا نحوه ، انهما اخترقتا صدره ، وأصابتا قلبه ، واستطلعتا خفايا سره . ولم يكن لون الفتاة أبيض مع تفاخرهم يومئذ بجمال ذلك اللون ، بل كانت حنطية مشربة بحمرة ، ولها مبسم ينطق بغير كلام ، ويدل على عواطفها كما تدل المرأة على ما يقابلها ، ورأى أبو العتاهية على جبينها عصاة مكللة بالجواهر ، فدهش لهذه العصاة على الخصوص ، لأنه لم يكن رأى مثلها من قبل ، وأول من اتخذ العصاة المكللة بالجواهر علية بنت المهدي (أخت الرشيد) فعلت ذلك اذ كان فى جبينها شئ من سعة شوته جمالها ، فاستحدثت العصائب المذكورة لتستر ذلك العيب ، فكان من أجل الابتكارات . ولم يكن أبو العتاهية قد رأى ذلك لأنه لم يكن شائعا

وكانت قد صفت شعرها تصفيفاً بشكل جمّة تعرف بالجمّة السكينية نسبة الى سكينة بنت الحسين لأنها أول من صنفها ورأى أبو العتاهية في مقدم تلك الجمّة طرة مرصعة بالماس على شكل طائر ، عيناه من الزمرد ، وفي أجنحته فصوص من الياقوت الأحمر مرتبة بين فصوص الماس ترتيباً عجيباً ، وقد اختلط تلالؤها بأشعة النور حتى توهّم أبو العتاهية ان الغرفة مضيئة من نور تلك الطرة وليس من الشموع . وقد غطت رأسها بخمار من الحرير عنابي اللون مزركش بالقصب . وفي أذنيها قرطان كل منهما لؤلؤة واحدة بقدر بيضة الحمامة ، وفي عنقها عقد من الجواهر في غاية التناسب

وأما ثوبها فمن أثمن المنسوجات ، ولكنه كان في غاية البساطة .. لونه سماوى وعلى حواشيه وشى دقيق . فذهل أبو العتاهية لمنظر تلك الفتاة وقال في نفسه : « لاشك ان هذه الحورية من أهل بيت الرشيد ، ولا بد ان وراءها سرا اذا اطلعت عليه ابتززت الأموال به »

ونظر في جوانب الغرفة ، فرأى الرجل والمرأة لا يزالان بثياب أهل الحجاز وقد جلسا على الأرض باحترام وهيبة وخاصة الرجل ، وكان كهلا قد وخطه الشيب . وتفرس أبو العتاهية في وجهه ، فلم ير فيه ملامح أهل البادية .. فعلم انه تنكّر بذلك الملبس لغرض ما . وأما المرأة فلما رأى وجهها تبين له أن أصلها

جارية من الجوارى وقد كبرت سنّها . وأما صاحبتة عتبة فلفتت انتباهه على الخصوص ، وكانت جالسة أمام السرير تخفف عن مولاتها وتلاطفها .. وتأمل أبو العتاهية في عتبة فرأى الجمال لا يزال في وجهها ، وقد تغيرت عما كانت عليه من قبل فازدادت سمنة وبضاضة . وكانت في تلك الليلة مكشوفة الرأس ، وقد صفرت شعرها بضع عشرة ضفيرة ، علقت في طرف كل منها قطعة من النقود أو الحلوى ، وفي عنقها عقد ثمين وفي يديها الأساور والدمالج ، وعليها ثوب لونه أحمر مشجر بعروق خضراء

فدهش أبو العتاهية من تلك المناظر ، واصطكت ركبتاه من التأثر ، وأتعبه الانحناء لأنه لم يكن يستطيع النظر من ذلك الثقب إلا إذا انحنى .. على أنه ظل صابرا يصغى لما يدور من الحديث هناك ، وأول كلمة طرقت أذنه ساعة وصوله الى الباب عبارة عرف من لغتها انها لصاحبتة عتبة وهى قولها : « لا بأس عليك يامولاتى .. لماذا تبكين ؟ »

فرفعت تلك الفتاة رأسها الى عتبة وضمت الطفلين الى صدرها وهى تقول وصوتها نختنق بالبكاء : « قلبى يحدثنى يا عتبة انها آخر مرة أراها فيها »

فصاحت : « معاذ الله يامولاتى ، بل أرجو أن تتمتعى برؤيتهما مرارا في كل عام كما كنت تفعلين الى اليوم .. وهذا رياش ، حفظه الله ، لا يدخر وسعا فى المجيء إلينا كلما أمرت .. وعسى

أن يقضى الله بإطلاق حرّيتك فيكونان معك في كل حين »
 فتنهدت الفتاة وقالت : « آه يا عتبة انك تتمنين محالا .. لأن
 عدونا ظالم مستبد له السلطة المطلقة ، وقد انغمس في ملذاته ،
 وتمتع بكل ما تشتهي نفسه وأصبح لا يبالي بسواه.. أهلك عطشا
 أو مات جوعا أو ذاب لوعة .. انه رجل لا شفقة عنده ولا رحمة ،
 لا يهمه سوى ملذاته » قالت ذلك وهي تخرج من كمها منديلا
 من الحرير مزركشا بالقصب مسجت به دموعها

فقال عتبة : « تلك حال الرجال على الاطلاق ، يامولاتي ،
 فانهم أصحاب السيادة ، وقد فضلوا أنفسهم على المرأة فحللوا
 لأنفسهم ما حرموها منه ، وتمتعوا بما حظروه عليها . يتزوج الرجل
 عدة نساء ويقتني الجوارى والسراى ويمنع المرأة من أن تتزوج
 برجل تحبه ويحبها .. ولكن .. »

فقطعت الفتاة كلام الجارية وقالت : « ليس بين الرجال من عمّل
 عمل أخى ، ولا بين النساء من أصيب بمصايبى .. وزوجنى برجل
 هو جمعنى به وحبّبه الىّ وعقد له علىّ ، ثم حرم علينا ثمار ذلك
 العقد ما حلّله الله لأحقّر خلقه . وهو مع ذلك يخطر فى قصر
 وحوله مئات من الجوارى الروميات والتركيات والفارسيات
 والسنديات ، وفيهن البيض ، والصفر ، والحمرة ، والسمرة ،
 والسود » ولما بلغت الى هنا غصّت بريقها وشرقت بدموعها ،
 وكان الغلامان فى حجرها وكبيرهما ينظر فى وجهها نظرة

الاستغراب وهي تتكلم . فلما رآها تبكى شاركها فى البكاء ، ولما رآه أخوه يبكى بكى أيضا ، وبكت عتبة .. وعلا ضجيج البكاء فى تلك الغرفة ..

ثم رأت عتبة أن تتجلد وتخفف عن مولاتها فقالت لها : « لا يخفى عليك يامولاتى ان أخاك أمير المؤمنين ، حفظه الله ، لم يمنعك من الزواج بذلك الوزير الا لعدم كفاءته ، فانك بنت خليفة وأخت خليفة يتصل نسبك بعم النبی صلى الله عليه وسلم . والوزير مولى فارسى مثل سائر الموالى ، فكيف تتزوجينه ومثلك تتزوج أحد أبناء عمها الهاشميين .. فأمر المؤمنين مشهور بحبه لك ، وانما منعك من الزواج علوا لمقامك »

فصاحت : « ويلك يا عتبة .. ألا تزالين نخذوة بهذه التسمويها .. اذا كان أخى يعد الزواج بالموالى أو العبيد حطة لمقام الخلافة ، فما باله يتزوج هو بالجوارى ويستولدهن ويولّى أولادهن العهد بالخلافة .. لعل الجارية أرفع مقاما من المولى ؟ ! ناهيك بما فى قصوره من الجوارى للتسرى بلا عقد .. فلماذا لم يقتصر بالزواج على ابنة عمه زبيدة ، مع ما يظهره من حبه لها واحترامها ، ولكنه أطاع شهواته ولم يجد من يصدّه فانغمس فيها ، ورآنى ضعيفة فاستبد بى .. عرفنى بشاب لا أعرف فى أبناء عمى من بنى هاشم أحسن منه وزوجنى به ثم منعنى منه ، وأصبحنا نعد التقرب خيانة ونخشى أن يطّلع أحد على سرنا ،

كأننا من أهل الفجور .. نعوذ بالله .. ولكن من يستطيع أن يقول
ذلك لأخى ولا تكون حياته فى خطر ؟ ١ »

— ٧ —

العباسة

وكان أبو العتاهية قد آلمه ظهره ، وهو منحني عند الباب ، ينظر
من ذلك الثقب وقدماه ترتعدان ، وهو يمسك أنفاسه مخافة أن
يشعر به أحد . فلما سمع ما دار من الحديث ، علم ان الفتاة هى
العباسة أخت الرشيد . وكان يعرف ان الرشيد عقد عليها لجعفر
ابن يحيى البرمكى وزيره ليحل له النظر اليها ، لأن الرشيد كان
يحب جعفر ويحب الاجتماع به ولا يصبر على بعده ، وكان
الرشيد يحب أخته العباسة أيضا ، ويحب أن يراها كثيرا .. فعقد
لجعفر عليها حتى يحل له أن يراها فقط ، وخوفه مما وراء ذلك ..
وعلم أبو العتاهية مما رآه وسمعه ان جعفر تزوج العباسة سرا
وان الغلامين اللذين معها هما ثمرة ذلك الزواج ، وانها تخاف أن
يعرف أخوها الرشيد بذلك فيقتلها .. فخفق قلب أبو العتاهية
فرحا بذلك الاكتشاف لما يرجوه من الكسب الكثير بواسطته ،
لعلمه ان أعداء جعفر يتعاونون مثل هذه الوشاية بألوف من
الدنانير ، وخاصة الفضل بن الربيع لأسباب تقدم ذكرها . ودمعت

عينا أبى العتاهية لا تأثرا لحالة العباسية ، بل من طول حملته وتطلعه من ذلك الثقب . وأحسن وهو فى تلك الحالة الحرجة ان العطاس يكاد يدهمه ، فخشى أن يعطس فيفتضح أمره .. فجعل يفرك أنفه حتى أذهب العطاس ، فعاد الى التلصص والتفرس ، وكان قد سمع عتبة تخفف عن العباسية وتقول لها : « دعينا من النواح الآن ، فقد تكبدت المشقة والخطر لتشاهدى ولديك .. فاستمتعى برؤيتهما ، ودعى المقادير تجرى بما يشاء الله » فأطاعتها ، وكان الغلامان فى حجرها وهما شاخصان اليها ، وقد استغريا ما رآياه منها . فلما رأتهما ينظران اليها والدمع لا يزال فى عيونهما لم تتمالك عن الابتسام ، وعيناها تقطران دمعاً وتناولت الكبير وضمتها الى صدرها وجعلت تقبله فى خديه وفى عينيه وجبينه ورأسه وعنقه وصدره وتستنشق ريحه ، وهو غارق فى الضحك يظنها تلاعبه أو تداعبه .. وأتى له أن يشعر بما يجول فى خاطرها أو بما يهيج من عواطفها ، وهو لا يعرف من ملاذ الدنيا الا الطعام والشراب ، ولم يكابد من حوادث الزمان الا اللعب بالرمل أو بالكعب ، أو بغيرهما من الألعاب ، ومما طامع الدنيا عنده الا ثدى أمه . فاذا فطم كان همه بطنه ، ومطمعه عجلة يديرها ، أو كرة يلعب بها ، وتسليته حصى يبنى بها بيتا أو طينا يصنع منه تمثالا .. يرى الميت فيظنه نائما ، ويلقى الثعبان فيحسبه حبالا .. لا يخاف الهجر ، ولا يحاذر الفقر ، ولا يعرف نوائب

الدهر . ربما أحب هرة تلعب بين يديه أكثر مما يحب والديه ، لأنه يحب كل ما تنتهي يده اليه . ولو عقل لقاس تعلقه بطير عاشره بضعة أيام ثم ذهب عنه ، كم يكون أسفه عليه ، فكيف يكون تعلق الوالدة بابنها ، وهو حشاشة قلبها ، وقطعة من نفسها ، ومثال حبيب قلبها .. لا لوم على الأطفال ، اذا لم يدركوا حب الوالدة ، لأنه سر مغلق على غير الوالدين ، ومهما يكن من ارتقاء عواطف الشبيبة واختلاطهم بالعائلات ومشاهدتهم حنو الوالدات فهم لا يدركون حقيقة ذلك الحنو حتى يولد لهم الأولاد ، فيذوقوا مرارة التربية وحلاوتها بين مداعبة ولد يشرق وجهه صحة ، ويسيل كلامه لطفًا ، وتزيده اللكنة عذوبة ، وسهر على طفل يقاسي الألم ، ويعجز عن التعبير عن موضعه لاحتباس كلامه ، أو يكتمه خوفا من مرارة الدواء . والوالدان بين ذلك يراقبان حركاته ويحصيان أنفاسه ، وقد غلّت أيديهما ، وتفطر قلباهما ، وضاحت الدنيا عليهما .. ولا سيما الوالدة ، فانها ألصق بولدها في طفولته ، اذا مشى .. مشى قلبها معه ، أو ضحك رقصت جوارحها له ، واذا تكلم كانت كلها آذانا لعله يلتمس منها شيئا يسره ويسرها أن يناله ، ولو كان في الظفر به شقاؤها ، وهي تزدد حبا له كلما تعذبت في تربيته ، ويزداد حنوها عليه بزيادة شقائها به . فمن أين لغير الوالدين أن يفقهوا ذلك ، أو يدركوا حنان الوالدة حتى المتزوجين الذين لم يرزقوا أولادا ، فانهم لا يستطيعون ادراك حب الوالدة لولدها الا تخيلا ، وأين الحقيقة من الخيال ..

- ٨ -

البغته

فكانت العباسة تستنشق ريح ابنها وهي تجهش بالبكاء وقلبها
يتردد بين اليأس والرجاء ، والغلام يضحك ، والسذاجة الفطرية
ظاهرة في وجهه ، وسلامه النية وطهارة القلب باديتان في كل حركة
من حركاته . وقد أصاب المصورون اذ شبهوا الملائكة بالأطفال
فانهم مثال الطهارة والقداسة وصدق اللهجة ، فهم لا يخفون
عواطفهم ، ولا يكظمون ما في نفوسهم ، ولذلك كانت المشاعر
الطبيعية ظاهرة فيهم ، وأقواها حب الذات .. فالطفل يحب ذاته ،
ويحب كل ما يرى فيه نفعا لنفسه . وهو يحسد ولكنه لا يكظم
بل يظهر ذلك فيه ولا يستحي من اظهاره .. ولذلك لما رأى أحد
الأخوين أمه قلاعب أخاه وتقبّله ألقى نفسه على صدرها كأنه
يزاحمه على ما يكنه ذلك الصدر ، فقبّلتها العباسة ثم التفت الى
عتبة وعيناها تتكلمان عنها .. وما تماكنت أن قالت لها : « ما
الطف هذين الولدين ، وما ألطف اسميهما (الحسن والحسين)
هل يسمح لى الله أن أعيش معهما ولو فى كوخ حقير ، أو فى
خيمة بالبادية ؟ ! .. »

فابتدرتها عتبة قائلة : « ان الله على كل شىء قدير .. ألا تظنين
ان رجوعك الى قصرك قد آن .. فان الفجر أصبح قريبا ، وأخشى

أن يشعر أحد برجوعك فنقع فيما نخشاه »
 قالت : « يعز عليّ الذهاب يا عتبة ، ولكن لا بد منه .. أين
 الدراهم التي أتيت بها معك ؟ .. ادفعيها الى رياش .. »
 فتناولت بدرة من الدراهم ودفعتها اليه ، فتناولها وأثنى على
 العباسة ، ونهض فقبل يدها .. وكذلك فعلت برة . فقالت لهما
 العباسة : « لا حاجة بي أن أوصيكما بالحسن والحسين ، فانهما
 فلذة كبدي »

وكان الحسن أكبرهما سنا ، فلما تحقق من عزم والدته على
 الفراق ورآها وقفت .. ألقي بنفسه في حضنها وأمسك بيدها
 وأسند خده على راحتها وقال وصوته مختنق : « تعالى معنا ياماما
 وقولي لأبي يجيء معنا أيضا .. »

فنظرت العباسة الى الغلام فرأته يرنو اليها وفي عينيه دموعتان
 تترددان بين المآقي ، وشفته تترجفان ولا تطاوعانه على الكلام .
 وكان يحاول الكلام ، ويحاذر أن يسبقه البكاء وقد غص بريقه ..
 فلا تسل عن قلب العباسة عند سماعها تلك العبارة ومشاهدتها
 ذلك المنظر المؤثر ، وقد كانت تخشى فراقهما وتغالب نفسها
 وتتجلد وقد ضاق صدرها لاحتباس عواطفها . فلما رأت ما رآته
 وسمعت الحسن يذكر والده ويطلبها به على تلك الصورة غلبتها
 عواطفها وأحست بما تكابده من ألم الفراق وثقل الحذر والخوف ،
 فلم تتمالك أن جلست بغتة وهي تضم الغلام الى صدرها

وتصيح : « صدقت يا ولداه » وأغرقت في البكاء حتى أغمى عليها ..

وكانت عتبة واقفة ترقب حركات مولاتها وتشاركها في كل عاطفة من عواطفها ، وقد همت أن تخفف عنها .. فلما رأتها جلست بغتة خافت عليها من الاغماء لأنها شاهدت اغماءها على تلك الصورة غير مرة ، فلما سمعتها تصيح وتبكي تحققت من غيوبتها ، فتناولت احدى الشموع من المشعة وهرعت الى الباب وفتحته لتستدعى خادما يأتيها بالماء لترش سيدتها . وكان أبو العتاهية لا يزال واقفا ينظر من ثقب الباب . فلما أسرع عتبة اليه وفتحته على غير انتظار والشمعة بيدها ، بثفت وارتيك في أمره ، وكاد الدم يجمد في عروقه ، فوقف كأنه صنم من الأصنام وبصره شاخص كأنه لا يرى شيئا .. أما عتبة ، فظنته لأول وهلة أحد خدام المنزل ، فصاحت به : « هات الماء » ثم علمت من ملبسه انه ليس من الخدم فاستغربت وقوفه هناك على هذه الصورة .. أما هو فلم يطل جموده الا لحظة ، ثم انتبه لنفسه وحوّل وجهه وهم بالفرار فلما تحرك تذكرت انها تعرفه ، ثم فطنت الى أنه أبو العتاهية فأشكل عليها أمره .. وهى على تلك الحال من القلق خوفا على سيدتها من الاغماء ، فغلب عليها ذلك القلق فأسرعت الى غرفة الخدم وصاحت بهم . فنهض أحدهم وجاءها بالماء وعادت الى سيدتها ، ورشتها به فأفاقت .. وأخذت تخفف عنها ، وخاطرها

مشتغل بأبى العتاهية .. وأدركت من ارتبأكه عند رؤيتها له ، انه كان يتلصص عليهم .. ولا بد انه سمع شيئا من أحاديثهم .. وهى تعلم انه لا يؤتمن على مثل هذا السر ، وان اطلاعه على أمر هذين الغلامين خطر على العباسية ، فكانت تخاطب مولاتها وتخفف عنها والقلق والارتباك باديان على وجهها ، وهى تتردد بين أن تطلع العباسية على هذا الأمر أو تكتمه عنها ، ولكنها فضلت كتمانها لئلا تزيد من أحزانها ومخاوفها ..

على أنها عزمت على أن تدبر وسيلة تمنع بها أبا العتاهية من افشاء هذا السر . فلما فكرت فى ذلك ، ذهب قلقها وعادت الى التهوين على العباسية والتخفيف عنها ، وأشارت الى رياش أن يذهب هو وبرّة بالغلامين أولا ، فأطاعها ونهض فحمل الغلامين على كتفيه وهو يلاعبهما ويضاحكهما وكانا قد تعودا عليه، وعرف هو ما يلهيهما به من المواعيد أو نحوها . فسكتا وظلت عتبة بجانب العباسية تشاغلها وتساورها وهى تنهد ولا يزال أثر الاغماء باديا عليها . فلما خرج رياش وبرّة ، أمرت الخادم الذى كان قد جاءها بالماء أن يستدعى حيانا ، فذهب ثم عاد وحيان معه وآثار النوم ظاهرة فى عينيه لأنهم نادوه وهو مستغرق فى النوم فجاء ، وعلى رأسه طاقبة لم تستر الا بعض شعره ، فوقف بين يدى عتبة فقالت له : « ان مولاتى تطلب منك أن ترسل مع هذين الغلامين من يدبر لهما مركبا يركبان عليه الى دجلة »

- ٩ -

الهاجس

فأشار بيده على رأسه إشارة الطاعة وخرج ، وظلت العباسة وعتبة في انتظاره . ثم أظهرت عتبة انها تحتاج الى شيء من حيان ، فخرجت للقياء وهو عائد فدعته الى خلوة فخاطبته ، وفي يدها منديل فيه نقود وضعت في كفه ، وهي تقول : « أمرتني مولاتي أن أشرك على الخصوص لعنايتك بنا ، وهذا المنديل هو لك هدية منها » ثم مدت يدها وأخرجت صرة أخرى دفعتها اليه وقالت : « وهذه للمعلم فنحاس »

فأثنى حيان عليها جهد طاقته ، فقطعت كلامه قائلة : « هل أبو العتاهية هنا من زمن طويل ؟ » فقال : « بل جاءنا الليلة » قالت : « اصدقني .. »

قال : « صدقتك .. فانه جاء لمقابلة المعلم فنحاس في هذه الليلة ، وكان المعلم فنحاس قد ذهب الى فراشه فدعوته للمبيت عندنا فبات » . قال ذلك بغير حذر ولا تردد فتحققت انه يقول الصدق فقالت : « أطلب اليك خدمة لا تكلفك تعباً .. فهل تقضيها لي ؟ » قال : « على الرأس والعين »

قالت : « أريد أن تستبقى هذا الشاعر عندكم ، ولا تدعه يخرج قبل أن أعود في صباح الغد »
 فاستغرب طلبها وقال : « أخشى أن يطلقه مولاي ، ولا يطيعنى فى بقاءه »

قالت : « قل لمولايك ان أمير المؤمنين يريد استبقاءه لأمر يهمله »

فلما سمع ذكر أمير المؤمنين خفق قلبه لأنه لم يكن يعلم من أمر العباسية سوى انها امرأة من سرارى بغداد استأجرت تلك الغرفة فى تلك الليلة لأمر خاص فقال : « سأقول ذلك لمولاي »
 قالت : « احذر أن تستخف بقولى »
 قال : « سمعا وطاعة »

فقالت : « فاعدد لنا البغال ريثما نرجع » وأسرعت الى سيدتها فرأتها فى انتظارها وقد استبظأتها ، فسألتها عن سبب غيابها ، فقالت : انها ذهبت تطلب الى حيان اعداد البغال ، فصدقته ثم خرجتا حتى ركبنا ومضتا

أما حيان فأخذ يفكر فيما سمعه من تحريض عتبة على الاحتفاظ بأبى العتاهية فلم يفهم لذلك سببا معقولا ، وقد خوفه ذكرها أمير المؤمنين .. ولكنه عزم على ابلاغ سيده ما سمعه منها فى الصباح ليلقى تبعة ذلك عن عاتقه . وكان قد مضى معظم الليل فمضى الى فراشه

أما أبو العتاهية فانه فرء من وجه عتبة على تلك الصورة وقد
ذعر وكاد الدم يجمد في عروقه من البغته.. لكنه ظن أنها لم تعرفه،
فوصل الى فراشه ، وركبته تصطكان ، فاستلقى بعد أن أغلق
الباب ، ولبت صامتا يتوقع أن يسمع صوتا أو يشعر بخفق نعال
أو حركة تدله على ما كان من تأثير تلك المقابلة ، فمضت برهة
وهو يحبس أنفاسه مبالغة في الاصغاء .. ويصيخ بسمعه وقد
تكاثف الظلام ، وشبح عتبة نصب عينيه .. وأخذ يفكر فيما عسى
أن تكون العاقبة ، على أنه تخوف وغلب عليه الحذر . وكانت
الحجرة التي بات فيها تشرف على الزقاق المؤدى الى باب تلك
الدار من نافذة كانت مقفلة ، فما لبث أن سمع قرقرة اللجم وجلبة
السياس ، فنهض وتطلع من شق في النافذة ، فرأى رياشا وبرءة
قد ركبا ومعهما الغلامان ، فتربص ليرى ما يكون من أمر العباسة
وجاريتها ، فسمع حركة السياس في اعداد الركائب ورآهما قد
خرجتا على بغلين وفي ركاب العباسة سائس يده على كفل البغلة ،
وقد التفت بعباءة وغطت رأسها بما يشبه العمامة اخفاء لحقيقة
حالتها.. فتحقق من ذهابهما ، فاطمأن خاطره وعاد الى فراشه ، وأخذ
يفكر فيما جاء من أجله الى فنحاس .. فعزم على أن يكر في
الصباح الى غرفته ويفاتحه في هذا الشأن ، ثم ينصرف الى بيت
الأمين أو الى الفضل بن الربيع ويجيء مع من ينتدبانه لاختيار
الجواري ..

- ١٠ -

طارق

نام أبو العتاهية ، ولكنه لم ينم كثيرا حتى سمع جلبة في ذلك الزقاق يتخللها قرقة اللجم وصهيل الخيل ، فذعر ووثب من فراشه الى النافذة ففتحها بخفة .. فرأى الصباح قد لاح . فأطل فرأى عدة رجال على أفراس جياد ، عرف من سروجها وما عليها من أكسية الديباج انها من اصطبل الأمين ، فخفق قلبه وتفرس في الراكبين فرأى بينهم الفضل بن الربيع وحوله جماعة من حاشية الأمين عرف أكثرهم ، ورأى في ركابهم جماعة من الخدم وسمع الفضل يقول : « أظن أن القوم لا يزالون نياما ؟ »

فأجابه أحد الفرسان : « لا بأس من ايقاظهم فان المعلم فنحاس لا يهمه الا كسب المال ولا يبالى بالنوم »

فقهقه الفضل ، ثم قال : « الا اذا ظن أننا قادمون لمصادرة ممتلكاته أو لأمر يذهب بحياته »

فقال الفارس : « لاخوف من المصادرة في ظل أمير المؤمنين ، والذهب يتدفق من بيت ماله . ولا خوف من نكته وأهل الدولة في حاجة الى جواريه وغلماناه حتى أمير المؤمنين .. »

وفي أثناء ذلك تقدم أحد الخدم وقرع الباب وأخذ الفرسان في التحول عن الخيول ، وأول من نزل الفضل ، وكان طويل

القامة رقيق العضل خفيف شعر اللحية ، أسمر اللون ، يخالطه صفرة ، ولا يزال في عنفوان الشباب وقد غلب عليه المزاج الصفراوي - على اصطلاحهم - فساعدته على كتمان عواطفه والظهور بما يريده من التظاهر بالصدقة لأعدائه والسعى في الوشاية لهم . وأهل هذا المزاج من أقدر الناس على الكظم والتظاهر بما يشاءون من الأحوال وكتمان ما تكنه ضمائرهم ، فهم لذلك يصبرون على الضيم ريثما ينتهزون الفرص لتحقيق مآربهم ، فلا يخرجهم الغضب عن طور العقل كما يفعل بأهل المزاج العصبى أو الدموى الذين اذا غضبوا ظهرت امارات الغضب في عيونهم وجباههم ، ولذلك ندرت فيهم رباطة الجأش والصبر على المكاره فلما تحقق أبو العتاهية من مجيء الفضل قال في نفسه : « لا بد من أمر بعث على تعجله في المجيء ، ولا بد أن يكون الأمين قد حمله على ذلك تشوقا لما وعد به نفسه من أمر أولئك الجوارى لاهتمامه بأسباب القصف والترف ، ورغبته في الغناء . وخشى أبو العتاهية أن يحول مجيء الفضل في تلك الساعة دون ما يتوقعه من الكسب وهو لم يقابل فنحاس بعد ، فتحول عن النافذة وهو يطلب غرفة فنحاس ، فرأى أهل الدار في هرج يتقدمهم حيان وقد أسرع الى الدهليز لاستقبال القادمين . وكان البواب قد أنبأه بمجيئهم فلم ينتبه لأبى العتاهية . أما هذا فظل سائرا الى غرفة المعلم فنحاس وكان بابها مقفلا فدقه وهو يناديه قائلا : « لعل

المعلم فنحاس لا يزال نائما ؟ »

فلم تمض لحظة حتى سمع وقع خطواته داخل الغرفة ، ثم ففتح الباب وأطل منه المعلم فنحاس وهو لا يزال بملابس النوم ، ليس عليه سوى السراويل والدراعة فوق القميص.. وفي عينيه رمص من ضعفهما وطول النوم ، وقد تشعث شعر رأسه وانتفش واختل نظام سالفه ولحيته . وكانت لحيته شمطاء يخالطها شيب قليل مع ميل الى الطول والاسترسال ، وهي منقسمة الى شطرين وأنفه كبير مستدق قد ذهب طوله باحديدا به .. وكان لدهشته في تلك الساعة قد نهض وقميصه مفتوح من أعلاه ، فظهر أسفل عنقه وأعلى صدره وفيهما تجعد يتخلله شعر أجعد او رأته في تلك الحالة لحسبته من المتشردين

أقبل المعلم فنحاس وهو يفرك عينيه ويمسح الرمص عنهما ببطن كفه ، وحالما وقع نظره على أبي العتاهية عرفه فصاح فيه :
« ما وراءك يا أبا العتاهية ؟ »

فدخل أبو العتاهية ، وأغلق الباب وراءه وهو يقول : « لقد جئتك مساء أمس بمهمة وكنت نائما فانتظرتك الى هذه الساعة ، ولما استبظأتك جئت لا يقاظك فأرجو أن لا أكون قد أزعجتك »
فقال فنحاس وهو يصلح لحيته وشاربيه ويقفل قميصه :
« ليس ثمة ازعاج .. قل ما الخبر ؟ ! »

قال : « لا تخف فان المسألة رابحة .. قد حرضت مولانا وليّ

العهد على اقتناء بعض الجوارى ، وان لا يتاعهن الا من عندك
وانت تعلم نفوذ الشعراء عند الخلفاء وأهل الدولة ، فأطاعنى
فجئت لأخبرك بذلك على أن لا تضعى تعبى »

فقطع فنحاس كلامه قائلا : « فهمت المطلوب .. كن مرتاحا ..
فمتى أتى رسوله بهذا الشأن أضفت نصيبك الى هذا الثمن
بارك الله فيك .. أليس هذا الذى تريده ؟ انك رجل غيور على
مصلحتى .. واذا شئت جعلت نصيبك من الصفقة جارية جميلة »
قال : « لا حاجة بى الى الجوارى كما تعلم »

فضحك وهو يفتش عن قبائه وجبته وقال : « حسنا .. انى
أفهم بالأشارة ، فافهم انت .. ولن يتم الشرط الا بعد وقوع البيع »
قال : « البيع يتم فى هذه الساعة لأن الأمين أرسل الفضل بن
الربيع ، وقد وصل الى دارك وأظنهم أدخلوه الى دار الرقيق الآن
واحذر أن تطلع أحدا على ما دار بيننا .. »

فوضع فنحاس يده على فم أبى العتاهية وقال : « لله ما أكثر
سذاجتك ، كنت أظن أنك أذكى من ذلك .. » ثم عاد الى تسريح
شعره ، واصلاح شأنه .. فمشط لحيته ، وقتل شاربته ، وشده على
خصره منطقة فوق القباء ، ولبس الجبة وخرج وأبوالعتاهية فى اثره
واذا بحيان يسرع نحوهما ، فلما وقع نظره على أبى العتاهية أجفل
وتذكر وصية عتبة فأراد أن يوقف مولاه ليخبره بالقادمين ويبلغه
تلك الوصية ، فابتدره فنحاس قائلا : « فهمت مرادك ، ها أنا

ذاهب اليهم .. أين هم ؟ .. » وهو يحسبه قادما ليخبره عن الفضل فقط .. فبثغت حيان ، ولم يجرؤ أن يخبره بغرضه وخاصة بين يدي أبي العتاهية فسايره وقال : « قد جاء مولانا الفضل بن الربيع فأدخلناه دار الرقيق وهو في انتظارك هناك » وأجل الخبر الآخر الى فرصة أخرى

أما أبو العتاهية فانه نظر الى حيان وتبسم على جاري العادة وهو لا يعلم ما في ضميره ، فحيّاه حيان متأدبا ومشى في أثره

- ١١ -

دار الرقيق

مشى المعلم فنحاس وهو يتعثر بأذيال جبته حتى خرج من دهليز داره الى باب بجانب الباب الكبير هو مدخل دار الرقيق . فأشرف منه على فناء واسع تحيط به غرف عديدة ربما زاد عددها على ثلاثين غرفة . وكان الفناء مزدحما بالخدم من رجال الفضل وأنظارهم متجهة نحو تلك الغرف كأنهم يشاهدون فيها شيئا غريبا . وبجانب الباب من الداخل غرفة مفروشة بالطنافس ، وفيها الوسائد مصفوفة بين الجدران . وقد زخرفت تلك الجدران بالنقوش الملونة ، وكان الفضل قد دخل هذه الغرفة مع بعض خاصته ولبث في انتظار المعلم فنحاس . أما هذا فحالما أقبل على

الغرفة رأى الفضل فى صدرها جالسا وقد أسند كوعيه على ركبتيه ، فهرع اليه مسرعا وأكب على يده ليقبّلها وهو يتسم ويتأدب ، فضحك له الفضل واجتذب يده منه وهو يقول :
« أظننا أزعجناك بهذه الزيارة »

قال : « كلا يامولاي ، فان زيارتكم شرف كبير لنا .. »
فأشار اليه بالجلوس وهو يقول : « ان مولانا ولى العهد رغب الينا أن تأتيه ببعض الجوارى الحسان ممن يحسن الغناء ، وقد كان فى الامكان أن نبعث اليك ببعض خاصتنا فى هذه المهمة ، ولكننا أحببنا زيارتك لمشاهدة دار الرقيق والتفرج على ماحوته من أصناف الجوارى والعلمان ، فقد قيل لنا انها تحوى من كل معنى طرف »

فقال وهو يتكلم ويتللم تأديبا : « لقد تحملتم المشقة بهذه الزيارة فأوليتمونى شرفا لا أستحقه ، وكنتم فى غنى عن ذلك بإشارة منكم .. فننقل دار الرقيق بجملتها الى ما بين يدي مولانا حفظه الله ، ولكن اقبال سعدنا حملكم على تكبد هذه المشقة . أما اذا شئتم أن تشاهدوا أصناف الرقيق التى فى هذه الدار فترون فيها ما لايجتمع فى سواها لأنى لم أدخر وسعا فى احضار أحسن الرقيق : الأبيض ، والأصفر ، والأحمر ، والأسود من الجوارى والعلمان على اختلاف القدود واللغات والأسنان .. من المولد فى العراق أو الحجاز والمجلوب من أقاصى بلاد الترك ،

والروم ، وطبرستان ، وخراسان ، والسند ، والمغرب ، وفيهم
الصقلبي والصقلبية ، والرومي والرومية ، والتركي والركية ،
والفارسي والفارسية ، والأرمني والأرمنية ، والسندی
والسندية ، والبربري والبربرية .. »

فقطع الفضل كلامه قائلاً : « هل عندك من الجوارى المغنيات ؟ »
قال : « كيف لا ؟ .. وقد تعلمن الغناء عند مغنى مولانا أمير
المؤمنين نفسه وحفظن الأشعار المطربة ، وأتقنن الضرب على آلات
الطرب .. وفيهن العوادة ، والطنبورية ، حتى صاحبة الدف والمزهر »
فضحك الفضل وقال : « كأني بك تصف جوارى أمير
المؤمنين .. ولكن أظن أن المغنيات اللواتي أشرت اليهن من الجوارى
الصفرة والسود ومولانا إنما يريد مغنيات من الجوارى البيض »
فقال : « كل ما يطلبه مولانا هو عندي »

قال : « ولكن أهل بغداد لم يتعودوا تعليم الجوارى البيض
الغناء فانهم إنما يقتنونهن للتسلية كما لا يخفى عليك ، ولم أعرف
أحدا علم الغناء للبيض إلا إبراهيم الموصلي مغنى أمير المؤمنين »
قال : « ألم أقل لمولاي أنه يجد عندي كل ما يطلبه ؟ ! »

- ١٢ -

ألوان من الرقيق

فتحفز الفضل المقيام ، فنهض المعلم فنحاس ونهض سائر الحاشية ،

ومشى هو بين أيديهم حتى خرجوا من الغرفة الى فناء الدار ،
فأسرع الخدم الى الانزواء وفتحوا الطريق للفضل ، فمشى والمعلم
فنجاس يمشى بين يديه متأدبا ، وفي أثر الفضل رجال حاشيته ..
حتى اذا قطعوا الفناء وصلوا الى الغرفة الأولى من جهة اليمين ،
وكان بابها مفتوحا قليلا ففتحه فنجاس بيده فرأى الفضل جماعة
من الفتيات البيض صغيرات لا تتجاوز أكبرهن العاشرة من العمر ،
وكلهن عاريات لا يكسو أبدانهن الا ما يستر العورة من الاطمار
البالية .. وخشونة البادية ظاهرة عليهن ، بارسال شعورهن ساذجة
لم يمسهما المشط منذ خلقن . ولكنه رأى الجمال الطبيعي يتجلى
في اشراق وجوههن بالبياض المشرب بحمرة يدل على صحة البدن ..
ناهيك بجمال العيون .. وفيهن شقراء الشعر ، زرقاء العينين ،
وسوداء الشعر والعينين وما بين ذلك . أما هن فحالما فتح الباب ورأين
الفضل ورجاله تقرن نقور الظباء من الصيادين ، وظهر الخوف
على وجوههن ، ولكن الحجرة أضيق من أن تتسع لفرارهن .
فجعلن يتسترن بعضهن وراء بعض وعيونهن شاخصات ، وبعضهن
أخذن في البكاء واستغثن بلغة لم يفهما أحد من الوفوف ،
فدهش الفضل لذلك المشهد الغريب ونظر الى فنجاس .. فابتدره
فنجاس قائلا : « لا تعجب يا مولاي لما تراه في هؤلاء من الوحشة
فان معظم اللواتي في قصور الخليفة وسائر الأمراء من الجوارى
الحسان والقيان والمطربات .. كن في بادىء الأمر مثل هؤلاء ، وقد

أتيت بكم الى هذه الحجرة أولا لأريكم حال الجوارى عند أول حضورهن ، لتعلموا كم تقاسى في تربيتهن حتى تبغ منهن الجارية التى تباع بألف دينار ، أو عشرة آلاف ، أو عشرين ألفا «
فقال الفضل : « فى الحقيقة انه عمل شاق .. هل كانت فريدة ومنة ، ودينار ، وأم الخال ، وغيرهن من الجوارى الفاتنات فى مثل هذه الخشونة ؟ »

قال فنحاس : « نعم .. ان أكثرهن حضرن بهذه الصورة »
قال الفضل : « ومن أين تأتى بهن ؟ »
قال فنحاس : « ان النخاسين يتجولون فى بلاد الترك والصقالبة والروم ويتحملون المشاق والأخطار حتى يأتوا بهن »
قال الفضل : « وكيف يجدونهن هناك ؟ »
قال فنحاس : « يأخذون البعض بالغزو ، والبعض الآخر بالشراء من والديهن ، أو بعض أقاربهن ، بثمان بخس ويبيعهونهن لنا بأعلى الأثمان »

فقال الفضل : « أليس حراما أن يفصل هؤلاء عن آبائهن ويحملن الى ديار الغربه وهن صغيرات بهذه الصورة ؟ »
فضحك فنحاس وهو يحتشم فى ضحكه وقال : « كلا يامولاى فان استرقاقهن من أكبر أسباب سعادتهن لأنهن ينتقلن به من خشونة البداوة وشظف العيش الى المدنية والترف ، وقد يبلغن من رخاء العيش ما لا يبلغه بنات الأمراء وخاصة من كانت منهن

جميلة الوجه رخيمة الصوت ، وليس كل واحدة منهن تبلغ الى ذلك النعيم الا اللواتى ينبغن ويرعن ، فهؤلاء نبيعهن بثمان غال.. فرما نبغت واحدة من كل خمسين أو ثمانين . فمن نبغت وكانت تتصف بالذكاء ولها صوت رخيم ، علمناها الغناء وحفظناها الأشعار، ونعلم الباقيات بعض الصناعات المنزلية وغيرها على قدر الطاقة .. وسترى فى ما تمر به من الغرف أصنافا من الجوارى على اختلاف الطبقات .. »

فاستغرب الفضل مما سمعه ، وأظهر الاكتفاء من رؤية تلك الحجرة وحوئل وجهه ، فسبقه فنحاس الى الغرفة التالية وفتحها فرأى فيها فتيات سود البشرة ، جعد الشعور ، فطس الأنوف ، فعرف الفضل انهن من بنات الزنوج .. وهن أقرب الى القذارة والوحشية من أهل الحجرة الأولى ، والسواد أقبح الألوان يندر اجتماعه مع الجمال .. ولاحظ فنحاس ان الفضل ميال الى سرعة الانتقال من هناك ، فمشى أمامه وهو يقول : « هؤلاء صغار الزنوج يحملهن الينا النحاسون من أقاصى السودان ، والغالب فى أخذهن على سبيل السبى بلا ثمن ، ونحن نبتاعهن بثمان بخس ، وأكثرهن يتعلمن الخدمة الشاقة ، ويغلب أن نجعلهن فى خدمة الجوارى البيض »

وقبل أن يصلوا الى الحجرة الثالثة قال فنحاس : « وفى هذه الحجرة بنات من البربر يحملهن النحاسون من بادية افريقية .

وأكثر هذا الصنف من الجوارى ينقلن الى بغداد بدلا من الجزية
 كما لا يخفى على مولاي . وفي الغرفة التي تليها جوار صفر من
 بلاد السند ، وفي الغرفة التي بعدها جوار حمر من بلاد الروم ،
 وفي الغرف الأخرى طبقات من أولئك الجوارى بين سرار ومواشط
 وحواضن وطباخت وخبازات ونحو ذلك من ضروب الخدمة .
 وفي بعض هذه الغرف طبقات من أصناف الممالك البيض
 والسود ، وقد تدربوا على الصناعات المنزلية بين طاه وخباز
 وفراش وسائس . وفيهم من أتقن الأدب وحفظ الشعر والعربية
 ومنهم المغنون والندماء والمضحكون وغيرهم بين بيض وسود
 على اختلاف الأعمار »

- ١٣ -

الجوارى المولدات

فرأى الفضل ان التنقل بين جميع هذه الغرف يطول أمره ، فقال :
 « أرنا أمثلة من أغرب ما عندك ودعنا من هذا التفصيل ، فان
 الوقت لا يساعدنا على رؤية كل من في هذه الغرف »
 فقال : « هل تريد أن أريك الغلمان الصغار من البيض
 والسود فانهم في مثل ما رأيته ؟ »
 قال : « أجل .. أرنا الجوارى الصبيات »

فتجاوز فنحاس عدة غرف حتى وصل الى حجرة فتح بابها
 فاذا فيها فتيات بيض بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر ،
 وهن مع ذلك في حال السذاجة ، عليهن أكسية من الأثواب
 البسيطة ، وشعورهن مرسلة أو مجدولة ، وفي آذانهن الأقراط ،
 وفي أعناقهن عقود من الخرز الملون ، وفيهن جمال النساء
 وحيأؤهن.. ولما رأين الفضل ورجاله ، غلب عليهن الحياء وتولاهن
 الخوف ، فوقع نظر الفضل على واحدة منهن رأى في عينيها سحرا
 وفي قامتها رشاقة ، وقد زادت السذاجة جمالا وهيبة.. فوقعت من
 نفسه موقعا حسنا ، فناداها بالعربية فلم تفهم مراده... ولكنها
 أدركت انه يناديها فنفرت واختبأت وراء جارتها وحولت وجهها
 وغطته بذراعها ، فأعجبه ذلك النور فقال : « أين أبو العتاهية
 أو أبو نواس يصف لنا هذا المنظر بيت من الشعر ؟ ! »

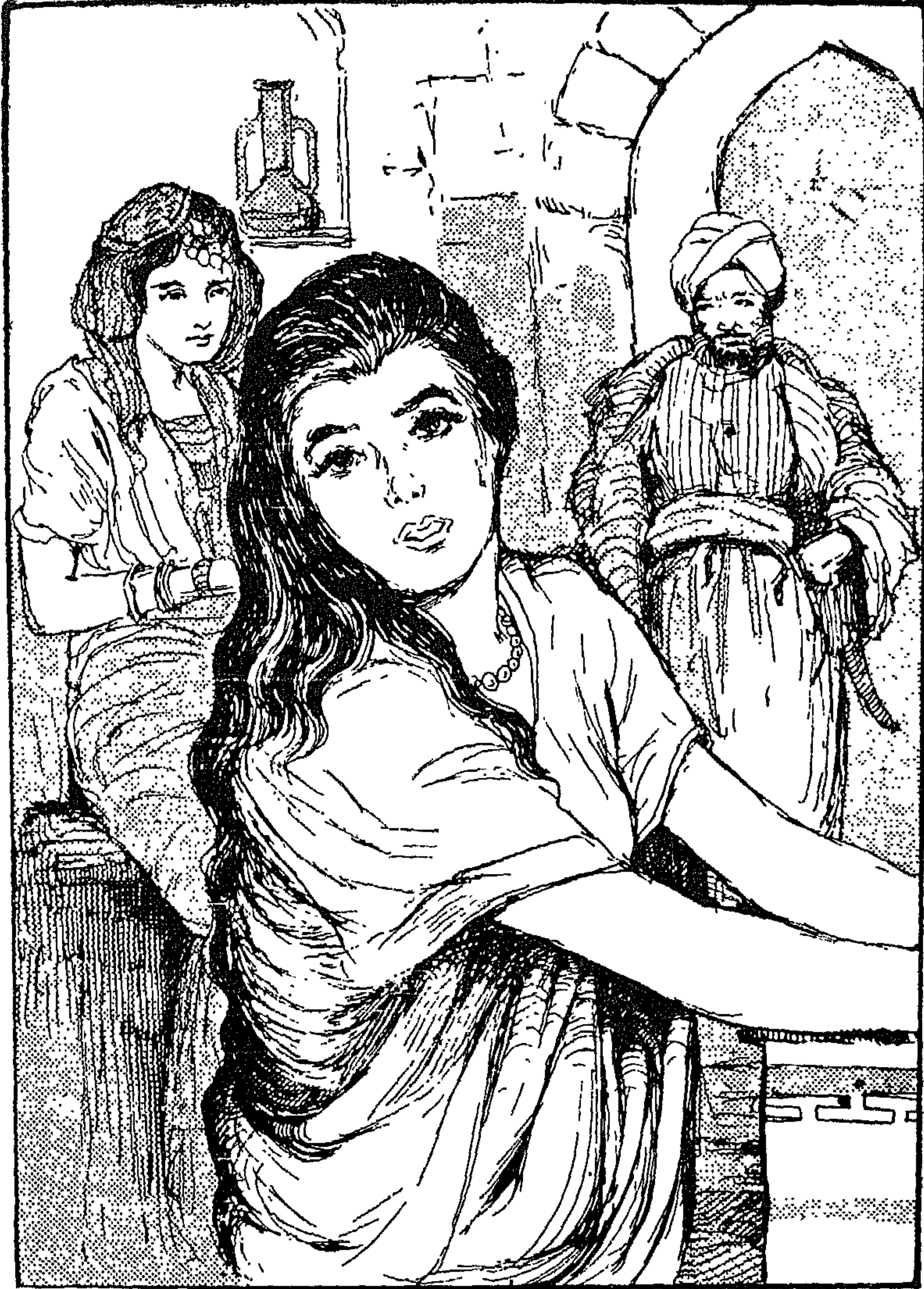
فتذكر فنحاس أبا العتاهية ، والتفت وهو يتوقع أن يراه الى
 جانبه فلم يجده ، وأوشك أن ينطق باسمه لو لم يتذكر نصيحته
 بتكتم أمره ، فقال : « صدق مولاي بأعجابه ، فان هذه الجارية من
 طبرستان اشتريتها في جملة جوار من نوعها .. وليس فيهن أجمل
 منها . ولكنك ستري ما هو أعجب من ذلك .. فكيف لو رأيت
 الجوارى المولدات من البصريات والكوفيات ذوات الألبس
 العذبة ، والقدود المهفهفة ، والأساط المخنصرة ، والأصداغ
 المزرفنة ، والعيون المكحلة ، وحسن زيّهن وزينتھن ، وفيهن

الطويلة البيضاء ، والسمراء اللعساء ، والصفراء العجزاء ،
وبينهن من اذا صببت عليها جرة ماء وهى قائمة فلا يصيب ظاهر
فخذيها شئ لعظم عجيزتها مثل ما يتحدثون عن عائشة بنت
طلحة التى كانت اذا همت بالنهوض يساعدها عليه اثنان «

فضحك الفضل لمهارة فنحاس فى وصف جمال النساء مع
ما يظهر من شيخوخته وقال له : « أراك ماهرا فى وصف الحسان
يا معلم فنحاس »

فأجابه على الفور ويده على لحيته : « وأين قضيت هذه
الشبية يامولاي ؟ »

فقال الفضل : « اذهب بنا الى الجوارى المولدات »
فأشار اشارة الطاعة ، وتحوّل الى الجانب الآخر من الفناء ..
فتبعه الفضل ورجاله وفنحاس يقول : « يظهر انكم تعبتن من
الوقوف فما أنا ذا ذاهب بكم الى الجوارى المغنيات اللواتى حفظن
الأشعار وأتقن الضرب على العود وغيره من آلات الطرب » حتى
وصل بهم الى غرفة فتح بابها ووسع للفضل مدخلها ، فنظر الفضل
فرأى الغرفة مفروشة بالبسط وفيها الوسائد وفى بعض جوانبها
ثلاث من الجوارى البيض جالسات ، وقد فاحت رائحة المسك
منهن .. على احدهن ملحفة معصرة فوق غلالة حمراء ، وعلى
رأسها عصابة مزركشة ، وقد أرخت تحت العصابة سالتين علقت
فى طرف كل سالفة ياقوتة حمراء ، وأرخت شعرها كأنه الليل



« فوقع نظر الفضل على واحدة منهم، رأى في عينيها سحرا وفي قامتها رشاقة،
وقد زادت السداجة جمالا وهيبه.. فوقعت من نفسه موقعا حسنا .. »

وتبخرت بالعود وتعطرت بالمسك ، وكانت مقدمة على صاحبتيها لأنها أجملهن خلقة .. على أن صاحبتيها كانتا في مثل مظهرها من حيث الملبس ، ولكنها تفضلها بجمالها ورشاقة قدها ، وكانت عيناها سوداوين كأنهما مكحولتان .. ولونها أبيض في صفاء البللور ، وفي عنقها عقد من العقيق . وكانت جالسة بين رفيقتيها على وسادة . فلما فتح الباب ابتدرها فنحاس قائلا : « قومي يا قرنلة وقبلي يد مولانا الفضل بن الربيع » وكانت تعرف هذا الاسم وعلاقته ببلاط الخليفة .. فتحفزت للوقوف ، وطال تحفزها لثقل فخذيهما على حد قول الشاعر :

فقيامها مثني اذا نهضت من ثقله وقعودها فرد

ثم نهضت ومشيت وهي تتمايل وسراويلها تتثنى فوق قدميها . حتى اذا دنت من الفضل بن الربيع هشت له وابتسمت ابتسام التحية بلطف ورقة وانحنت لتقبيل يده فمنعها . والتفت الى فنحاس لفظة الاستحسان فقال فنحاس : « خاطبها يامولاي ، فانها فصيحة اللسان »

فجياها الفضل فأجابت بأفصح عبارة ، فأدرك من لهجتها أنها بصرية ، ولكنها تختلف عن أهل البصرة في لون الوجه وسائر الملامح .. فنظر الى فنحاس وقال له : « لعل هذه الجارية من أهل البصرة ؟ »

قال : « كلا .. ولكنها ربّيت في البصرة منذ طفولتها وأصلها

من بلاد الكرج ، وقد ابتعتها صغيرة مثل الفتيات اللواتي
شاهدتهن في الحجرة الأولى ، فأنست فيها ذكاء وجمالا فأرسلتها
الى عميل لى فى البصرة ، علّمها اللغة العربية والقرآن وحفظها
الأشعار . ولما عادت الى أعجبنى منطقها ورخامة صوتها ، ورأيت
ما علمته من رغبة رجال الدولة فى الاقتداء بأمير المؤمنين بتعليم
الجوارى البيض الغناء ، فرغبت الى الموصلى مغنى الخليفة فى
تعليمها ، فلم يقبل الا بعد أن بذلت له المال الكثير .. وصرت
أبعثها اليه كل صباح تأخذ عنه لحنا بعد آخر ، حتى أتقنت
هذه الصناعة وأصبحت نادرة بين جوارى بغداد لا يوجد نظيرها ،
ولا فى بلاط الخليفة »

وكان فنحاس يتكلم والفضل يتأمل جمال تلك الجارية ، وكانت
قد تشاغلت عن سماع اطناب فنحاس بانزال عود كان معلقا على
الحائط ، فانحسر كمها عن يدها فبانت غضاضة زندها وعليه
الأساور والدمالج ، وبان الخضاب فى كفها .. ورأى قرطبيها يلعبان
فى أذنيها . فلما فرغ فنحاس من اطنابه قال له الفضل : « قلت
انها تحفظ الشعر وتجيد اللغة العربية »

قال : « اسألها ما شئت ، واسمع حديثها أو انظر الى عصابتها
واقرا ما زر كشته عليها »

فتقدم الفضل ونظر الى العصابة فرأى عليها بيتا من الشعر
بحروف من الذهب هو :

ليس حسن الخضاب زينا لكفى حسن كفى زين لكل خضاب
فأعجبه ذلك والتفت الى فنحاس وهو يقول : « ما أجمل هذه
العصائب ، لله در مخترعتها .. »

قال : « أظنك تعنى مولاتنا عليّة أخت الرشيد.. فانها ابتكرت
للحسان - حقا - وسيلة فعّالة من وسائل الجمال »
قال الفضل : « هل تعلم السبب الذى من أجله اتخذت هذه
العصائب ؟ »

قال : « كلا يامولاي .. »

قال : « أنا أخبرك عن السبب .. ان فى جبين عليّة فضل سعة
حتى تسمح به فأرادت اخفاء ذلك العيب ، فاتخذت العصائب
المكحلة بالجواهر لتستر بها جبينها ، فاستحدثت والله شيئا
ما رأيت فيما ابتدعته النساء أجمل منه » (١)

فتحقق فنحاس من أن الفضل سيشتري هذه الجارية لا محالة ،
فأراد أن يرغبه فى الآخرين فأشار الى احدهما اشارة فهمتها
فانزوت فى أحد جوانب الغرفة والتفت الى مرآة معلقة بالحائط
بحيث لا يظهر وجهها لأحد ، وكان الفضل مشغولا عن ذلك بمراقبة
الجارية الأولى وهى تتلهم باصلاح العود ، فلما علم فنحاس ان
الجارية الثانية أتمت وصيته التفت الى الفضل وقال : « وانظر
الى ما على وجه هذه .. تقدمى ياسوسنة » وأشار اليها فأنت

(١) الاغانى - الجزء التاسع صفحة ٧٩ .

والقصف ، وانما طاع الامين لغرض له فى سياسة الدولة .. فعزم
على المسير لوقته

- ١٤ -

المساومة

فتحول عن الغرفة ، وتبعه رجاله وفتحاس بين أيديهم ، وهو
يقول : « اذا شاء مولاي أريته أصنافا آخر من الجوارى البيض
والسمر ، والحر ، والسود ، ولكنه رأى أحسن ما عندى » قال
ذلك ترغيبا له فيما وقع عليه اختياره . وسار بين أيديهم حتى
أدخلهم غرفة الاستقبال فجلسوا ، فأمر فتحاس بمائدة الشراب
فاعتذر الفضل لأنه لا يرى فى الوقت متسعا لذلك .. والتفت الى
فتحاس وقال : « بكم تبيع هؤلاء الجوارى الثلاث ؟ »
فوقف فتحاس وقفة الاحترام وقال : « وهل على ولى العهد
شرط أو مساومة ؟ .. ان الجوارى جواريه ونحن جميعا عبيده ،
سواء دفع مالا ، أو لم يدفع .. »
فلم يجهل الفضل احتيال فتحاس فى ذلك فقال : « نحن جميعا
صنيعة ولى العهد ، ولكن البيع والشراء حق واجب »
قال : « لا بأس من البيع ، ولكننى أستحيى أن أحدد ثمننا ..
قافرض ما تراه »

قال الفضل : « ذلك اليك .. فاطلب ما تريده »
قال : « ولكن مثلك يعرف قيمة الأشياء ، ومولانا ولى العهد
كريم اذا أعجبه أمر فلا يبالي بثمنه .. ونحن نقبل منه أن
يدفع كما يدفع مولانا أمير المؤمنين .. »
قال ذلك وابتسم كأنه يظهر المزاح أو يخلط بين الجد والهزل ،
فقال الفضل : « وكم يدفع أمير المؤمنين ؟ »
قال : « ألم يدفع ثمن الجارية ١٠٠٠٠٠ دينار (١) ، وهل تلك
الجارية أحسن من قرنفلة أو سوسنة ؟ » وضحك
فضحك الفضل حتى استلقى على ظهره ، وقال : « ألا تدري
ما ترتب على ذلك السخاء .. ألا تعلم انه فعل ذلك فى أول حكمه
ولما أمر وزيره يحيى بن خالد أن يدفع هذا المال اعتذر عن دفعه
فغضب أمير المؤمنين ، فأراد يحيى أن يبين ما يحتمله بيت المال فى
هذا السبيل ، فجعل المال دراهم فبلغت ١٥٠٠٠٠٠ درهم
فعرضها فى الرواق الذى يمر به الخليفة حينما يريد الوضوء .. فلما
رأى ذلك المال استكثره وعلم انه اسراف .. »
فقال فنحاس : « فاذا لم يشأ مولانا ولى العهد أن يدفع كما
دفع أبوه ، فليدفع كما دفع وزير أبيه .. »
فعلم الفضل انه يشير الى جعفر البرمكى عدوه فتذكر ما بينهما
من المنافسة ، ولكنه تجاهل ، ولم يبد فى وجهه تأثر وقال :

« ما الذى دفعه ؟ »

قال : « ألم يدفع ثمن الجارية ٤٠٠٠٠ دينار (١) وهل يليق بولى العهد أن يدفع أقل من ذلك ؟ .. وعلى كل حال انى مرسل الجوارى الى قصر ولى العهد والذى يدفعه مقبول »

فاستاء الفضل من هذه المساومة ، وشقَّ عليه أن يجعل الأمين أقل سخاء من عدوه ، والناس يومئذ يكتسبون الأحزاب السياسية بالسخاء ، وكان فنحاس يعلم تلك المنافسة ، اذ كان مطلعاً على أسرار الجميع .. ولم يقل ما قاله الا وهو يعلم ان الفضل لا يراجعه حفظاً لكرامة مولاه الأمين ، لعلمه انه يرى من حسن السياسة أن يحفظ منزلته بين رجال دولته حتى لا يجدوا عليه ما يصغره فى أعينهم ، وخاصة فى تلك الحال .. فنجح فنحاس فى خطته لأن الفضل أراد أن يظهر فضل الأمين فقال : « لو كان جواريك هؤلاء من طبقة الجارية التى ابتاعها الوزير لحق لك هذا الطلب ، ومع ذلك فانتى سأجعل ثمن الجوارى الثلاث معا ١٠٠٠٠٠ دينار »

فقال فنحاس وهو يظهر الزهد فى الكسب : « كل ما يدفعه مولانا كرم منه .. فانتا وما نملك من بعض صنائعه »
ولم يجهل الفضل تملق ذلك اليهودى ، ولكنه جراه وقال :
« بارك الله فيك .. أرسل الجوارى الى قصر مولانا مع من تثق به لتسلم المال »

(١) ابن خلكان - ١٠٦ الجزء الاول

قال : « سأرسلهن حالا .. وليس المال مما يستعجل فيه .. »
 فلما قال ذلك تحفز الفضل للوقوف ، فسبقه رفاقه الى النهوض
 وأسرع أحدهم الى الخدم في فناء الدار ، فأشار اليهم أن يسرعوا
 في اعداد الركائب ، واشتغل الفضل في اجابة فنحاس على عبارات
 المجاملة والاطراء ، وهو في أثناء ذلك يتلثم بطرف عمامته اخفاء
 لما جاء من أجله

- ١٥ -

القبض على أبي العتاهية

ولم يكد الفضل يفرغ من ذلك ويخرج الى باب المنزل حتى
 سمع جلبة ، ثم رأى جماعة من الرجال يتشاجرون وعليهم أردية
 تغطي أثوابهم كأنهم متنكرون ، ولكنه عرف من قلانسهم الطويلة
 المدعمة بالعيدان من داخلها انهم من جند الدولة .. وأول من
 ألبس الجند هذا الزي أبو جعفر المنصور (١) ، ولكن الفضل
 استغرب تنكرهم بالأردية فوق أثوابهم ، على أنه ما لبث أن سمع
 صوتا ينادى : « انى من رجال الفضل بن الربيع .. اتركونى
 وشأنى »

فلما سمع الفضل اسمه تقدم ، فوسع له أصحاب القلانس ،

(١) العقد الفريد - الجزء الاول

وكانوا متكاثرين على رجل يوثقونه وهو يحاول التخلص من بين أيديهم.. وحالما وقع بصره عليه ، عرف انه أبو العتاهية ، فاستغرب وقوعه في تلك الورطة ، ونظر يمينا وشمالا فرأى في أحد جوانب الزقاق امرأة ملثمة تشير اليهم أن يوثقوا الرجل ، ولما رآته بالغت في التنكر والتستر ، والرجال يوثقون أبا العتاهية بالوثاق وهو يهددهم بأنه من رجال الفضل ، وهم يقولون : « ما لنا وللفضل فما عليك الا أن تجيب الخليفة » ووقعت عين الفضل على عين أبي العتاهية ، فرآه يشير اليه ويستجد به ، وفي استنجاهه معنى توقع منه خيرا ..

فصاح الفضل بهم : « اتركوا الرجل .. من الذى أمركم بالقبض عليه ؟ »

فأجابوه وهم مشغولون بشد الوثاق : « هذا أمر أمير المؤمنين » ولم يلتفتوا اليه فقال لهم : « ومن ينبئنا بأن أمير المؤمنين يطلبه ، وما شأنكم في ذلك ؟ »

فتقدم أحدهم اليه ، وهو عريفهم ونظر الى الفضل.. فتوسم من زيته انه من كبار أهل بغداد ، ولكنه أنكر تلثمه وقال : « اننا من جند أمير المؤمنين وقد أمرنا بالقبض على هذا الرجل » قال : « لا أراكم من الجند ، وليس عليكم شارة الدولة .. » فابتسم الرجل مظهرا الاستخفاف بذلك الانكار وخلع الرداء

عنه وأدار ظهره ليقرئه ما هو مطرز بين كتفيه ، فقرأ :
 « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » ثم أشار العريف الى
 خصره ، فرأى سيفه معلقا بمنطقته

فضحك الفضل وقال : « هذه ثياب قديمة من أيام المنصور لأنه
 هو الذى أمر رجاله بكتابة هذه العبارة (١) على أثوابهم ،
 وبتعليق السيوف بمناطقهم فلا يبعد انكم ابتعثتم هذه الأثواب من
 بعض الوارثين لتنتحلوا الجنديّة ، والا فأين اسم أمير المؤمنين
 الرشيد ؟ »

فمد الرجل ذراعه فقرأ الفضل على أعلى الكتف اسم الرشيد
 مطرزا بالقصب : « هرون بن المهدي أمير المؤمنين » ثم تحول
 العريف عن الفضل وهو يهز رأسه ، وتوجه نحو رجاله وهم
 لا يزالون يوثقون أبا العتاهية ، وأخذ يستحثهم على الاسراع في
 شد الوثاق ، وكان رجال الفضل واقفين ينتظرون أمره لا تقاذ أبى
 العتاهية ، ولم يريدوا الاقدام على ذلك الا بإشارة ، خشية أن
 يكون قاصدا التنكر لغرض في نفسه

أما هو فلما رأى استخفاف العريف به ، فاداه بصوت هادىء
 يمازجه التهديد قائلا : « ولكنه يقول لكم انه من رجال الفضل
 ابن الربيع »

قال : « ومن يثبتنا بصدق قوله ؟.. وهب انه صادق فنحن

(١) الاغانى - الجزء التاسع

مكلفون بالقبض عليه » قال ذلك وهو لا يلتفت وراءه ، فصاح به الفضل : « أنا أقول لك أيضا انه من رجال الفضل فاتركوه » فلما سمعه يخاطبه بهذه اللهجة ، تحوّل نحوه وتفرس في وجهه من وراء اللثام ، ثم التفت نحو المرأة التي كانت واقفة هناك فرآها تنسل من بين الجماهير .. فعلم انها تسعى الى الفرار ، واستدل من ذلك على ان الرجل الذي يخاطبه ممن يخشى بأسهم .. على انه لم يكثرث لقوله ، وعاد الى رجاله وصاح فيهم : « أوثقوه حالا »

وكان فنحاس في أول الأمر واقفا بجانب الفضل ، فسأه ما وقع في منزله من القبض على أبى العتاهية ولم يفهم السبب ، وحدثته نفسه أن يتقدم لانتقاذه وهو قادر على ذلك لكثرة من في داره من الرجال ، ثم تذكر وعده بتخصيص نسبة له من ثمن الجوارى . فتوسم بالقبض عليه بابا للتخلص مما وعده به ، هذا الى ان حيّانا ما لبث أن جاءه وأسرء اليه ما كان في الأمس وما أوصته به الجارية من الاحتفاظ به ريثما تأتى ، وان سيدتها من أهل أمير المؤمنين .. فاطمأن فنحاس ، وصمّم على السكوت ، ودخل الى داره يتشاغل بما لا طائل تحته

أما الفضل فلما سمع تهديد العريف ، تقدم خطوتين بقدم ثابتة وهو يقول للرجل : « لا .. لا ينبغي أن توثقوه حتى نعرف ما هو ذنبه .. والا فأنتم تتحملون تبعه هذا العمل عند أمير المؤمنين »

فالتفت العريف نحو الفضل وهو يقول : « ومن أنت حتى تهددنى بأمر المؤمنين ؟ امض لشأنك »

فلما سمع رجال الفضل ما فى تلك العبارة من الاستخفاف كادوا يهمون بالرجل أو يصرحون له بالحقيقة ، ولكنهم تركوا ذلك للفضل ولبثوا ينتظرون أمره .. أما هو ، فظل رابط الجأش ، وما زاد على أنه أشار الى رجاله أن يخلصوا أبا العتاهية. فهجموا ، وكانوا أشداء وأكثرهم من القواد . فعلت الضوضاء وهم الجنود بتجريد السيوف ، فصاح الفضل فيهم : « لا حاجة بكم الى السيوف .. اتركوا الرجل ، فاذا سئلتهم عنه فقولوا ان الفضل بن الربيع أخذه منكم ، فاذا كان أمير المؤمنين أو سواء فى حاجة اليه فيطلبه منى »

فلما سمعوا ذلك التصريح بغتوا وتوقفوا عن الحركة ، وجاء العريف الى الفضل ، وقال له بغير لهجة الاستخفاف : « ان الرجل طلبه أمير المؤمنين .. فكيف تتركه بعد أن قبضنا عليه ؟ وماذا نجيب اذا سئلنا عنه ؟ »

قال : « قل لطالبه انه عندى .. قل انه عند الفضل بن الربيع أو عند ولى العهد كما تشاءون » قال ذلك وهو يهم بازاحة اللثام فلم يبق عند العريف شك انه بين يدي الفضل ، ولكنه نظر الى من كانوا حوله من الرجال ، فسمع أحدهم يقول له همسا : « انك تخاطب وزيرا كبيرا .. هذا هو الفضل بعينه »

فتقدم العريف نحوه وهو يتأدب في مشيته وقال : « لماذا لم يقل مولانا ذلك في بادئ الأمر ، فنحن صاعدون بأمره » ثم أشار الى رجاله فحلوا وثاق أبا العتاهية ، وتحولوا .. فاتجه أبو العتاهية نحو رجال الفضل ، وقد وقعت عمامته عن رأسه ، وانتفش شعره فظهر قبح منظره ، وجاءوا به الى الفضل فخراً على قدميه وحاول تقبيل طرف ثوبه ، فأنهضه الفضل وهو يقول له : « ما الذى أوقعك فى هذا المأزق وأنت الشاعر الزاهد ؟ .. » وضحك وهو يحسب ان سبب القبض عليه مما يخالف أسباب الزهد فقال : « ان السبب يامولاي سأقصه عليك وهو يهيك »

فأشار اليه أن يسير معهم ، وأمر رجاله بالركوب بعد أن قدموا له فرسه ، فركب وركبوا فى أثره قاصدين قصر الأمين

- ١٦ -

الصولجان والكرة

أما العريف ورجالهم فأنهم عادوا الى قصر العباسية ، وكانت قد أرسلتهم للقبض على أبى العتاهية بمشورة عتبة . وذلك انهما لما رجعا الى القصر فى أواخر الليل ، كما تقدم ، ظل خاطر عتبة مشغولاً بما علمته من أمر أبى العتاهية .. وقد رجح فى ذهنهما اطلاعه على سر مولاتها . فلما وصلتا الى القصر دخلت العباسية

الى غرفتها تلتمس النوم ، واستولى القلق على عتبة فلم تنمالك
عن الدخول عليها باكرا والتصريح لها بما لاحظته ، وأشارت
بالقبض على أبى العتاهية سريعا لئلا ينوح بالسر . فأعظمت
العباسة الخبر وخشيت منه ، ولم تر حيلة للنجاة الا بالقبض عليه
واخفاء خبره ريثما تتدبر فى أمرها .. فطلبت من عتبة أن ترسل
شرذمة من الجند ممن كانوا فى خدمة قصرها ليقبضوا عليه بأمر
الخليفة.. فذهبت عتبة معهم ، حتى اذا وصلوا الى دار فنحاس كان
الفضل قد سبقهم اليها ودخل دار الرقيق كما تقدم . وكان أبو
العتاهية عازما على الخروج خلسة بحيث لا يشعر به الفضل ولا
يعرف بوجوده هناك ، مخافة أن يلحظ تواطؤه مع فنحاس .. ولم
يخطر بباله انه مطلوب ، وشعر حيان بذلك وأخذ يشاغله بالحديث
ونحوه ريثما يعود سيده من دار الرقيق ليطلعه على وصية عتبة .
فلما أحس أبو العتاهية بقرب خروج الفضل أسرع فى الذهاب ،
وكان العريف قد جاء بجنده فأشار حيان اليهم أن يقبضوا عليه ،
فهمثوا به .. ورأى أبو العتاهية عتبة فأدرك غرضهم ، فأخذ
يطاولهم حتى جاء الفضل فوجدهم على تلك الحال فألقاه منهم
فعاد العريف الى العباسة ، وكانت عتبة قد سبقته الى هناك ،
وأخبرت مولاتها بتعرض الفضل لهن . فلما عاد العريف وأنبأها
بما كان من نجاته أبى العتاهية على تلك الصورة عظم الأمر عليها ،
وتحقق ان سرها لا يلبث أن يصل الى الفضل .. فأخذت تندب

حظها . وخلت بعتبة وشاورتها في الأمر ، فقالت لها : « لم تبق لنا حيلة يامولاتي الا بالاستنجاد بمولاى الوزير »

قالت العباسة : « وكيف نبلغه الخبر ، وهو اليوم مع أخى في الميدان يلعبان بالكرة والصولجان ؟ » وكان ذلك اليوم موعد تلك الألعاب على جارى العادة في الميدان بقرب قصر الخلد

قالت عتبة : « لابد من ذلك .. واذا شئت فانى أتولى نقل الخبر اليه »

فأثنت عليها وقالت : « تدبرى في الأمر كما تشائين .. فانى لا أعى شيئا »

قالت عتبة : « هل أدعوه اليك الى هنا ؟ »

قالت العباسة : « افعلى ما ترين لأنى أخشى اقتضاح أمرنا قبل تدبير الحيلة للنجاة »

قالت عتبة : « لك على ذلك باذن الله » وهمت بالخروج فنادت بها العباسة وقالت : « خذى اليه هذه البطاقة » وكتبت اليه بطاقة قالت فيها : « أدركنى فى أول فرصة تتاح لك ، لا نقاذنا من مخالب الأعداء » ودفعت البطاقة اليها ، فأخفنها بين ثيابها وخرجت للحبال الى غرفتها ، وتزيّت بزى رسول قادم من خراسان ، وتلشت بلثام السفر .. وركبت فرسا وأسرعت نحو الميدان ، وكان قصر العباسة على مقربة منه

فوصلت الى الميدان وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة ،

فرأت تلك الساحة غاصة برجال الدولة على خيولهم في ساحة كبيرة قد أحاطوها بسور من حبال مزدوجة منصوبة على أعمدة ، وقام الجند حول السور بالأسلحة يمنعون الناس من الدخول ، فوقفت بجوادها بحيث تشرف على اللاعبين حتى تتحقق من موقف جعفر ثم تسعى في الوصول اليه . فرأت في أحد جوانب الساحة فسطاطا كبيرا خرج منه الرشيد على فرسه ، وقد اعتم بعمامة خفيفة خاصة باللعب ، ويده صولجان هو عبارة عن عصا طويلة طرفها أعقف ، ورجال الدولة على أفراسهم متأهين للعب ، وفي أيديهم الصوالة وقد اصطفوا صفين : أحدهما مع الرشيد . ورأت الرشيد يجول على فرسه والعصا مشهورة بيده ، ثم لقف بها الكرة من على الأرض وأرسلها في الهواء ، فتسابق اللاعبون لملاقاتها بصوالجهم .. .

وأخذوا يستحثون أفراسهم وراءها ، وفي جملتهم جعفر الوزير على فرس أدهم وعليه دراعة تمنطق فوقها بمنطقة عريضة من الخبز ، وعلى رأسه طاقية فوقها عمامة خفيفة . ولاحظت انه لم يكن أحد غيره يجرؤ على الدنو من الخليفة . وأما سائر اللاعبين من رجال الدولة فكانوا يجولون في الميدان مسaire للخليفة ولا يجرؤون على سباقه خشية أن يغلبه أحد منهم .. والمجاملة تقضى بأن يكون هو الغالب ، الا جعفر ، فقد كان يسابق الرشيد في الكرة ويلعبه بها ، والرشيد يجامله .. فاذا أخطأ ضحك وصاح بجعفر ومازحه ،

وجعفر يتعاجز عن غلبته

وكان صولجان الخليفة من الخيزران المطوق بالذهب : ورأسه من الذهب الخالص ، وصولجان جعفر من خيزران بلا تطويق ، وكراتهم كتل من مشاقة الحرير معبأة في أكياس من الحرير المتين ، وقد شدت بأطواق من الأوتار المرنة . فلا يلبث الفارس أن يلقف الكرة من على الأرض بطرف صولجانه الأعقف حتى تطير في الهواء فيستحث الآخرون أفراسهم في أثرها وعيونهم شائعة نحوها ، وصوالجتهم مشرعة في أيديهم فيبتغون ملاقاتها وأفراسهم قد هاجها الجهد حتى تصيب العرق منها واختلط الزبد المتحلب من أفواهها بما أزبد من العرق المتقطر من أعناقها وصدورها ، وهي لا تشكو تعباً لأنهم أعدوها لمثل ذلك اليوم ، وكان الرشيد شديد الولع بهذه اللعبة (١) ورجال الدولة يتقربون إليه باتقانها واللعب بين يديه بها ..

وكان جعفر قد قضى ليلته الماضية في قلق على أثر مشاهدته ولديه ، اذ جاء بهما إليه رياش قبل ذهابه الى دار فنحاس .. فقبّلهما جعفر واستنشق ريحهما ولاعبهما مدة ، فثارت عواطفه وأصابه ما أصاب أمهما تلك الليلة من يقظة الحنان الأبوى على ولدين كأنهما الفرقدان مع ما ذكرناه من جمالهما ولطفهما ، وقد قضت ارادة الخليفة بإبعادهما عن حجر والديهما خوفاً من الموت

(١) ابن الاثير - الجزء الخامس

فبات جعفر تلك الليلة وهو يتصور العباسة معانقة ولديها مع ما قد يجيش بين جنبيها من عوامل الحنان يخالطها خوف الفراق، ناهيك بما يعترض ذلك من الهواجس والمخاوف ، فعظم عليه الأمر وهجره النوم .. وقد كان على موعد للذهاب الى الميدان لملاعبة الرشيد بالكرة والصولجان في صباح الغد . فجاء بموكبه وحاشيته وهو يظهر الارتياح لعلمه بما يحدق به من الحساد والوشاة .. على انه كان مطمئن الخاطر من ناحية الرشيد واثقا بحسن ظنه به ، لا يخاف حسد الحاسدين ، ولا وشاية الواشين . وقد فاته ما يجول في خاطر الرشيد من أمره وما يدسه الوشاة اليه .. يثيرون نغمته عليه بما يحدثونه به من اتساع سلطان البرامكة واقتنائهم الضياع والقصور واختزانهم الأموال مما لم يكن عند الرشيد مثله .. فضلا عن استبداد جعفر بشئون الدولة ، على انهم لم يكونوا يجدون من الرشيد اصغاء ، ولم يسمعوا منه غير اطرائه والثناء عليه ، وقد أطلق يده في أموره العامة والخاصة حتى أباح له الدخول على دوره بلا استئذان ، وسلم اليه خزائن بيت المال .. وأطلق يد أبيه يحيى في دوره وقصوره ، وجعل النظر فيها وفي حريمه اليه ، حتى انه كان يغلق أبواب القصر وينصرف بالمفاتيح (١) . ولم يكن الرشيد يصبر على فراق جعفر حتى آل ذلك الى ما تقدم من عقده له على أخته العباسة بحيث يحل له

النظر اليها .. فلا يخلو مجلسه منهما ، فأفضى ذلك الى ما علمته
من زواجهما سرا

على ان جعفر لم يكن يعد زواجه بالعباسة الا شرعيا ، وانما
عمد الى التستر خوفا من غضب الرشيد ، ولم يخطر بباله
انكشاف ذلك السر لأحد ، وكأن اقبال الزمان غرته فأعمى
بصيرته عن يحيط به من الحاسدين .. ولعل له عذرا في غروره
بما كان يحسه من تزلفهم اليه وتظاهرهم باحترامه ورعاية جانبه ،
ولا نظن انه كان غافلا الى هذا الحد ، ولكنه سكر بما ظهر له من
حب الرشيد له واجلال مقامه ، وما كان يسيده من اكرامه
والرجوع اليه في معظم شئونه

- ١٧ -

قصر العباسية

أما عتبة فجعلت تنفّس في اللاعبين حتى عرفت مكان جعفر
وهو بعيد عنها ، وبدون الوصول اليه رجال وحيال ، فوقفت وهي
تعجل فكرتها في طريقة لا يصل البطاقة اليه بغير أن يشعر بها
أحد .. فوقع بصرها وهي في تلك الحيرة على رجل من غلمان
جعفر ، كان يأتي الى قصر العباسية لبعض المهام الخاصة ولها ثقة
به ، فاستغفلت زفاقه وأشارت اليه فجاء نحوها على انفراد فنادته :

« حمدان » . وكان حمدان هذا من أقدم غلمان جعفر ، نشأ في منزل أبيه يحيى منذ طفولته وقد ربي جعفر على ذراعيه ، وكان يحبه حبا يقرب من العبادة ، وقد بلغ الخمسين من عمره وهو لا يزال نشيطا ، وكان فارسي الأصل خراساني الموطن .. وكان مفضلا عند جعفر ، يدخل عليه متى شاء ويعامله معاملة الأقرباء .. فلما سمع حمدان عتبة تناديه باسمه عرفها وأدرك انها متسكرة لغرض هام ، فقال لها : « ما وراءك ؟ »

قالت : « جئت برسالة الى الوزير .. فكيف أوصلها اليه ؟ »
قال : « انهم لا يلبثون أن يفرغوا من اللعب ويعود الوزير الى فسطاطه للراحة ، فيسهل الاتصال به .. اعطني الرسالة فأوصلها اليه »

فسرّت عتبة لذلك ، ودفعت اليه البطاقة فأخفاها في ثيابه ، وقال لها : « اذهبي واطمئني .. فاني سأسلمها له حالا »

فعادت عتبة الى سيدتها فرأتها في انتظارها وقد فرغ صبرها فقصت عليها ما كان ، وجلستا على مثل الجمر تنتظران مجيء جعفر وكان قصر العباسية على ضفاف دجلة بالقرب من قصر زبيدة (دار القرار) بينه وبين قصر الخلد (دار الرشيد) وكان لقصر العباسية شرفة مظلة على دجلة ، وأخرى تطل على طريق يؤدي الى الميدان وهو الطريق الذي عادت منه عتبة ، فجلست العباسية في هذه الشرفة ، وأطلت من وراء حجاب فلم تر في الطريق أحدا ..

وطال انتظارها وعيناها شاخضتان نحو الأفق ، وبعد حين رأت
 شبعا ظنته وزير أخيها أو حبيبها وزوجها ومحط آمالها . حتى اذا
 مالت الشمس الى المغيب واستطالت أظلال المآذن على سطوح
 قصور بغداد ، وعلت أصوات المؤذنين .. انزعجت العباسة لصوت
 الأذان على غير المعتاد ، لأنها كانت تستأنس به وتطرب لسماعه ،
 أما الآن فقد أزعجها لأنه أنبأها بانقضاء النهار وحيلولة الظلام
 بينها وبين الأفق ، وكانت عتبة واقفة الى جانبها لا تقل عنها قلقا
 فلما سمعت أصوات المؤذنين لاحظت تدمير مولاتها ، فابتدرتها
 قائلة : « أظنه قد تعمد أن يتأخر حتى يسود الظلام ! .. »

قالت : « ولماذا ؟ »

قالت : « حتى يأتيك خلصة فلا يشعر به أمير المؤمنين أو
 غيره »

قالت : « ومتى كان أخى يرقب ذهابه ومجيئه ، وهو غير متهم
 عنده ، ومفاتيح القصور في يد أبيه .. ولكننى أخشى أن يكون
 لتأخره سبب مزعج ، وقد أصبحت بعد اطلاع ذلك الشاعر بائع
 الجرار على سرنا أعد حياتى في خطر .. » قالت ذلك وغصت
 بريقها ..

فقالت عتبة : « لا يزعجك هذا الوهم يامولاتى ، فانى لست
 على يقين من اطلاع أبى العتاهية على سرنا ، وانما اتهمته فأحببت
 أن يقبض عليه من باب الاحتياط ، وهبى انه اطلع عليه .. فهل

يجرؤ أن يذكره لأمير المؤمنين ؟ »

فلما تصورت العباسية ذلك اقشعر بدنّها خوفاً من غضب أخيها لعلمها أنّه اذا غضب فتك واستبد ولا مرد لغضبه ، وهى تعلم أيضاً أنّه ما من أحد يجرؤ على ذكر شيء من ذلك بين يديه ، ولكنها قالت : « اذا كنت لا أخاف أن ينطق أبو العتاهية بشيء من ذلك بين يدي أخى ، الا أخاف أن يبوح به لحساد جعفر فيتخذونه وسيلة للإيقاع به .. على انى لا أخاف أحداً خوفي من تلك المرأة »

فأدركت عتبه انها تشير الى زبيدة زوجة أخيها لعلمها بما بينهما من المنافسة مما يكون بين المرأة وبنت حماتها ، لاسيما ان الرشيد كان يظهر حبه للعباسية ولا يصبر على بعدها ، وزبيدة تفاخر سائر نساء الخليفة بشرف نسبها الهاشمى لأنها حفيدة المنصور وابنة عم الرشيد . وكان الرشيد يحبها أيضاً ويحترمها ولا يرد لها طلباً ، فلم تقنع بذلك وأخذت تغار من حبه لأخته ولعل علو منزلتها عند الرشيد زاد من أسباب غيرتها ، وخاصة بعد أن علمت بما بين العباسية وجعفر من تبادل العلاقات . ولم يكن ذلك كله يخفى على عتبه ، بل كانت هى أعلم به من مولاتها — لأن الخبر يصل الى أذن صاحبه ويقف — ولا سيما فى ذلك العصر والناس يتقربون الى أهل المناصب بالاطراء والارضاء ويتجنبون ابلاغهم ما يسوءهم ذكره . وربما ارتكب المرء جناية ظن نفسه

مبالغاً في كتمانها ، والناس يتحدثون عنها في مجالسهم وأنديةهم ، وهو يحسبهم غافلين ، ولا يجرؤ أحد منهم أن يطلعه على ذلك . فلما سمعت عتبة تصريح العباسة بخوفها من زبيدة قالت : « لا أرى مسوغاً لما تتخوفين منه الآن »

قالت : « وكيف لا ترين مسوغاً وأنت تعلمين ما في نفس زبيدة منى .. فكيف اذا اطلعت على هذا السر ؟ » فابتسمت عتبة وقالت : « هل تظنين زبيدة لم تعلم بذلك الى الآن ؟ »

فأجفلت العباسة وقالت : « وهل علمت ؟ .. ومن أطلعها عليه ؟ » قالت : « انك عاقلة حكيمة .. ومثلك لاتأخذ بظواهر الأمور . كيف يخطر لك أن يبقى هذا الأمر مكتوماً عن الناس .. ومولاي الوزير يدخل هذا القصر متى شاء بلا حجاب ولا حساب .. » فقطعت العباسة كلامها وقالت : « وهل أهل القصر يعلمون ذلك أيضا ؟ »

فخافت عتبة على مولاتها ، فقالت : « كلا .. ولكنني أظن أن زبيدة علمت به لما تعلمينه من تجسسها بوساطة الجوارى والأعوان لما يهمها من أمر .. على ان اطلعها على ذلك ، لا يقتضى أن تبوح به لزوجها ، فان أمير المؤمنين لا يجرؤ أحد أن يذكر له شيئاً مثل هذا ، ان لم يكن خوفاً منه فخوفاً من سيدى الوزير ، وهو صاحب العقد والحل في الدولة . فمن يجرؤ أن يتعرض لفضبه ؟ »

وكان الظلام قد تكاثف وهما جالستان في تلك الشرفة في
الظلام، وسائر القصر مشعشع بالأنوار والشموع.. وأهله لاهون
عن حال مولاتهم لا يعلمون بما يكنه ضميرها ، ولم يكن أحد
ممن في قصرها من الجوارى والخصيان وغيرهم يجالسها أو يعلم
ما في قلبها الا عتبة.. لأنها صحبتها منذ طفولتها ، وهي في قصر أبيها
المهدي ، ووثقت بها .. وكانت العباسة تتحدث مع عتبة في ذلك
المساء وعيناها لا تنتقلان عن الأفق ، وان كان مظلم .. على ان
بصرها كان يتحول رغم ارادتها إلى الأنوار المتألقة في قصر الخلد
إلى يمينها ودار القرار إلى يسارها ، وفي كل منهما رقيب تخشاه ..
فلما استبطأت جعفرًا انشغل خاطرهما ، وتحفرت للنهوض وهي
تقول : «هلم بنا إلى الشرفة المطلة على دجلة لعله يجيء من هناك..»
واذا هما بخفق نعال في الدهليز المؤدى إلى ذلك المكان . فلما
سمعت العباسة ذلك الصوت خفق قلبها لأنه يشبه وقع خطوات
جعفر ، فأسرعت وهي تقول : « أظنه جاء ! » فمشت عتبة بين
يديها وقالت لها : « اذهبي يا مولاتي إلى غرفتك البعيدة حتى
آتي به إليك فلا يكون عليكما رقيب .. ولا أنا »
فأطاعتها العباسة وتحولت إلى تلك الغرفة . أما عتبة فأقبلت
على الدهليز وفي جدرانها الشموع فرأت جعفرًا داخلًا وعليه
السواد (الجبة السوداء) والقلنسوة الطويلة ، وهما ملابس
العباسيين الرسمية ، فتقدمت إليه وقبّلت يده فابتدرها قائلاً :
« أين مولاتك ؟ »

قالت : « هي في غرفتها تنتظر مجيئك منذ عدة ساعات »
 فمشى وحده ، ومشى عتبة في أثره ، ريثما يصل الى باب الغرفة
 فتساعده على خلع نعاله ثم تعود الى مكان بعيد على جارى
 العادة . وكان جعفر يومئذ في السابعة والثلاثين من عمره ، وهو
 طلق المحيا ، ظاهر البشر ، جميل الطلعة ، ربع القامة ، كستنائى
 الشعر ، خفيف اللحية والشارب .. لم يخالط شعره الشيب الا
 قليلا .. وفى عينيه ذكاء ، وكان قد أرسل القلنسوة الى الورا
 فبان بياض جبينه وظهرت على محياه امارات الاهتمام ، ومن كان
 دقيق الشعور قوى العاطفة ظهرت عواطفه فى وجهه ، فلا يقوى
 على الكظم ولا يصبر على الضيم ، وهذا الفرق راجع الى طبيعة
 الأمزجة .. فمن الناس من هو حاد المزاج سريع الغضب ، ومنهم
 من هو طويل الاناة واسع الصدر ، وما بين ذلك درجات كثيرة .
 أما جعفر فلم تكن تخفى انفعالاته على التأمل خلافا للفضل بن
 الربيع

- ١٨ -

المقابلة

وكانت العباسة واقفة فى غرفتها وركبتها ترتعدان من شدة
 التأثير تتنازعها عوامل الحب والخوف والعتاب والرجاء ، وكانت
 تلك الغرفة على سعتها وبما فيها من وسائل الزينة من المنائر

المنصوبة والصور المعلقة والطنافس المفروشة أضيق في عينيها من صندوق صغير ، ورأت الانتظار تلك اللحظة أطول من انتظارها معظم ذلك النهار . ثم ما لبثت أن سمعت خفق نعاله بالباب ، وسمعت حركة خلع النعال ، وكانت عتبة تساعد على ذلك ، فلما خلعتها وضعتها على رف معد لمثلها هناك وعادت

أما العباسة فتقدمت نحوه وهي في ثوب بسيط تعودت أن تلبسه عند مقابلته ، وكان شعرها محلولا وقد ضفرته ضفيرة واحدة جمعتها في أعلى رأسها بدبوس مرصع ، والتفت فوق الرداء بمطرف من الحرير مزركش بأشعار طرزت على حواشيه بالقصب . وقد رسم القلق في أسرتها عبوسا زادها هيبة وجمالا . ولم تتمالك عندما وقع نظرها على جعفر عن الابتسام ، وقد نسيت ما أعدته من عبارات الشكوى ، وذهب من تخيلتها إما تراحم فيها من أسباب المخاوف ، وأحست بارتياح تعودته في ساعة اللقاء .. شأن الحب الصادق فانه غالب على أسباب الشقاء في كل حال ، فالمحب مهما انتابه من المشاق أو اعترضه من العقبات ، اذا رأى حبيبه نسي كل شيء واشتغل به عن كل شيء . والحب سعادة حقيقية لا يزيد الشقاء الا تمكنا ، كالذهب لا تزيده النار الا صفاء وروثا ..

وكان جعفر مع ما يراه من تفاني العباسة في حبه وتفانيها في راحته لا ينسى ! انها من دم أجمع أهل ذلك الزمان على انه أشرف

من دمه لأنها عربية هاشمية بنت خليفة وأخت خليفة . وهو فارسي أعجمي لا يسوءه مع ما بلغ اليه من السيادة وثفوذ الكلمة أن يعد في جملة الموالى - على جارى اصطلاحهم في ذلك العهد - ولم يجرؤ على الطمع في مثل ما ناله جعفر أحد من العجم مهما بلغ من سطوتهم وعلو مرتبتهم ، حتى الملوك والسلاطين من ظهور الاسلام الى أواسط القرن الخامس للهجرة . وأول من أقدم على ذلك السلطان طغرليك السلجوقى ، فأراد أن يتزوج ابنة الخليفة القائم بأمر الله العباسى ، فانزعج الخليفة لطلبه ولم يعقد له عليها الا مضطرا عام ٤٥٤ هـ ، والخلفاء العباسيون يومئذ في دور الضعف .. فكيف في أيام الرشيد وهو عصرهم الذهبى ، فاذا عرف المرء ذلك ، أدرك لماذا تخوف جعفر من انكشاف أمره واطلاع الرشيد على حقيقة زواجه بالعباسة زيجة حقيقية ، وهو انما عقد له عليها لتحل له رؤيتها .. وقد حسب ذلك منة كبرى على وزيره وصديقه والقائم بدولته .. فجعفر لم يقدم على ذلك الأمر الخطير ، ولا أقدمت العباسة عليه الا لتغلب سلطان الحب عليهما فلما التقى الحبيبان نسي كل منهما الغرض من ذلك الاجتماع لحظة على حد قول الشاعر المجنون :

فيا ليلى ، كم من حاجة لى مهمة
اذا جئتكم فى الليل لا أدرى ما هيا
ثم اتبعت العباسة لما يهددها من الخطر ، فافتتحت الحديث .

وغلب عليها الدلال ، فبدأت بالعتاب وهو فاتحة حديث المحبين
أو هو حجة يتطرقون بها الى التشاكي ، وما التشاكي الا جلاء
القلوب بالاحتكاك ، فيزداد تجاذبها وتذكو نيران الغرام فيها .
فقلت : « لم يرق لجعفر أن يجيب طلب العباسة الا الآن ! »

فأجابها وهو ينظر اليها نظرة المحب الولهان : « أن طلب
العباسة أمر لا مرد له .. ولكن الظروف قضت بابطائي خوفا من
أعين الرقباء .. وقد جئت بك بقارب على دجلة وبعثت غلامى بالجواد
لأعود عليه »

فأدركت السبب فى عدم رؤيتها اياه من الشرفة ساعة مجيئه .
فجلست على وسادة من الحرير المطرز ، وهى ممسكة يده تدعوه
الى الجلوس بجانبها .. فأحس ببرودة تلك اليد وارتعاشها ،
وجلس على وسادة أخرى بجانبها وهو يحاذر أن يتحول نظره عن
نظرها ، ولبث ينتظر ما يبدو منها . فإذا هى تقول وصوتها
يرتجف : « الى متى هذا الحذر يا جعفر ؟ .. قد آن لنا أن نعيش
أو نموت »

فظنها تعرض بما يخشيانه من أمر الرشيد ، فتنهد وقال : « ان
الأقدار حكمت علينا بهذه المخاوف لأنها جعلت بينى وبينك
حجابا من شرف النسب ، فجعلتك من سادة بنى هاشم وجعلتنى
من الموالى »

فقلت وهى تنظر اليه عاتبة : « انه حجاب من الوهم الباطل

فأنت أسمى نفساً من السادة ، وأرفع في عيني من كل بنى هاشم
ولكن .. » وسكتت

فقال : « لقد دعوتني على عجل فجئت .. فهل حدث شيء
جديد ؟ »

قالت وقد ذهبت دهشة اللقاء ، وعادت اليها مخاوفها ، وأسرعت
الدموع الى مآقيها : « نعم .. فينبغي أن نموت أو نعيش ، اذ
لا طاقة لي بما تقاسيه من الخوف »

فأجفل وقال : « ما الذي حدث مما نخافه الى هذا الحد ..؟
أما الموت فاني أرحب به في سبيل راحتك »

قالت وصوتها يرتجف : « لقد انكشف أمرنا ، ولا يلبث أن
يطلع أخى على سرنا » واختنق صوتها

قال وقد بثفت : « وأى سر ..؟ ومن اطلع عليه ..؟ وكيف ..؟
ومتى ؟ »

قالت : « قد انكشف سرنا بالأمس وأنا في دار فنحاس مع
ولدينا أقبلهما وأشبع شوقى لرؤيتهما .. »

قال : « ومن اطلع عليه ..؟ من تجرأ على ذلك ؟ »

قالت : « أبو العتاهية اللعين .. »

فأجفل وصاح : « أبو العتاهية ؟ يجب أن يقتل حالا »

قالت : « وقد أردت قتله ، فبعثت شزيمة من الجند للقبض

عليه في صباح هذا اليوم ، وهو لا يزال في تلك الدار ، فتمكن من الفرار »

قال : « وكيف يفر من أيدي الجند ؟ .. تبا لهم »

قالت : « انما نجاه عدوك الخبيث »

قال : « وأى أعدائي تعنين ؟ .. فانهم كثيرون ! »

قالت : « صدقت .. انهم كثيرون ، ولكننى أعنى أشدهم حسدا لك وأكثرهم سعيا في أذاك ووشاية بك .. ألم تعلم من هو ؟ .. »

قال : « أظنك تعنين الفضل بن الربيع ؟ »

قالت : « اياه أعنى » وأجهشت بالبكاء

فحمى غضب جعفر لبكائها ، وكاد يمزق ثوبه غضبا وكيدا ، وقال : « الفضل بن الربيع قبحه الله من وغد زعيم .. ألم يخف من سطوتى ؟ ألم يرهب حد سيفى ؟ .. ما الذى جرأه على هذه الوقاحة ؟ »

قالت : « جرأه انه مقرب من محمد بن زبيدة ، وأنت تعلم نفوذ كلمتها عند أخى .. واتفق وجوده في دار الرقيق لابتضاع بعض الجوارى المغنيات لذلك الغلام الخليع ، وبينما هو خارج رأى جنودنا يهيمون بالقبض على أبى العتاهية فاستنجد به ، وقد رآته جاريتى عتبة يشير إليه بعينه كأنه يعده بكشف سر يهمة ، فأنقذه واستعان على ذلك برجاله وهدد رجالنا ، فتركوا أبا

العتاهية وعادوا فقصوا على الخبر فكدت أتقد بشيبي ، ولم أعد أدري ماذا أعمل .. فأشارت على تلك الجارية الأمانة أن أطلعك على الواقع ، وذهبت هي اليك بتلك البطاقة وأنت تلعب بالكرة والصولجان ، فعهدت بها الى غلامك حمدان الذي تعودت انفاذه الي ، وهو أوصلها اليك .. وقد قضيت في انتظارك ساعات هي أطول على من الدهر حتى جئت الآن .. وهذا هو ما أردت أن أخبرك به ، فما رأيك ؟.. لقد أصبحت لا آمن البقاء هنا ساعة ، ويخيل الي أن أحجار بغداد ، ومياه دجلة ، تعلم بسرّي .. وكأن خدمي وجواري جند بهمون بالقبض على .. ولو كان الخطر على وحدي لهان مصابي ، لكنني أخاف عليك من غضب أخى وشدة بطشه . قالت ذلك وأخرجت منديلها تمسح به عينيها وقد استغرقت في البكاء ..

وكان جعفر يسمع حديثها ، وعيناه شاخصتان اليها ، وقلبه يخفق بشدة ولحيته ترقص غضبا . فلما فرغت من كلامها هاجت عواطفه وحمى غضبه فلم يتمالك أن وقف بغتة وقال : « لا تخافي يا حبيبتى ، انهم لن ينالوا منك شعرة قبل أن تزهق أرواحهم جميعا »

فأمسكت بطرف ردائه وأجلسته ، وهي تقول له : « لا تجعل للغضب عليك سلطانا ، فان الأمر يحتاج الى التأني والتبصر ، لأن عدوك الخليفة أمير المؤمنين ، وبنو هاشم وسائر العرب

وأحزابهم وأجنادهم ، ولك حساد يتوقعون منك كبوة يجعلونها حجة .. لذلك أخشى اذا أخذت الأمر عنوة أن تعرض نفسك للخطر »

- ١٩ -

الرأى الصواب

فابتسم جعفر والغضب ظاهر على شفثيه وفي عينيه وقال :
« لا تظنى أن محبك يرسل الكلام جزافا ، فانى قد أعددت العدة لكل احتمال .. ان من أشرت اليهم من سادة بنى هاشم وسائر رجال الدولة ليس منهم مع الرشيد أحد لأنى غمرتهم بالعطايا وملكتهم بالاحسان. وأنا لم أكثر الجوائز عبثا ولا بالغت فى الكرم والسخاء اعتباطا ، ولكننى جعلت ذلك ثمنا لما أرجوه فى مثل هذا المشكل وأعظم منه . وأما الجند فالقواد الفرس كلهم ناقدون على أخيك لمبالغته فى مطاردة العلويين ، وعندى فى خراسان ألوف من صناديد الرجال يأتمرون بأمرى .. وكلهم ناقدون على بنى العباس منذ فتك جدك أبوجعفر المنصور بقائده ومؤسس دولته أبى مسلم الخراسانى .. اعذرينى اذا صرحت لك بذلك ، وان كنت لم أصرح به لأحد سواك بعد ، ولا يغضبك أن تسمى ما سمعته عن جدك وأخيك .. وانما دفعنى الى التصريح بذلك ، ما رأيته من تخوفك .. »

فلما سمعت مشروعه اعظمت الاقدام عليه وأطرقت ولم يتجيب ،
فابتدرها قائلاً : « كأنى بك تتخوفين مما سمعته فاذا كنت تنكرين
على مناهضة الخليفة وهو أخوك فأخبريني ؟ »

فرفعت العباسة نظرها اليه ، وقد بدا الاهتمام واعمال الفكرة
في عينيها وقالت : « انى لا أستحي أن أصرّح لك بما في خاطري
بعد ما سمعته من تصريحك ، فاعلم انه لا يهمنى في هذه الدنيا
أحد سواك وكل عدو لك فهو عدو لى .. لا أستثنى أحدا ..
ولكننى أخشى اقدامك على أمر يمكننا الابتعاد عنه الى أمر آخر
أقل منه خطرا .. اعلم يا حبيبى انى لا مطمع لى في هذه الدنيا
ألا أن أكون بجانبك هنا ومعنا ولدانا وثمره قلوبنا (وبلعت
ريقها تجنباً للبكاء) ولا يهمنى أن يكون ذلك الاجتماع فى قصر ،
أو كوخ .. فقد سئمت نفسى القصور وما يحفّ بها من أسباب
المخاوف .. فأبحث عن سبيل تنجو به من هذه المدينة الى مكان
لا نخشى فيه بأسا ، ودعنا من الوزارة والخلافة والسلطة فانها
محفوفة بالمكاره ، والمرء مهما طال عمره أو اتسع سلطانه لا يبقى
له مما يملكه الا قيد باع يوارونه فيه .. » وأخذت فى البكاء
ويداها بالمنديل على عيناها

فلما سمع كلامها ، ورآها تبكى على هذه الصورة ، كاد يبكى
معه ، ثم تجلد ، ولكنه تأثر مما ذكرته عن ولديهما فأطرق وهو
يزيح القلنسوة عن جبينه .. ثم تشاغل بالقبض على لحيته ، وأعمل

فكرته فيما قد يجره اليه تسرعه باظهار العدوان ، ورجع الى صوابه ورأى قولها أقرب الى السلامة ، فقال لها وهو يرد يديها عن عينيها : « لا تبكى يا حبيبتى ، انى فاعل ما تريدن .. صدقت ان التؤدة أولى بأهل الحزم .. وها أنا ذا أعرض عليك رأيا أظن انك ستوافقيننى عليه .. »

فابتسمت والدمع لا يزال فى مآقيها ، وقد ذبلت عيناها من البكاء وتكسرت أهدابها ، ونظرت اليه ولسان حالها يستفهم عما يريد . فابتسم هو وقال : « ان خوفك من بلوغ الخبر الى أخيك بعيد ، اذ ليس بين رجال الدولة — لا الفضل ولا غيره — من يجروء على ذكر اسمك بين يديه ، أو التعريض بما تخافينه، وأنا أعلم الناس بذلك .. فلا خوف علينا من هذا الأمر الا بعد زمن طويل ، ندبر فى أثنائه وسيلة نبتعد بها عن بغداد ونكون فى مأمن .. » فتناولت نحوه وقالت : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « قلت لك ان خراسان معى ، وأهلها طوع ارادنى ، فاذا كنت فيها لا يستطيع أخوك ولا غيره أن يناوئنى .. ناهيك بأحزاب الشيعة العلوية ، فانهم يحاربون الى جانبى حتى آخر نسمة من حياتهم .. أليس كذلك ؟ » قالت : « بلى .. »

قال : « وأنا ساع من زمن بعيد فى التخلص من الوزارة وابدالها بولاية خراسان ، وقد وعدنى أخوك بها .. ولو أردت

الحصول عليها في الغد لأجابني «

قالت العباسة : « أحقا ما تقول ؟.. أخشى أن ينطوى وعده على خداع ، فانه لا يمكن الاطمئنان على وعد مثل هذا من جانبه »
قال جعفر : « لقد وعدني وأكد الوعد .. والوشاة من حسادي يساعدونني على ذلك ليعدونني عن بلاط الخليفة ويتمتعوا بالنفوذ دوني ، ولا أحتاج في تحقيق هذه الأمنية الى أكثر من كلمة واحدة »

فأبرقت أسرتها وظهر البشر في وجهها ، وقالت : « بالله ألا أسرعت في تحقيقها فاني لا أرى لنا خيرا منها .. فاذا كنت أنت في خراسان سرت أنا اليك على عجل ، واستقدمنا ولدينا وعشنا معا في رغد وهناء ، وأنا واثقة من أن الرشيد لا يطمع فينا هناك لأنه يخشى على ملكه »

قال : « اذن كوني مطمئنة ، فان الأمر لا يحتاج الى صبر طويل »

فقالت : « قد شعرت منذ الآن بذهاب القلق لأنني أعتقد كما قلت انهم لا يجرءون على ذكر خبر الطفلين بين يدي أخي لما يعلمونه من غيرته على العرض .. وأنا على يقين انه يقتل كل من عرف انه اطلع على هذا السر .. »

قال : « اذن فأنت مطمئنة لهذا الرأي ؟ »

قالت : « نعم .. ونعم الرأي هو .. آه .. هل تتحقق هذه

الأمنية وولدانا معنا وتكون أنت زوجي على رؤوس الاشهاد ،
كما انى أعتقد انك كذلك ولو كره الحاسدون أو أنكره أخى
علينا ؟ » قالت ذلك وصرعت أسنانها

فقال وهو يتحفز للقيام : « كم أحب أن أبقى هنا ولا أفارقك
ياحييتى ، ولكن لا بد من ذهابى على عجل لأنى جئت خلصة ..
واذ قد صمنا على التستر ، فينبغى لى أن أمضى سريعا حتى
لا ندع سبيلا الى الوشاية »

فأمسكت بيده وأجلسته وهى تقول : « لا.. لاتذهب فانى.. »
وغصت بريقها ..

فقال : « أراك قد عدت الى المخاوف .. لا تخافى فانا سنجتمع
قريبا باذن الله »

فقالت : « لا بد من ذلك لأننا لم نرتكب ذنبا ، وزواجنا
شرعى ، وانما أراد أخى أن يستبد برأيه فمنعنا مما أحله الله . ألم
يكن هو الذى عقد لك على ؟ »

قال وهو يهز رأسه استخفافا : « بلى .. ولكنه لايرى لغيره
حقا فى أن يتمتع بذلك »

ونفض ، فنهضت هى معه .. فأمسك ييدها للوداع ونفسه
لا تطاوعه عليه ، فوقف هنيهة وهو ينظر اليها وهى تنظر اليه ،
والعيون تتفاهم بما تعجز الألسنة عن مثله .. ثم أصلح قلنسوته
بيده الأخرى ومشى وهى تسير معه حتى وصل الى الباب ..

فلبس نعاله ، وودعها وهو يضغط على يدها ، ويقول : « امكثي مطمئنة حتى يأتيك منى رسول الخير »

فأجابته ونفسها لا تطاوعها على اطلاق يده : « سر ياسيدى فى حراسة الله ، وفقك الله الى ما تريد »

فتراجع وهو ينظر اليها نظرة عتاب وقال : « لا تقولى ياسيدى ، فانما أنا مولاك ، وأنت سيدتى بمقتضى شرعهم وعرفهم.. أين أنا من أخت أمير المؤمنين ؟ »

فلما قال ذلك ، جذبت يدها من يده ، ونظرت اليه شزرا ، وقالت بلحن الدلال والعتاب : « دعنا من شرعهم وعرفهم ، فانك سيدى بشرع الله وعرف المنصفين »

فضحك وأسرع الى يدها فأمسكها وهو يقول : « أستودعك الله حتى نلتقى ، وأرجو أن يكون لقاءنا أبديا لا فراق بعده .. والأفضل على ما أرى أن أكف عن زيارتك فى هذه الأيام ريثما أدبّر الحيلة للاجتماع معا فى مكان أمين .. »

فقالت : « يشق علىَّ بُعدك عنى .. ولكننى أتحمله طمعا فيما ذكرت »

ثم صفت تصفيقا تعودت أن تعنى به عتبة ، فجاءت مسرعة .. فقالت لها : « امشى بين يدى مولاك حتى يخرج من القصر ولا يشعر به أحد »

فأشارت اشارة الطاعة ومشت بين يديه فى الدهليز ، وقد

أطفئت شموعه ، وسار هو في أثرها حتى خرج من القصر ووصل الى مكان ترك فيه جواده مع غلامه حمدان .. فركب وسار الى منزله

أما العباسة فلما خلت الى نفسها مكثت حينا وهي واقفة تسمع وقع خطوات جعفر حتى توارى وانقطع صوت وقعها ، فعادت الى هواجسها وأحست باحتياجها الى عتبة .. فلما عادت ، قصت عليها بعض ما دار بينها وبين جعفر وأسرت اليها بما يرمى اليه ، فوافقتها على ذلك الرأي .. ثم ذهبت العباسة الى فراشها

- ٢٠ -

قصر الأمين

أما الفضل بن الربيع فقد تركناه عائدا بحاشيته من دار الرقيق ومعه أبو العتاهية ، وكان أبو العتاهية قد امتلأ غيظا من عتبة وسيدتها . ولو لم تتعمد أذاه على هذه الصورة ، فلربما قام في نفسه ما يوبخه على افشاء ذلك السر يرغم ما يطمع فيه من الكسب المالى بافشائه .. اذ قد تأخذه الشفقة على الغلامين أو الحياء من العباسة أو الخوف من جعفر أو الرشيد ، أو ربما توقف عن الافشاء حينا من الزمن ريثما يجد سبيلا يتقدم به الى الفضل أو غيره باعلان ذلك السر اليه . ولكن تلك الاساءة كانت مسوغا

له على الافشاء ، وقد مهد السبيل اليه وجود ابن الربيع واطلاعه على تلك المعاملة . فلما ركب الفضل ورجاله أمر لأبى العتاهية بدائة يركبها ، وقد تآقت نفسه لاستطلاع السر فيما حدث .. فركب أبو العتاهية وهو أكثر ميلا منه الى اطلاعه عليه

سار الركب على خيولهم الى قصر الأمين مباشرة ، فلم يكن لهم بد من المروز على جسر بغداد ، فبعد أن تجاوزوا شارع دار الرقيق مرثوا بالميدان من شماله ، ورأوا أهل الدولة يتوافدون لحضور لعب الكرة والصولجان ، فتحولوا من وراء الاصطبل في الشارع المؤدى الى الجسر ، وكانت الشمس قد تكبدت السماء وتزاحمت الأقدام على ذلك الجسر ، وهو مصنوع من السفن متحاذية متلاصقة ، وقد شدت جوانبها بعضا الى بعض بأمراس أو سلاسل من حديد ، وألقيت فوقها ألواح الخشب يمر فوقها الناس والدواب ، وعلم الفضل ان الجسر لا يخلو من حرس سرى يرقب حركات المارين من أهل الدولة ، والناس يومئذ يتجسس بعضهم على بعض من كل سبيل . فقبل مغادرته دار الرقيق تلثم ، وتلثم بعض الخاصة من أتباعه ، فمروا على الجسر شمالا الى الرصافة ونزلوا من هناك نحو الجنوب الشرقى الى المخرم ، وجعلوا أكثر طريقهم قرب الشاطئ حتى أتوا القصر . وكان الغرض من تبكير الفضل الى دار الرقيق في ذلك الصباح التعجيل في تلك المهمة ، والرجوع الى الأمين حوالى

الضحى حتى لا يفوته الصبح .. وكان الأمين قد وعد نفسه
بسماع غناء الجوارى البيض فى ذلك اليوم . والفضل وعده بذلك
حرصا على رضاه وتقربا اليه بكل ما يسره ، لعلمه انه ولى العهد
وهو لا يرجو لنفسه سبيلا لقهر البرامكة الا به ، لأن الأمين يكره
الفرس لأنهم من غير العرب .. ويكره البرامكة على الخصوص ،
وجعفر الوزير على الأخص ، لأنه ساعد أخاه المأمون على ولاية
العهد رغم أن أمه جارية ، وأم الأمين هاشمية ، هى زبيدة الشهيرة
فالفضل لم يكن يرى فى نفسه القدرة على سبق البرامكة فى
ادارة شئون الدولة أو سياسة الأعمال وتسهيل استيفاء الخراج .
وارضاء الرشيد ، فسلم الرشيد مقاليد الدولة الى جعفر وأطلق
يده فيها ، فعمد الفضل الى الحيلة وهو ذو دهاء وصبر ، فرأى
الأمين يكره الفرس للأسباب التى قدمناها فانحاز اليه ، وجعل
يتقرب اليه بكل وسيلة يرضاها وان لم يكن من شأنه قضاؤها ،
حتى مسألة الجوارى ، فقد كان الفضل فى غنى عن الذهاب بنفسه
الى دار الرقيق ، ولكنه أراد أن يبرهن للأمين انه يحبه ويتفانى
فى خدمته .. على ان انشغاله بمشاهدة أنواع الرقيق ، ثم ما عاقه
من أمر أبى العتاهية والقبض عليه أخيرا عن الوقت المعين ،
فوصل الى القصر وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة ، ومع ذلك
فقد رأى أن يطلع على سر أبى العتاهية قبل الدخول على الأمين .
وان كان مزاجه لا يبعثه على التسرع فى الاستطلاع لأنه كما

قدمنا من أهل المزاج الصفراوي الذين يصبرون على الأمور ولا يقلقون من موعد أو يتعجلون في استطلاع سر ، بخلاف أهل المزاج العصبي فانك إذا وعدت أحدهم بسر تطلعه عليه أو خبر تلقيه اليه ، لا يبرح في قلق واضطراب حتى يبلغ ذلك الوعد . ولذلك فأهل هذا المزاج لا يصلحون للدهاء السياسي أو الاقدام على المشروعات الشاقة التي تفتقر الى سعى وكظم ومطاوله

فالفضل بن الربيع لم يكن يتعجل في استطلاع السر رغبة في سرعة الاطلاع ، ولكنه توسم من وراء ذلك سببا يساعده على تحقيق غرضه .. فلما أطل على قصر الأمير ، أمر رجاله أن يتحولوا بأفراسهم الى أماكنهم حتى خلا بأبى العتاهية ، فترجلا في شارع عريض تظله الأشجار الملفة من الجانبين ينتهى بساحة كبيرة في صدرها باب القصر .. وما هو باب القصر في الحقيقة وإنما هو باب الحديقة ، والقصر في أحد جوانبها من جهة دجلة له سور خاص به . وكانت عاداتهم في بناء هذه القصور أن يجعلوا أسوارها الخارجية متينة عالية أشبه بأسوار الحصون ، وربما جعلوا في أعلى السور مرامي للنبال أو نوافذ لحجارة المجانيق لما كانوا يتوقعونه من تقلب الأحوال وانتقال السلطة من حزب الى حزب . وباب الحديقة كبير متين يقفل ويوصد حتى لا يستطيع فتحه الا بقوة الرجال . وكان الحرس لا يبرحون المكان وقوفا ، والباب مقفل .. فاذا قدم أحد فتحوه له . فاذا كان فارسا ترجل خارجا وترك دابته وسائسها

أو خادمه يرعاها أو يذهب بها الى الاسطبل بجانب ذلك السور، وفيه المرباط تشد اليها الدواب .. وهى كثيرة وخاصة بباب ولى العهد . والناس يومئذ يتزلفون اليه ويكثرون من التردد عليه تمهيدا لما يرجونه من نفوذ الكلمة عنده بعد أن تسند أمور الدولة اليه

فلما ترجل الفضل وأبو العتاهية تنحيا الى جانب الطريق ، وأخذ الفضل يستطلع الخبر وأبو العتاهية يقصه عليه والفضل مستغرب حتى شك فى صدقه ، ولكنه ما أن جاء أبوالعتاهية على آخر الحديث حتى ترجحت صحته عنده ولكنه أعظمه ، ولبت مطرقا لا يحير جوابا ثم نظر الى أبى العتاهية وأراد أن يغالطه فقال : « احذر أن تكون قد اختلقت هذا الخبر فانى لا أصدقه ، وربما كنت مخدوعا فيه لأن مولاتنا العباسية من أبعد الناس عن مثل هذه الشبهة ، فاحذر أن تذكر ذلك لأحد لئلا تقع فى شر أعمالك » فأدرك أبو العتاهية غرض الفضل من هذه المغالطة ، فقال له : « انى أجلّ مولاتنا عن هذا ، ولكننى قصصت ما رأيته .. ولم أكن لأبوح به لك لو لم يحدث ما تمّ من نجاتى على يدك ، ولا أدرى مع ذلك اذا كانت عيناى قد خدعتانى ، فانهما كثيرا ما تخدعان البصير فيقع فى حفرة لا يقع فيها الأعمى .. » وهز كتفيه وهو مطرق كأنه يقول : « وماذا يعينى من ذلك كله ؟ .. »

- ٢١ -

جعفر بن الهادي

ولم يكن الفضل يجهل استماتة أبي العتاهية في سبيل المال ،
ولم يشك مطلقا في انه لم ينقل ذلك الخبر الا وهو يتوقع جائزة
كبيرة ، فأحب استرضاءه لعله يحتاج اليه في مثل هذه المهمة مرة
أخرى ، فمد يده الى جيبه وأخرج صرّة دفعها اليه وهو يقول :
« انك شاعر ، وقد تعود الشعراء أن لا يقولوا قولا الا أجازوا
عليه وان لم يكن شعرا .. فخذ هذه الجائزة الصغيرة وستنال
أضعافها من مولانا الأمين ، فانه سيأخذ الطرب لنجاحنا في ابتياع
الجواري البيض فلا يبالى من أجاز ، وسأخبره بأنك كنت لنا عوناً
في الحصول عليهن .. » قال ذلك وضحك ضحكة لها صوت وليس
لها شكل كأنه يتضحك ، وجعل يده على كتف أبي العتاهية وهو
يقول : « بارك الله فيك ! » ومشى فأحس أبو العتاهية انه يريد
الذهاب وحده ، فودعه وقبل يده ثم تحول .. فقال له الفضل :
« احذر أن تمضى الى مكان يعرفه ذلك الوزير فانهم يقبضون
عليك ويؤذونك ، والأفضل أن تمكث في هذا القصر مع بعض
رجالي ، أو اذهب الى منزلي أقم هناك وأنت في مأمن .. وعلى
كل حال لا تبعد عني كثيرا » فطأ رأسه وتحول
أما الفضل فانه مشى وقد أزاح اللثام عن وجهه لأنه أصبح

في أمان حتى أقبل على الساحة المجاورة للحديقة ، فرأى الباب مفتوحا على مصراعيه والحرس مشغولون في حديث مع جماعة من الغرباء عرف الفضل من مجمل حالهم انهم من أهل البصرة ، وأكثرهم من الخدم أو السياس.. بعضهم يتحدثون ، والبعض الآخر يقومون برعاية الخيول .. يربطونها أو يعلقونها أو يصلحون شئونها . فما لبث أن أرسل نظره الى داخل الحديقة حتى علم انهم رجال جعفر بن موسى الهادي ، لأنه شاهده يتمشى مع الأمين في أحد جوانب البستان .. أما الفضل فلم يكد يقترب من الباب حتى عرفه الحراس ، فتسابقوا الى خدمته

وجعفر بن موسى هو ابن الخليفة موسى الهادي أخى الرشيد ، وكان الهادي قد تولى الخلافة قبل أخيه الرشيد ، ولم تطل مدته في الخلافة لأسباب سيأتى بيانها . وكان أبوهما المهدي قد أوصى بولاية العهد لولديه موسى الهادي وهارون الرشيد ، على أن يتولى الهادي أولا وبعده الرشيد . فلما توفي المهدي عام ١٦٩هـ خلفه الهادي فحدثته نفسه أن يخلع أخاه الرشيد ويباع لابنه جعفر هذا ليبقى الحكم في أعقابه .. فأعلن رأيه لخاصته ، فوافقوه وخلعوا الرشيد وبايعوا لجعفر . ولم يسع الرشيد الا القبول لعجزه عن المقاومة ورجال الدولة كلهم مع الخليفة .. وقد سايروه جميعا الا يحيى بن خالد البرمكى فإنه جاء الى الرشيد وشدد قلبه وضمن له الخلافة ، وعرض حياته للخطر رغبة في استبقاء

ولاية العهد للرشيد ، وخلع جعفر بن الهادي منها . فغضب عليه الهادي وحبسه وهدده بالقتل .. ولكن البرمكى استطاع بدهائه وقوة حجته من اقناعه أن يقر أخاه الرشيد في الولاية ريثما يكبر جعفر فيخلع الرشيد ويبيع لجعفر ، ولم تمض مدة على هذا القرار حتى مرض الهادي ومات بغتة ولم يحكم الا سنة وثلاثة أشهر . وشاع يومئذ ان أمه الخيزران عجلت بموته انتقاما منه لأنه أحب أن يغل يديها عن التصرف في شئون الدولة ، وغيره على أخيه الرشيد . وذهب يحيى البرمكى في الليل الى الرشيد وبشره بالخلافة وأقره عليها .. ولذلك حفظ الرشيد له هذا الجميل ، فأطلق يديه في أمور الدولة . ولم يكن يقدم على أمر عظيم الا بمشورته .. وجعل ولده جعفر وزيرا ، أباح له التصرف في كل شيء كما قد علمت ..

وكان جعفر بن الهادي عند وفاة أبيه صغير السن ، فلم يعمل شيئا .. ولم يسعه الا السكوت ، وفي نفسه من يحيى وأولاده حزازات ، وهو يعتقد أن الرشيد اغتصب الخلافة اغتصابا وانه تواطأ هو ويحيى والخيزران على قتل أبيه .. وكنتم ذلك في نفسه أعواما ، وكان يقيم في البصرة وقد أقطعه الرشيد أرضا واسعة وخصص له الرواتب الكبيرة مثل سائر بنى هاشم . فقد كانت السياسة تقضى في ذلك العصر بالاعتماد على الكرم في توقي الشرور ، فالخليفة اذا تسنم ذروة الخلافة علم ان الأبصار موجهة

اليه ، وان أكثر الناس حسدا له وغيرة منه هم أهله ، فاذا كان حكيما وسّع لهم أسباب الرزق وأكثر من اكرامهم وسهل عليهم وسائل الترف والقصف ، لعلمه انها تشغلهم عن الاهتمام بالخلافة وتضعف من عزائمهم عن النهوض اذا دعوا اليها . ولذلك كان بنو هاشم منذ عهد الرشيد وما يليه من أكثر الناس انغماسا في الترف والقصف ، لا شاغل لهم الا اقتناء المغنين ، والتمتع بالماكل والمشرب في الحدائق والبساتين ، واقتناء الجوارى على اختلاف الطبقات للغناء والتسلية والخدمة . وأكثر ما يكون مقامهم في قصورهم بالبصرة ، ولا يأتون الى بغداد الا لقبض مرتباتهم أو لابتياح الجوارى أو بعض الآنية ونحوها ، لكن الغالب أن يرسل الرشيد رواتبهم اليهم وهم قعود في قصورهم

وكان جعفر بن الهادي أحد الهاشميين أصحاب الرواتب الكبيرة . وكان مقيما في البصرة .. ولكن الترف والقصف لم يشغلاه عما في قلبه من النقمة على عمه الرشيد ، أو على يحيى البرمكى وأولاده ، وقد زاده نفوذ جعفر البرمكى في مصالح الدولة حسدا ونقمة . وكان مع ذلك يعلل نفسه برجوع الخلافة اليه بعد وفاة الرشيد ، فلما رآه بايع لابنيه الأمين والمأمون بعده تحقق من فشله ، وعزم على الانتقام .. ولاسبيل له اليه وليس من يناصره عليه ، حتى اذا ظفر بالفضل بن الربيع تكاشفا وهما متفقان على كراهية جعفر البرمكى وعدم الرضا عن الهيئة الحاكمة .. فجعلوا

يعملان على قلب تلك الحكومة ، ويتواعدان على التعاون .. وكان همّ ابن الهادي في الدرجة الأولى ، أن يسقط جعفر البرمكي من الوزارة .. فاذا سقط سقطت ولاية العهد عن المأمون ، لأنه هو الذي دبرها له .. فلا يبقى بينه وبين الخلافة الا الأمين وهو يعلم مدى ضعفه وتهتكه ، فتقرب منه وعوّل على تحقيق بغيته عن طريق السياسة التي اتخذها الرشيد في استبقاء الخلافة له ، وذلك بتهيئة أسباب البذخ والترف لبنى هاشم وانشغالهم بالجوارى والغناء عن طلبها ..

فلما رأى ابن الهادي ميل محمد الأمين الى الترف والقصف ، لم يحاول أن ينصحه بالعدول عنهما ، وإنما جعل يسهل له أسبابهما ويساعده في طلبهما ، ولو اضطره ذلك الى اظهار الخلاعة أو التمهك في بعض الأحيان ، والأمين غافل عن ذلك لاه عمن يحدق به من أهل الدسائس وأرباب المطامع . وكان ابن الهادي قد جاء الى بغداد منذ بضعة أيام وهو يتظاهر انه جاء ليتسلم راتبه ، ونزل على الأمين فأخلى له قصرا خاصا بجانب قصره يقيم فيه بحاشيته وأعوانه ويقضيان معظم النهار معا في اللهو والقصف من الصباح الى المساء .. وكان هو الذي نبّه الأمين الى اقتناء الجوارى البيض المغنيات ، وحرّض الفضل بن الربيع على المبادرة الى ابتياعهن منذ الفجر ، على أن يعود بهن قبل انقضاء وقت الصبوح فيتمتعون بالراح على رخيم أصواتهن

- ٢٢ -

محمد الأمين

فلما أبطل الفضل قلق الأمين فأنصرف الى شرفة في قصره تطل على دجلة ، وجلس وعيناه شائعتان لعله يرى الفضل عائدا في الزورق.. فلما انقضى وقت الظهيرة ولم يعد، ملَّ الأمين الانتظار، فخرج الى الحديقة ومعه ابن عمه جعفر بن الهادي يتفرجان على ما فيها من الأقفاص الكبيرة كأنها البيوت ، وفيها أصناف الطير الملون المستورد من بلاد الهند وأواسط افريقيا ، والأقفاص المتينة المصنوعة من شبك الحديد الغليظ ، في بعضها أسود وفي البعض الآخر فيلة أو نمور .. ولما فرغا من التفرج والفضل لم يأت ، أمر الأمين صاحب كباش المناطحة أن يأتى بها للمناطحة بين يديه ، ومضى الى مجلس في وسط الحديقة يظله عريش عال .. وبينما هو يهم بالدخول اليه مع ابن عمه اذ جاءه أحد الخدم وأخبره أن الفضل قادم ، فأمر باستقدامه الى العريش وهو يظن ان الجوارى معه

أما الفضل فانه دخل البستان ماشيا ، وقد شاهد الأمين وابن عمه يتحولان الى العريش وهما بملابس المنادمة . والبستان ينقسم الى مغارس بينها طرقات مفروشة بالحصباء الملونة ، يتخللها أغراس من الأشجار المتنوعة ذات المناظر الجميلة ، ومنها

المولد في بغداد والمستورد من بلاد الهند وخراسان وتركبستان ،
وما بين ذلك من أصناف الرياحين وأزهارها البديعة الألوان ،
وكلها في مغارسها على أحسن نظام يتعهدا البستاني بالمقراض
يقلد بها أشكال الحيوانات ، فيجعل بعضها بشكل الطاووس أو
غيره من الطيور الجميلة ، والبعض الآخر بشكل الحيتان أو بعض
الوحوش الكاسرة كالأسد والنمر .. فيمر الرجل وحوله الأشجار
والأزهار والأعشاب من كل صنف ولون ورائحة ، وهو يخسب
بعضها أسودا رابضة أو طيورا دارجة مما يسحر الألباب . وبين
تلك المغارس أحواض يصل إليها الماء من قنوات مستترة ، وفيها
من الأسماك أجملها لونا وألطفها شكلا ، يتعهدا البستاني بفتات
الخبز أو بقايا الطعام مما يكثر في مطابخ الأمراء في أيام الرغد
والرخاء . ناهيك بما رسموه في طرق الحديقة من أشكال الكائنات
الحية وغير الحية بترصيف الحصى على اختلاف ألوانها ، فيصورون
بذلك زهورا بألوانها وأسودا أو فيلة بأشكالها على نحو ما يفعلون
بالنفسساء . وكانوا يحضرون لكل من هذه الفنون صنعا من
الفرس أو الروم أو الهند ممن أتقنوا طرق الزراعة وتفننوا في
أساليب التنسيق

على أن روائح الأزهار العطرية في ذلك البستان لم تكن شيئا
يذكر ازاء ما تضيع من ملابس ولي العهد من رائحة الطيب ،
ولا سيما المسك ، وكانت عاداتهم اذا غزموا على مجلس شراب أو

غناء أن يخلعوا ثوبهم الرسمي ويلبسوا ثوبا ملونا باللون الأحمر
أو الأصفر أو الأخضر يسمونه ثوب المنادمة . وهو في الغالب
غلالة رقيقة وملاءة مصقولة ، وكان الأمين يومئذ لابسا غلالة
حمراء فوقها ملاءة صفراء مصقولة صقلا شديدا حتى تكاد تقوم
قياما من شدة الصقل . وجعل على رأسه بدل العمامة أو القلنسوة
اكليلا من ريحان وأزهار، ضفره له البستانى بصورة جميلة حتى
أصبح يشبه القلنسوة ، وزين قدميه بخفين سنديين .. وكان
رفيقه ابن الهادي في مثل ذلك ، ولكن ملأته كانت خضراء وعلى
رأسه طاقية حولها عمامة صغيرة من الوشى الثمين . وقد سوى
شعره على عادة شبان بغداد في ذلك العصر ، أى انه حلقه على
جبينه ، وقصرته دون جبهته ، وسواءه مع حاجبيه ، ودوَّره الى
أذنيه وأسدله الى صدغيه (١)

وكان الأمين ورفيقه قد جلسا في العرش ينتظران مجيء صاحب
الكباش ، والأمين أكثر رغبة في مقابلة الفضل اذا كانت الجوارى
معه .. واذا هو يسمع وقع خطواته على الحصى بقرب العرش ،
فصاح فيه : « ما وراءك يا فضل ؟ »

فأجاب وهو داخل : « ما ورائى الا الخير يامولاي »

قال : « وأين الجارية أو الجوارى المغنيات ؟ »

قال : « هن آتيات عن قريب .. » ولما أطل الفضل على

(١) نفع الطيب - الجزء الثانى

الأمين ورأى ملابسه وحاله ابتسم رغم ارادته ، فابتدره الأمين قائلاً : « كيف ترانى بهذا الاكليل وهذه الثياب ؟ »
 قال : « أرى انك ملاك فى صورة انسان » وكان الأمين يومئذ فى السابعة عشرة من عمره وقد نبت عارضاه وظهر عذاره ، وتجلى ماء الشبيبة فى محياه ، وهو جميل الصورة ، طويل القامة ، أبيض اللون ، صغير العينين ، أقنى الأنف ، سبط الشعر ، وقد انحسر شعره عن جانبي جبهته (١) ، وكان قوى العضل حتى يلقي الأسد فلا يبالى به (٢) ، وفيه بطش وشجاعة وفصاحة وأدب وبلاغة .. فاذا لقيه الرجل تهيب من منظره وأحبه ، ولكنه كان سئء الراى كثير التبذير أرعن (٣) جعل همه اللهو والقصف باقتناء الجوارى والعلمان ، ولعله سيق الى الافراط فى ذلك بما أراده أهل الأغراض من تضييع الملك على يده أو رغبة منهم فى استرضائه التماسا لسخائه . أما ابن الهادى فكان رقيق البدن جميل الصورة ، قصير القامة ، خفيف العارضين ، حاد العينين ، وكان أكبر من الأمين سنا وأحسن منه رأيا ، وانما سايره فى قصفه ولهوه لغرض فى نفسه

ولما دخل الفضل صاح فيه الأمين : « عليك بشباب المنادمة ، واخلع هذا الثوب فان ابطاءك الى هذه الساعة لاينبغى أن يفسد علينا ما دبرناه من وسائل السرور ، وان كان الصبح قد انقضى

(١) أبو الفداء - الجزء الثانى (٢) المسعودى - الجزء الثانى
 (٣) فوات الوفيات - الجزء الثانى

فَنَقَضَى بَقِيَّةَ النَّهَارِ فِي الطَّرَبِ وَالْأَنَسِ » ثُمَّ صَفَّقَ فَاتَّاهَ غَلَامٌ تَرْكِي
جَمِيلٌ الصُّورَةُ لَمْ يَبْدِ عَذَارُهُ بَعْدَ ، وَعَلَيْهِ دِرَاعَةٌ حُمْرَاءُ اللَّوْنِ
تَمْنَقُ فَوْقَهَا بِمَنْطَقَةٍ عَرِيضَةٍ مِنْ حَرِيرٍ مَوْشَاةٍ بِالْقَصَبِ ، وَأَرْسَلَ
شَعْرَهُ ضَفِيرَةً طَوِيلَةً وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، وَعَلَى رَأْسِهِ شَبَهَ طَاقِيَّةٍ هَرْمِيَّةٍ
الشَّكْلُ مَزْرُكُشَةٍ بِالْقَصَبِ مَنَحْرَفَةٌ إِلَى جَانِبٍ وَاحِدٍ ، فِي قِمَّتِهَا
هَلَالٌ مِنْ فِضَّةٍ أَثْقَلَ رَأْسَهَا ، فَتَدَلَّى .. فَأَصْبَحَ الْغَلَامُ أَشْبَهَ بِالْبَنَاتِ
مِنْهُ بِالْفَتَيَانِ لِفَرْطِ جَمَالِهِ . وَلَوْ سَمِعْتَهُ يَتَكَلَّمُ لَثَبْتَ عِنْدَكَ أَنَّهُ فَتَاةٌ
لِبَعْدِهِ عَنِ خَشَوْنَةِ أَصْوَاتِ الرِّجَالِ لِأَنَّهُ خَصِي . وَكَانَ فِي قَصْرِ
الْأَمِينِ كَثِيرٌ مِنْ أَمْثَالِهِ ، عَنِى بِاحْضَارِهِمْ مِنْ أَقْصَى بِلَادِ التُّرْكِ
وَالْجُرْكَسِ وَجَعَلَهُمْ طَوَائِفَ لَخْدَمَتِهِ وَلِمَجَالِسِ أُنْسِهِ

فَلَمَّا جَاءَ الْغَلَامُ وَقَفَ مُتَأَدِّبًا فَقَالَ لَهُ الْأَمِينُ : « مِنْ تَرَى فِي بَابِنَا
مِنْ الشَّعْرَاءِ ؟ »

فَقَالَ الْغَلَامُ : « الْحَسَنُ بْنُ هَانِيٍّ (أَبُو نَوَاسٍ) وَأَبُو الْعَتَاهِيَّةِ
و .. »

فَقَطَعَ الْأَمِينُ خُطَابَهُ قَائِلًا : « مَا لَنَا وَلِأَبِي الْعَتَاهِيَّةِ وَهُوَ مِنْ
أَهْلِ الزُّهْدِ فَلَا يَنْفَعُنَا زُهْدُهُ فِي مَجْلِسِنَا هَذَا . وَأَمَّا الْحَسَنُ بْنُ
هَانِيٍّ فَإِنَّهُ شَاعِرٌ ظَرِيفٌ » .. قَالَ ذَلِكَ وَضَحَكَ ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى
الْغَلَامِ وَقَالَ : « أَصْرَفَ الشَّعْرَاءُ إِلَّا ابْنَ هَانِيٍّ . وَقَدْ لِي صَاحِبُ
الشَّرَابِ أَنْ يَعِدَ لَنَا مَجْلِسًا كَامِلًا .. »

فَقَالَ الْفَضْلُ : « وَأَبُو الْعَتَاهِيَّةِ لَا بَأْسَ بِهِ يَا مَوْلَايَ فَإِنَّهُ شَاعِرٌ

ظريف ولا يهيك ما يقولون عن زهده «
فصاح بالغلام : « وأبو العتاهية أيضا » . فمضى الخصى لاعداد
ما يلزم

- ٢٣ -

مناطحة الكباش

أما الأمين فاستببطاً صاحب الكباش ، فصفق فجاءه غلام آخر ،
فصاح به : « وأين صاحب الكباش فاني أحب أن يرى ابن عمي
كبشين يتناطحان ، ليس في بغداد كلها ولا في البصرة ولا في
سائر العراق مثلها »

فقال : « انهما معدان للنطاح منذ ساعة ولم يأت بهما الى هنا
ضنا بما في أرض هذا العريش من الفسيفساء ، فان الكباش
تقتلعها بأظلافها في أثناء النطاح ، وهي لا تملك قوتها فوق الحصى
فاذا شاء مولاي أن ينتقل الى موقعها وراء هذا العريش رآها »
قال : « حسنا .. » ونهض فمشى ، ومشى ابن الهادي والفضل
في أثره ، وهما يتغامزان على ما يتشاغل به ولي عهد المسلمين من
الألعاب الصبيانية ، وقد قال كل منهما في نفسه : « كيف يثبت
ملك هذا ولي عهده ؟ أيستطيع من كان في حاله أن يحكم مملكة
أولها في بحر الهند وآخرها على شواطئ بحر الظلمات ، وفيها

من أجناس البشر الكثيرة وضروب الطبائع المتباينة والعادات المختلفة والعناصر المتضادة ما لم يجتمع في مملكة واحدة ؟ ناهيك بالأحزاب السياسية ومطامع أهل النفوذ « على انهما سارا وهو يتقدمهما بملابسه الملونة المصقولة ، وقلنسوته المصنوعة من الأزهار والرياحين حتى وصلوا الى بقعة من البستان مستديرة ، وجدوا في وسطها رجلا كبير اللحية عريضا عليه قلنسوة التجار ، ويظهر من ملامحه انه هندي الجنس وبين يديه كبشان كبيران أبيضان ، وقد نقش عليهما بالألوان صورا وأشكالا ، وعلّق في عنق كل منهما عقدا من العقيق ، وصبغ قرني أحدهما باللون الأخضر ، وقرني الآخر باللون الأحمر .. فلما أقبل الأمين عليه ، وقف الرجل وتقدم لتقيل يده فمنعه وقال : « أيهما كبشى ؟ » فأشار الرجل الى صاحب القرنين الأحمرين وقال : « هذا هو يامولاي »

فقال وهو ينظر الى الفضل : « فالآخر اذن كبشك .. فليتناطحا ومن غلب صاحبه علقنا في عنقه عقدا آخر يشتره له صاحب الكبش المغلوب »

فلم يسع الفضل الا اظهار الامتتان من هذا الانعام وقال : « أرجو أن يغلب كبش مولاي ، واذا غلب كبشى فانه يخجلنى » فضحك الأمين حتى كاد يستلقى على ظهره وقال : « وأنا أطلب الى الله أن لا يغلب كبشك ليس لأنه لك ولكن .. » وضحك

فلم يفهم الفضل قصده والتفت الى ابن الهادى فرآه يتسهم فاستفهم منه بعينه ، فقال وهو يخفض صوته : « لأن اسمه برمك » فأدرك الفضل أن الأمين يتفاهل بذلك ، فاذا غلب الكباش « برمك » فكأنه غلب جعفر البرمكى.. ولم يسم كبشه « جعفرا » توقيرا لابن عمه جعفر بن الهادى . وأخذ الكباشان يتناطحان وراعيهما يعلم رغبة الأمين فى أن يغلب كبشه ، فكان يبذل جهده فى هذا السبيل حتى تم ما أراده الأمين ، وكان كبشه الغالب فضحك وسرَّ وأمر لصاحب الكباش بجائزة ، ثم جاءه الغلام وهو يقول : « ان صاحب الأدياك قادم يامولاي ، فهل تأذن فى أن تشاهد مهارشتها ؟ »

قال : « ارجعه فقد كفانا الآن ما شهدناه من مناطحة الكباش وآن لنا الدخول للمنادمة » .. قال ذلك ، ومشى نحو القصر على الحصباء فى طرق الحديقة . وكان قصر الأمين قائما على شاطئ دجلة الأيسر وله نوافذ ورواشن وشرفات يطل بعضها على النهر. وفى جملتها بهو كبير أشبه بمصطبة واسعة مرصفة بالرخام الملون يظللها سقف عليه نقوش ملونة مذهبة من صنع مصورى الفرس ، أو هى صناعة تجمع بين فنون الفرس والروم . والسقف قائم على أساطين من الرخام محلاة بالذهب ، ولولا سور القصر الخارجى الكبير لكان الجالس على المصطبة يرى السفن فى دجلة مقبلة مدبرة . على انهم جعلوا فى السور بابا يمكن النزول منه الى

الشاطيء على مسناة ترسو عندها الحراقات والزلالات . وكان
للأمين ومع باقتناء السفن والتفنن فى أشكالها وصورها ،
فاصطنعوا له حراقات على هيئة الأسد والفيل والعقاب والحية
والفرس أرسلها فى مياه دجلة ، وقد أنفق فى صنعها مالا كثيرا (١)
وأما من جهة البستان ، فللقصر باب كبير هو باب الأصى يدخل
منه الزوار ، قائم فى جدار على شكل قوس مقعرة نحو نصف
دائرة ، والباب فى منتصف القوس يصعد الىه بضع درجات .
والى جانبى الباب من الخارج مقاعد من الرخام موازية للحائط
فى استدارته ، وقد نقش على أعلا الباب بالخط الكوفى الجميل
« محمد الأمين بن هرون الرشيد » والقصر بجملته محاط بسور
كبير عال ، على عادتهم فى تعلية الأسوار ..

وكان الأمين وهو ماش فى الحديقة يتناثر الخدم والخصيان بين
يديه ويتسارعون فى نقل خبر مجيئه . فلما أقبل على القصر وقف
الحجاب احتراماً له ، وهو لا يبالى ، فصعد الدرجات ودخل الباب
والفضل وجعفر فى أثره .. فمروا فى دهليز ينتهى الى باحة
مستديرة فى صدرها باب يؤدى الى دهليز آخر ينتهى الى دار
النساء ، وهى قصر قائم بنفسه يؤدى من بعض قاعاته الى المصطبة
التي تقدم وصفها . وفى يمين الباحة المستديرة التى ذكرناها باب
يؤدى الى دهليز ينتهى ببيوت كثيرة يقيم فيها الخدم والأعوان

(١) ابن الاثير - الجزء السادس

والعبيد ونحوهم ، والى يسار الباحة باب آخر يؤدى الى دار الضيوف .. وهى غرف كثيرة ومطابخ وموائد كأنها بلد صغير

- ٢٤ -

دار النساء

فلما وصل الأمين الى تلك الباحة ، تقدم كبير الخصيان السود بين يديه فوسع له ستارة من الديباج الموشى معلقة على الباب المؤدى الى دار النساء ، فدخل ومشى فى الدهليز ودعا الفضل وجعفر فتبعاه وخطواتهم لا يسمع لها وقع ، لأنهم سائرون على طنافس كثيفة الوبر من صنع طبرستان . فلما انتهوا من الدهليز الثانى أشرفوا على حديقة فيها الأزهار والرياحين ووراءها دار النساء (الحريم) ، يصعد اليها بست درجات من الرخام الأحمر ، وعلى بابها ستارة ثمينة من الديباج سماوية اللون عليها كتابة يطرز القصب هذا نصها .. وهى من شعر حاتم الطائى :

وما أنا بالساعى بفضل زمامها
لتشرب ماء الحوض قبل الركائب
وما أنا بالطاوى حقيبة رحلها
لأبعثها خفا وأترك صاحبى

إذا كنت ربا للقلوص فلا تدع
رفيقك يمشى خلفها غير راكب
أنخها فأردفه فإن حملتكما
فذاك وإن كان العقاب فعاقب

وهي تشير الى رغبة صاحب هذا المنزل في السخاء . وكان
الأمين كثير السخاء . وكان رئيس الحصيان ماشيا بين أيديهم فلما
أقبلوا على ذلك الباب تقدم ووسع الستارة بيده فدخل الأمين
ورفقاءه الى قاعة كبيرة أشبه شيء بقاعة الاستقبال ، في كل من
جانبيها باب .. يؤدي أحدهما الى مساكن النساء ، والباب الآخر
الى مجالس خاصة هي قاعات لكل قاعة منها فرش خاص بلون
خاص . ولم يكن غرض الأمين الذهاب اليها ، وإنما أراد الخروج
الى المصطبة وراء تلك الدار . وكان الفضل وابن الهادي حالما
دخلا تلك القاعة سمعا ضرب العيذان على غير نظام ، اذ كان
أصحابها يسوونها وهم وراء الجدران ، ولكنها لبثا ينتظران ما
يفعله الأمين . والقاعة المشار اليها مفروشة بالأرمني من الحرير
المزركش وفي جدرانها صور بعض ملوك الفرس والروم على
أفراسهم، وبينها صور بعض حيوانات البر والبحر.. وقد صنّع كثير
من هذه الصور ووشى بالذهب أو بالعاج على ألواح من خشب
الأبنوس ، وعلق بعضها على الجدران بمسامير من الذهب ، وعلى
أبواب القاعة من الداخل ستائر معلقة بمسامير ضخمة من الفضة ،

وفي أرضها بساط واحد ، ربما بلغت مساحته عشرين ذراعا في عشرين ، وحولها مما يلي الجدران وسائد مستديرة من ريش النعام مغطاة بالابريس الموشى .. وفي زواياها مناوور من الفضة توضع فيها الشموع للاضاءة في الليل

فلما وصل الأمين الى هذه القاعة ، وسمع طنطنة العيدان وراءها جلس على سرير من الأبنوس مطعم بالعاج .. كان قائما هناك ، وأشار الى رفيقيه فجلسا .. ثم أوماً الى قيّم الخصيان بإشارة فهمها ، فأحنى رأسه وخرج والفضل في قلق ليعلم هل وصلت قرنفة ورفيقتاها . وابن الهادي ينظر الى الأمين ويتنسم وفي نفسه أمور عظام لو أطلقها وخرجت زفيرا لأحرقت تلك القاعة بما فيها ، ولكنه كان كاظم الغيظ صبورا . ثم ما لبث أن سمعوا ضرب العيدان ضربا كثيرا على توقيع واحد ، ونغم واحد ، وإذا بباب من أبواب القاعة قد فتح وخرج سرب من الجوارى في أيديهن العيدان .. فمررن في القاعة عشرات عشرات يضربن على العيدان ضربا رخيما ، ويغنين بصوت واحد . فاذا فرغ العشر ، انصرفن من الباب الآخر ، وجاءت عشر آخر وفي أيديهن عيدان آخر ، وهن يغنين غناء آخر على نغم آخر ، فلما انصرفن جاء عشر آخر ، وهكذا حتى تمت عشرة أفواج . ولم يكن شيء من ذلك ليدهش الفضل ولا جعفر ، لأنهما شاهدا مثله في دور البرامكة ودار الرشيد . وإنما أدهشهما ما جاء بعد الجوارى من أسراب

العلمان والخصيان وغيرهم وعليهم الملابس الثمينة الباهرة مما لم يسبقه الى مثله أحد في الاسلام على هذه الصورة .. فانه كان يغالى في اقتناء الخصيان ، ويطلبهم من أقاصى البلاد مهما كلفه ذلك من الأموال .. وأسرف في ذلك بعد خلافته ، فحملهم خلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وسماهم الجرادية ، وفرض لهم فرضا خاصا واصطنع أجواقا آخر من العلمان الحبشان سماهم الغرايبة؛ وفرض لهم الأموال . وقد أخذ عليه الناس ذلك ونظموا فيه الأشعار (١) ، أما في أثناء ولاية العهد فكان لا يزال في أول رغبته في هذا الطرب الدخيل

فكان العلمان يدخلون أفواجا وشعورهم مسترسلة جدائل مفردة ومزدوجة ، وفي أيديهم الدفوف أو المزاهر أو العيذان يدقون ويغنون ، والأمين يطرب لكل صوت ويقهقه ولا يطلب شرابا ، لأنه ينوى الشرب في المصطبة

- ٢٥ -

مجلس طرب

فلما مر الجميع أشاروا الى القيم إشارة أخرى .. وأشار الى رفيقيه فنهضا وسارا بين أيديهم ، وقد فتح لهم القيم بابا في

(١) ابن الأثير - الجزء السادس

صدر القاعة خرجوا منه ونزلوا بضع درجات الى دهليز في جانبيه
 أبواب مقفلة تؤدي الى غرف وقاعات عديدة ، وفي نهاية الدهليز
 وصلوا الى المصطبة ، وكأنهم خرجوا من الحباء الى الخلاء فوجدوا
 المكان على سعة قد فرش بالنمارق والطنافس ، وفي صدره فرش
 عالية فوق سرير من الأبنوس المطعم بالذهب لا يرتقى اليه الا
 بكرسى ، وحوله عدة مقاعد ووسائد فوق الطنافس وبجوار
 الأساطين أو الجدران . وقد نصبوا في وسط المصطبة سباطا هو
 بساط من جلد جميل الصنع فوقه ملاءة من الحرير ، وفوق
 البساط مائدة كبيرة الحجم مستديرة الشكل قصيرة : طولها شبر
 وجاءوا بالأباريق البلور أو الفضة وفيها الأشربة والأنبذة وبينها
 الأقداح على اختلاف أشكالها وألوانها ، ويتخلل ذلك أطباق
 الفاكهة واللحوم الباردة ومزاهر الأزهار ونحوها ، وقد فاحت
 رائحة المكان بالطيب العطر.. فصعد الأمين الى سريره وأشار الى
 ابن عمه فجلس ، ثم التفت الى الفضل وقال : « أراك لا تزال
 بثيابك فاخلعها والبس ثياب المنادمة » . فأشار مطيعا .. فصاح :
 « يا غلام .. أحضر ثياب المنادمة »

فجاءوا بثوب معصفر ، وأصرء الأمين الا أن يجعل على رأسه
 اكليلا من الزهر مثله . فأطاع ثم صفق الأمين فدخل القيم فقال :
 « الينا بالمغنيات .. هل أتانا من الجوارى أحد جديد ؟ »

فقال : « كلا يامولاي ، ولكن عندنا من المغنيات غير واحدة

ممن ليس في بغداد أحسن منهم ، حتى ولا في دار أمير المؤمنين ..
فهل آتى بهن ؟ »

قال : « أحضر الوصيفات بالمراوح أولا ، ثم اختر لنا أحسن
المغنيات نستمتع لهن ريثما يأتى أولئك »

فخرج وبعد برهة أقبلت جارية تفتن الناظرين ، يظهر من
ملاحظها أنها كرجية الأصل .. دخلت المصطبة نافرة كأنها الغزال
انفلت من شبكة الصياد ، عليها قميص اسكندرانى شفاف يشف
عن أثوابها جميعا ، وفوقه قرطق مفروج أو هو القباء المفرد ،
وقد أشرق بياضها اشراقا باهرا وجعلت شعرها طرة أسبلتها على
جبينها ، وتعصبت بعصابة قد نقش عليها بصفائح الذهب هذا
البيت :

مالى رميت فلم تصبك سهامى ورميتنى فأصبتنى يا رامى
وقد أدارت صدغيها وتقوس حاجباها ، ولها عينان قد ملئت
سحرا ، وأنف كأنه قصبة در ، وفم كأنه جرح يفطر دما .. وبيدها
مروحة عريضة من ريش النعام مغطاة بالحرير المزركش وقد
طرز عليها بالذهب هذه الأبيات :

بى طاب العش فى الضيف ف بى طاب السرور
ممسكى ينهى أذى الحر اذا اشتد الحرور
الندى والجود فى وجـ ه أمين الله نور

مَلِكٍ أَسْلَمَهُ الشَّبَّ هـ وَأَخْلَاءُ النَّظِيرِ (١)
 وقد قبضت على المروحة بأنامل منقوشة بالخناء فيها خواتم
 وفي معصمها الأساور والدمالج اذا حركت يدها للترويح سمع
 لها شخشة . وفي صدرها هلال من ذهب مرصع بالجواهر وقد
 نقش عليه هذا البيت :

أفلت من حور الجنان وخلقت فتنة من يرانى
 فلما دخلت افتن جعفر والفضل برؤيتها ، ولكنهما تهييا لعلمهما
 انها وصيفة الأمين الخاصة جاءت لتروح له . فمشيت وهى تنتقل
 على رءوس أصابعها وتتمايل حتى دنت من الأمين فوسّع لها
 الفضل ، فصعدت على مقعد بجانب سرير الأمين وأخذت تروح
 بالمروحة وفي يدها الأخرى منديل اذا تدى جبينه بالعرق
 مسحته له

ثم دخلت جارية أخرى يظهر من مجمل منظرها أنها رومية
 الجنس ، عليها دراعة مصبوغة بلون الورد الأحمر ، وقد وضعت
 على رأسها ضفائر شعر مسدلة كأنها العناقيد تتدلى الى أسفل
 ظهرها . وفوق الشعر تاج مرصع وفي عنقها عقد ثمين قد تعلق
 فيه صليب من الذهب المرصع ، وعلى التاج بيتان من نظم الحسن
 ابن هانئ (أبو نواس) وهما :

(١) العقد الفريد - الجزء الثالث



« وبعد برهة ، أقبلت جارية تفتن الناظرين ، يظهر من ملامحها أنها كرجية الاصل ، دخلت المصطبة ناعرة كأنها الغزال انفلت من شبكة الصياد»

يا راميا ليس يدري ما الذي فعلا
 عليك عقلى فان السهم قد قتلا
 أجرته في مجارى الروح من بدنى
 فالنفس فى تعب والقلب قد شغلا
 وتمنطقت بمنطقة شدت بزئار ، وعلقت المروحة بها ، وعلى المروحة
 هذا البيت :

أتهوون الحياة بلا جنون
 فكفوا عن ملاحظة العيون
 فلما دخلت هذه الوصيفة أشار الأمين اليها فوقفت بجانب
 ابن عمه جعفر وأخذت تروح له . ثم دخلت جارية ثالثة تختلف فى
 شكل هندامها عن صاحبتيها ، وقد جعلت شعرها على شكل
 الطرة السكينية التى تنسب الى سكينة بنت الحسين ، لأنها أول
 من صنعها فى المدينة منذ قرن وبعض قرن ، ولم تشد فوقها
 عصاة ولكنها كتبت فوق جبينها بالغالية هذين البيتين :

يا هلالا من القصور تجلى
 صام طرفى لمقلتيك وصلى
 لست أدري أطلالىلى أم لا
 كيف يدري بذاك من يتقلى
 وقد لبست درعا من القطيفة أبيض اللون كتب على جانبه
 الأيمن بالتطريز :

كتب الطرف في فؤادي كتابا
هو بالشوق والهوى مختموم
وعلى الجانب الأيسر :
كان طرفي على فؤادي بلاء
ان طرفي على فؤادي مشوم
فلما دخلت علم الفضل انها ستقف بجانبه تروح له ، فمشت
وهي تلاحظ ما يبدو من الأمين فاذا هو يشير اليها أن تذهب الى
الفضل ، فوقفت الى جانبه وأخذت تروح له

- ٢٦ -

المغنيات وأبو نواس

ثم دخل عدد من الغلمان يحملون آنية الشراب ، وهم في
ثياب مصبوغة بألوان قوس قزح ، على أحدهم ثوب أحمر وعلى
الآخر ثوب أصفر والآخر أخضر ، وعلى الآخر أحمر وأصفر معا
أو من عدة ألوان مما يبهر النظر ، وكلهم في عنفوان الصبا وغاية
الجمال، مع صفاء البشرة . وأكثرهم لا يعرفون اللغة العربية ، وإذا
تكلموها ظهر للسامع انها ليست لغتهم لأن بعضهم من الصقالبة
والبعض الآخر من الكرج أو الترك أو الروم ، ومعظمهم حديثو
الاقامة في بغداد وأكثرهم خصيان .. وقد تفنن قيّم الغلمان في

تزيينهم ، كما تفننت قيِّمة الجوارى فى تزيين الوصيفات اللواتى
ذكرناهن . فكان على بعضهن قباء كتب على عاتقه الأيمن هذا
البيت :

بدر على غصن نضير شرق الترائب بالعبير
وعلى عاتقه الأيسر :

خطت صحيفة خده من صفحة القمر المنير

ووقف بعض الغلمان بأباريق الشراب ، الأبريق فى يد أحدهم
والكأس بيده الأخرى ، والكئوس من البلور بعضها أحمر اللون
أو أزرق أو أخضر ، وبعضها من الذهب الخالص وعليه نقوش
كتابية أكثرها أشعار فى مدح الخمر ووصفها ، من أمثلتها :

اشرب على منظر أنيق وامزج بريق الحبيب ريقى
واحلل وشاح الكعاب رقفا واحذر على خصرها الرقيق
وقل لمن لام فى التصابى اليك خلّى عن الطريق

وجلس الأمين وصاحباؤه فى انتظار المغنيات ، فإذا هم يسمعون
ضرب العود على نغم مطرب وصوت رخيم . ثم ظهرت مغنية
صفراء ليست من الجمال فى شئ لأنهم لم يكونوا يعلمون الجوارى
البيض الغناء بعد . ومشت وهى تضرب ضربا مسكرا وتغنى
بصوت رخيم ، حتى أقبلت وفى أثرها أربع جوار يحملن العيدان
يرقصن على توقيعهما . فما سمع الأمين الغناء حتى صاح : « التى
بصاحب الشراب » فجاء رجل هو رئيس السفاة فأخذ يدير أمر

الساقين ، وأرسل بعض الغلمان الى الأمين بقدح دفعه اليه فشربه وأمر للفضل وجعفر فسقاها .. فتناولوا القدحين ولم يشربا ، وانما تظاهرا بالشرب مسايرة للأمين .. أما الجوارى فجلسن على مقعد من الوسائد معد لهن في أحد جوانب المصطبة ، وبعد أن دارت الكئوس وطرب الأمين قال : « أين الحسن بن هانئ ؟ .. أين أبو نواس ؟ »

فقال رئيس الخصيان . « انه في دار الضيافة يامولاي »

فقال : « اللى به الآن »

فذهب لاستدعائه فأرجعه الأمين قائلا : « احذر أن يدخل على بغير ثياب المنادمة »

فأشار مطيعا بانحناء الرأس وخرج ، وما لبث أن عاد وهو يقول : « ان أبا نواس بالباب .. »

فقال وقد أخذته هزة الطرب : « يدخل »

فدخل أبو نواس ، وكان جميل الصورة .. وبالرغم من انه جاوز الأربعين من عمره ، فقد كان الجمال لا يزال ظاهرا في محياه . وغلبت عليه ملامح الأهوازيين لأن أمه منهم ، وأرخص لحيته وكانت خفيفة وقد وخطها الشيب قليلا . وكان أزرق العينين تتجلى فيهما الدعابة والذكاء معا . وعلى رأسه بدل القلنسوة أو العمامة قبعة (طاقية) حمراء اللون ، وقد تزل بثوب من ثياب المنادمة شديد الصفرة يتضوع الزعفران منه . فلما أقبل صاح

الأمين به : « أهلا بشاعرنا ، ان هذا المجلس لا يحلو بلا شاعر ..
والشعراء زينة مجالس الغناء »

فانحنى أبو نواس ووقف : فأشار اليه أن يجلس بجانب
الجوارى المغنيات ، وأشار الى أحد العلمان فقدم له وسادة جلس
عليها . فتذكر الفضل أبا العتاهية وان هذا وقته ، وكان قد أسر
اليه أمرا حينما فارقه ، وخشى أن يكون قد نسيه .. فأخذ يفكر
فيه وهو يتشاغل بما يراه ويسمعه من أسباب اللهو، ويظهر التهيّب
في مجلس ولى العهد وفى نفسه أمور دفعه اليها جاره جعفر بن
الهادى .. واغتتم جعفر فرصة انشغال الأمين بسماع الغناء ، وسأل
الفضل عن الجوارى اللواتى ابتاعهن ومتى يصلن ، فأجابه بضم
أنامله جميعا وهى شارة الانتظار كأنه يقول : « انهن يصلن قريبا » .
ثم التفت الى أبى نواس وقال له : « ألا تلقى من أقوالك شيئا
يغنيه فيطرب ولى العهد ؟ »

فلما سمع الأمين قوله قال وقد لعبت الخمر برأسه : « لا ..
لا يقول شيئا قبل أن يشرب رطلا » وأشار الى الساقى فملا
رطلا ودفعه الى أبى نواس فتناولوه وشربه دفعة واحدة ، وردّه
الى الساقى وأشار برأسه أن : « هات أيضا .. »

- ٢٧ -

الطرب بالطعن

فأعجب الأمين برغبته في الشراب ، وضحك حتى استلقى على ظهره ، وفي يده تفاحة بأكملها ، وقال له وفي فمه قطعة منها :
« اطربنا يا ابن الاهوازية »

فأجابه والمجون ظاهر على وجهه : « أريد مولاي أن أطربه بالمدح أو بالطعن »

فابتدره الفضل بن الربيع قائلا : « ألا تكف عن مزاحك ؟ .. كيف يسأل الأمير هذا السؤال ؟ وهل يطرب أحد بالطعن ؟ وهو انما سألك أن تلقى على هؤلاء القيان أبياتا يطرب لها مولانا »
فنظر أبو نواس الى الفضل شزرا وهو يظهر المجون أيضا وقال : « وما أدراك ماذا يطرب الأمير ؟ أتريد أن تحترف صناعة المنادمة فضلا عن الوزارة ..؟ انى أخاطب سيدي وهو يفهم مرادى »

فاستغرب الفضل جرأته وأراد أن يجيبه فسمع الأمين يقول :
« لقد فهمت مراده » ثم التفت الى أبي نواس وقال : « أطربنا بالطعن ليرى الفضل أن الطعن قد يطرب ما لا يطربه المدح .
ألق على الجارية بيتا أو بيتين من هذا القليل »

فأصغى الحضور وقد ظهر الاستغراب في وجوههم ، وحامت
أبصارهم حول أبي نواس فاذا هو قد أدنى رأسه من الجارية
التي بيدها العود وأسرَّ إليها أبياتا ، فسوت العود والكل سكوت
حتى الأمين ، ثم أخذت تغنى :

عجبت لهـارون الامام وما الذى
يود ويرجو فيك يا خلقه السلق (١)
رأى جعفـرا يزداد بخلا ودقة
اذا زاده الرحمن فى سعة الرزق
ولو جاء غير البخل من عند جعفر
لما وضعوه الناس الا على حق (٢)

وكانت الجارية تغنى وتعيد فى غنائها ، والأمين يهتف طربا عند
كل مقطع . وفطن الفضل لسر ذلك منذ بدأت الجارية فى غناء
البيت الأول ، فأدرك أن أبا نواس يعرض بجعفر بن يحيى البرمكى
عدوه فكان طربه أكثر من طرب الأمين . وكان أكثرهم طربا جعفر
ابن الهادى فلم يتمالك أن صاح فى أبى نواس : « لله درك ولا
فض فوك » وكان فى يده عقد من الجواهر يلعبه بين أنامله هم
أن يرميه اليه ، فتذكر انه فى حضرة ولى العهد ولا يستحسن أن
يسبقه الى اجازة الشاعر ، فالتفت الى الأمين واستأذنه بالاشارة
فأذن له فرمى بالعقد الى أبى نواس فوقع فى حجره ، فتناوله

ونظر الى الأمين كأنه يستشير في أمره فضحك الأمين وقال :
« أراك تبحث عن مكان تضع فيه هذا العقد .. ضعه هنا وأشار
الى الجارية الواقعة على رأس الفضل وقال : « وهى لك أيضا ..
ولكن بعد انقضاء هذا المجلس ، واذا زدتنا زدناك »

فوقف أبو نواس ليشكره لذلك الصنيع ، فأومأ اليه الأمين أن
يجلس ويعود الى ما كان فيه ، وأشار الى الساقى فأدار الأقداح
وهو يبدل ألوان الأنبذة من نبيذ التفاح الى نبيذ التمر فنبيذ
العنب ، وهى تتلألأ فى الأقداح بين الصفرة والحمرة والشهبة
والصهبة . وأشار الأمين الى صاحب الشراب اشارة فهم مراده
منها ، فأمر أحد الخصيان أن يقدم القدح الى أبى نواس بيده ،
وكان الغلام جميلا عبلا ، جعد الشعر ، وقد صففه على جبينه
بشكل بديع ، فأخذت أبا نواس نشوة الخمر فنظر الى الغلام ،
ثم الى الأمين ، فابتدره الأمين قائلا : « صفه وهو لك » فتناول
أبو نواس القدح من يده وقال :

يسمى بها خنث فى خلقه دمث

يستأثر العين فى مستدرج الرائي

قد كثر الشعر واوات ونضّده

فوق الجبين ورد الصندغ بالفاء

عيناه تنفث داء فى محاجره

وربما نفعت فى صولة الداء

انى لأشرب من عينيه صافية
 صرفا وأشرب أخرى مع ندمائى
 فلما سمع الأمين شعره صاح فيه : « ويلك كفى ..! هو لك ! »
 أما الفضل فلما رأى الحمر قد دارت برأس الأمين أراد أن
 يغتتم الفرصة فقال له : « هل نسى مولاي القيان البيض ؟ »
 فقال : « ويحك .. كيف أنساهن ؟.. هل أتيتن ؟ » ونظر الى
 قيّم الدار مستنهما فقال : « نعم يامولاي قد جئن منذ ساعة »
 فقال : « التى بهن الساعة ! »

فخرج وما لبث أن عاد مهرولا مذعورا ، وفى أثره رجل قصير
 قد اكتسى جلد قرد ، وعلى رأسه قبعة هرمية الشكل فى أعلاها
 جلاجل وهو يقهقه قهقهة القردة ، ووثب حتى توسط المصطبة
 وأخذ فى الرقص ، فقهقه الأمين وأغرق فى الضحك حتى استلقى
 على ظهره ، ولم يبق أحد لم يضحك . وعلا الضجيج ، فقال
 الأمين : « أليس هذا أبا الحسين الخليع ؟ »

فانتبه القيّم وقال : « بلى يامولاي هو بعينه — قبحه الله —
 انه ذهب بعقلى » فقال الأمين : « دعه وامض الى الجوارى »
 فعاد وتشاغل الحضور بالضحك ريثما يعود الرجل بالمغنية
 قرنفلة وييدها العود تضرب عليه ضربا رخيما ، وقد تكحلت
 وتبرجت وأرخت شعرها على كتفيها . ودخلت الجاريتان الأخريان
 فى أثرها ويدها كل منهما عود ، فوقفت قرنفلة بين يدي الأمين وهى

تضرب على عودها نغما لم يسمع مثله من قبل ، فأوما إليها
 الأمين فجلست وأخذت تغنى هذين البيتين :
 لم تلده أمة تف سرف في السوق اتجارا
 لا ولا حد ولا خا ن ولا في الخزي جارا
 وكان الفضل في أثناء ذلك يراقب حركات الأمين ، فاذا هو
 يرفس الأرض برجليه طربا ويصيح : « صدقت .. صدقت ..
 قبحك الله »

ولم يستغرب الفضل ذلك ، بل كان يتوقعه منه لأنه هو الذى
 أوعز الى أبى العتاهية أن يعلمها هذين البيتين لاثارة حقد الأمين
 على أخيه المأمون ، لما فيهما من التعريض به اشارة الى أن
 الرشيد حده فى جارية وجده معها (١)

- ٢٨ -

اسماعيل بن يحيى

وعلا ضجيج الضحك وتعالى الضوضاء ، وكانت الشمس قد
 مالت الى الأصيل ، فقطع ضجيجهم نباح كلاب كان الأمين قد
 جعلها على شاطئ دجلة وراء تلك المصطبة ، حتى اذا رأت غريبا
 نبحت نباحا شديدا .. فلما سمعوا نباحها أمرالأمين أحد غلمانه أن

(١) الفخرى ١٩٢

يستطلع السبب ، فخرج من باب سرى يؤدي الى الشاطئ ،
ثم عاد مسرعا وهو يقول : « أرى سفينة تدنو من الشاطئ ،
أظنها حراقة اسماعيل بن يحيى الهاشمي »

فلما سمعوا ذلك الاسم أسقط في أيديهم ، واقتشعرت أبدانهم
كأنك صببت عليهم ماء ساخنا ، ولا سيما جعفر بن الهادي ، إذ
امتقع لونه وظهرت البغلة على وجهه ، وأشار الأمين الى المغنيات
فسكن وتحولت تلك الضوضاء الى دهشة ، واستولى السكوت
على ذلك الجمع برهة سمعوا في أثنائها ربان السفينة ينادي
بحثارته أن يحلوا الشراع ويتقدموا نحو الشاطئ .. فوجم الأمين
وتجلد ، وقد ذهب أثر الحمر ، وتذكر حاله فنزع الاكليل عن
رأسه كأنه يريد أن يخفى مجونه وتهتكه ، واقتدى به غيره ..
ولكن أتى لهم أن يخفوا مجونهم والأقداح متناثرة بين أيديهم ،
والأباريق مملوءة ، والمائدة منصوبة وعليهم ثياب المنادمة وما
يتبعها من وسائل الخلاعة واللهو ..

على أن الأمين تجلد ونهض من مجلسه ، وصاح بعلامه أن يسأل
أهل الحراقة عن صاحبها فعاد وهو يقول : « ان اسماعيل بن
يحيى يستأذن في الدخول »

فقال : « يدخل .. أهلا به ومرحبا .. »

ولاحظ الحضور رغبة الأمين في اخفاء تهتكهم ، فأخرجوا
الخليع وأمروا الجوارى بالسكوت ، وجلسوا ينتظرون وصول

اسماعيل وكان على رءوسهم الطير . وما لبث أن رجع الغلام وفي أثره شيخ جليل المنظر ، وسيم الطلعة ، طويل القامة ، عليه جبة سوداء ، وعلى رأسه قانسوة طويلة حولها عمامة من خز ، وهى ملابس العباسيين الرسمية

وكان اسماعيل بن يحيى من كبار بنى هاشم رهط الخليفة .. وكان من أهل التعقل والحزم ، وقد زادته الشيخوخة وقارا .. وهو على الجبين ، عريض المنكبين ، مسترسل اللحية ، وقد اشتعل رأسه شيبا ، ولم يستعمل الخضاب ترفعا عن بهرج الدنيا لأنه كان حكيما نير البصيرة يرى الأمور كما هى ، ويقدر الناس بحسب مناقبهم ومواهبهم ، لا بحسب أنسابهم ومظاهرهم .. فرغم انه هاشمى من أعمام الخليفة ، فانه لم يكن يرى فى النسب الهاشمى فضلا على سواء الا اذا اقترن بالتقوى والصلاح . وكان مطلعا على أمور الدولة ، عالما بما تنطوى عليه شئون أهلها . ولم يكن يحب الرشيد لأنه هاشمى ، ولا يكره جعفر البرمكى لأنه فارسى ، وانما كان ينظر الى الأمور من حيث هى . وغرضه الأول سلامة الدولة العباسية من العلل ، وخلصها من أسباب الفشل ولا يهتم على يد من تكون سلامتها .

فكان ينظر الى ما يجرى من الدسائس بين الرشيد ووزيره ، أو بين الأمين وأخيه ، أو بين غيرهما من الأحزاب المتناقضة ، نظر الحكيم الناقد يشرف على أهواء الناس من سماء عقله وفلسفته ،

ويسعى جهده في تلافي ما يخشى وقوعه من مفسد ذوى المطامع
الديوية وأرباب الأهواء النفسانية . فلم يكن يهمل أن تفضى
الخلافة اليه بقدر ما يهمل صلاحها وتوطد دعائمها وطول بقائها .
وكان أعلم الناس بنواحي الضعف عند الرشيد ووزيره ، ونواحي
القوة عندهما ، وله الدالة على كليهما ، والكلمة النافذة عندهما ،
ولاسيما الرشيد .. فقد كان يجثو ويحترمه ويعظم شأنه ، لما تحققه
من كبر نفسه ونزاهته وسلامة نيته ، فضلا عن ذكائه وسداد رأيه .
وطبيعى فيمن كان هذا شأنه أن يهابه الناس ويحترمونه حتى
الملوك ، فأنهم مهما بلغ من صلفهم وكبريائهم لا يحتقرون رجلا
لا يجتمعون به الا لنصيحة ، يتحققون بالاختبار انها صادرة عن
اخلاص تام .. ولا يتباحثون معه الا آنسوا منه حكمة فوق
مستوى تفكيرهم .. فكيف اذا أضيف الى ذلك شرف النسب
وعلو الهمة والشيخوخة . فلا غرو اذا نال اسماعيل هذه المنزلة
عند الرشيد أو رجال دولته ، لما عرف به من الغيرة على سلامة
الدولة والتفانى في سبيل مصلحتها . على انه لم يكن يقدم على
نصيحة أو مشورة الا اذا رأى النصح نافذا ، ولا يقول الا كلاما
صريحا .. فاذا أحس أنه فى حاجة الى تلون أو رياء تباعد وتحاشى ،
ولذلك لم يكن يعجبه الأمين ، ولا يرى نصحه نافعا .. فكان يتعد
عنه ويحاذر أن يحضر مجلسه

- ٢٩ -

الدهشة

أما مجيئه في ذلك اليوم فسيبه انه كان رقيقا على ابن الهادي من عند نفسه لعله بما يكتمه من الحقد على الرشيد والبرامكة ، وبلغه أنه يجالس الأمين ويعاشره فلم يعجبه ذلك منه . وكان اسماعيل وجعفر يقيمان في البصرة مثل أكثر بنى هاشم المتقاعدين الذين يعيشون برواتب الخليفة وهباته من الأموال والضياع فينغمسون في الترف والقصف ويقضون أيامهم بين مجالس الأنس والغناء ، والخلفاء يساهون لهم هذه الأسباب ليضعفوا عزائمهم عن النهوض لمنازعتهم على الخلافة ، ويشغلوهم عن الدسائس السياسية بالجوارى والقيان ومعاطاة الكأس والطاس

أما اسماعيل بن يحيى فقد كان عفيفا حازما يكره ما يراه من ترف هؤلاء وقصفهم ، وعلم ان النصح لا ينفعهم فكف عن نصحتهم إلا جعفر بن الهادي فانه كفله من صغره منذ مات أبوه ، فشب جعفر لا يشرب الخمر ولا يميل الى اللهو ، وانما كان يعاشر الأمين ويغريه على زيادة الترف واللهو لغرض في نفسه لم يكن يخفى على اسماعيل . وكان يخشى بقاءه على عزمه لأنه لا يرى فيه صلاحا للدولة بل هو يخاف عليها منه .. وكثيرا ما نصحه بالرجوع عن

ذلك وهو يعده ويخلف . وعلم منذ أيام وهما في البصرة أن جعفر أتى بغداد فظنه جاءها لترويح النفس أو لقضاء بعض المصالح أو ليقبض عطاءه ، فلما أبطأ خشي عاقبة إبطائه فلحق به وهو يظهر أنه آت لغرض له . فلما وصل الى بغداد واستطلع أخباره علم أنه نازل في قصر الأمين لا يخرج منه . فلم ير بدا من مقابلته هناك ، وكانت له سفينة في دجلة ، اذا جاء بغداد ركب فيها .. فاستقلها في ذلك اليوم وقصد قهجر الأمين فوجده على تلك الحال

فلما دخل اسماعيل على مجلس الأمين ، تهيب كل من كان فيه حتى الأمين رغم شربه الخمر وتهتكه .. فتجلد ووقف لملاقاة ذلك الشيخ الجليل ولم يكن يحلم أن يراه على هذه الصورة ، واما جعفر فوقف منزويا وقد ارتج عليه . ولم يبق ثابت الجأش متجلدا الا الفضل بن الربيع لما ذكرناه من طبيعة مزاجه فضلا عن دهائه . فانه تقدم الى اسماعيل ، وتبسم له ، ورحب به ، وأظهر رغبته في تقبيل يده وهو يقول : « مرحبا بمولاي » وقدم له مقعدا وكان الأمين قد نزل عن سريره ورحب به أيضا

فنظر الشيخ الى ما حوله من الجوارى والغلمان والعيدان ، والأباريق والأقداح ، وغير ذلك من أسباب الأنس والطرب ، فعلم أنه اذا جلس معهم نفص عليهم نهارهم ، فتظاهر أنه لم يكن يقصد الزيارة في تلك الساعة ، ولكنه توهم أنه سمع صوت جعفر هناك .. قال ذلك وهو يتجاهل أنه رآه

فظهر الوجمل على وجه جعفر ، وأقبل متأدبا وهو يتجلد ، وعلم أن اسماعيل لا يروق له الجلوس هناك فقال : « قد كنت عازما على الخروج من الصباح ، فأبقاني ولى العهد فى هذا المجلس ليسمعنى غناء الجوارى البيض ، وألبسنى ثياب المنادمة . فاذا أحب سيدى أن أنطلق فى خدمته فعلت »

فأظهر اسماعيل أنه مسرور ببقاءه وقال : « لا بأس يا ولدى فانى مشتاق الى رؤيتك ، فاذا أردت الانصراف فانزل معى الى السفينة ، ودع القوم فى مجلسهم .. فان مقامى لا ينفعم » .. قال ذلك وتحول ومشى ، فاستأذن جعفر فى تبديل ثيابه ثم يلحق به الى السفينة ..

خرج اسماعيل وأهل المجلس سكوت تهييا ، وقد سرّ الأمين بذهابه .. أما جعفر فأسرع الى غرفته ، فلبس قلنسوته وسواده ونزل الى السفينة ، فوجد اسماعيل يتمشى على ظهرها وقد أرسل قلنسوته الى الورا وظهر الاهتمام على جبينه وعينه . فلما أقبل عليه ترمى على يديه ليقبلهما فجذبهما منه وقال : « ما هذا المجلس يا جعفر ؟ .. أمثلك يفعل ذلك ؟ »

فتراجع وأطرق ولم يجب ، وأمر اسماعيل زبان السفينة أن يمضى بهم الى مرسى بعيد عن القصر ، وأمسك جعفر بيده وسار به الى مقعد فى مؤخر السفينة يشرف على الماء ، وأجلسه الى جانبه ، ولما جلسا قال اسماعيل : « لم يكن عهدى بك مجالسة

هذا الغلام في مثل هذا المجلس فهل طاب لك اللهو والتهنك ؟ «
 قال : « هل ترى في أثر الشرب ؟ انى والله لم أذق الخمر .. »
 قال : « لا أقول انك تشرب الخمر ، ولكننى أعهد فيك التعقل
 والزناة ، وكنت أحسبك اذا لقيت الأمين في مثل هذه الحال
 أتبته ووبخته لا أن تجلس معه وتسايره .. »

- ٣٠ -

مقتل الهادى

فتنهـد جعفر وحوئل بصره الى مقدم السفينة يتشاغل بما يراه
 من سبر النوتية قاع النهر بالعثمـد ليسيروا بالسفينة الى مأمن .
 قلنا رأى اسماعيل سكوته وتشاغله ، أدرك ما يضمـره وقال :
 « يخيل الى انك لا تزال على سوء نيتك فى هؤلاء ، وكأنك
 لا تزال طامعا .. ؟ »

فلم يتمالك جعفر عن قطع الحديث قائلاً : « لا تقل طامعا
 ياسيدى ، فانى غير طامع وانما أنا أطلب حقى .. »
 قال : « وأى حق تعنى ؟ »

قال : « أعنى .. » وخفّض صوته ، وهو يلتفت حوله مخافة أن
 يسمعه أحد ثم قال : « أعنى ان هؤلاء الموالى سلبونى حقى بعد

أن قتلوا والدي وأخرجوا الخلافة من يدي ، وأنت أعلم اني أولى الناس بها .. »

فتظاهر اسماعيل بالاستخفاف وقال : « لا أجادلك فيما تدعيه من الحق ، ولكنني لا أرى علاقة بين ما تطلبه وما تفعله .. ما هي العلاقة بين طلبك الخلافة وجلوسك هذا المجلس ، وقد طالما دافعتني بمثل هذا القول .. فأخبرني ما هو حقك وممن تطلبه ؟ » فقال جعفر وقد تجلى الغضب بين حاجبيه : « أسمح لي أن أصرح بما في نفسي .. اني أتهيب ذلك بين يديك »

قال اسماعيل : « قل .. لا تخف ، فاني اذا رأيت طلبك صوابا أعنتك عليه والا فاني أنصحك وأكتم أمرك » قال : « انت تعرف والدي الهادي — رحمه الله — وتعلم انه تولى الخلافة بوصية جدي المهدي ، وان والدي أوصى لي بالخلافة من بعده »

قال اسماعيل : « أظنك تطمع في تنفيذ وصيته ، وأنت تعلم انه ارتكب بهذه الوصية شططا لأن المهدي — رحمه الله — انما أوصى بالخلافة لأبيك ثم لعمك الرشيد بعده ، فلما تم له الأمر أراد اخراج الخلافة من الرشيد ومبايعتك بها ، فهل تعد هذا حقا ؟ » قال : « لا أنكر عليك انه خرج بذلك عن وصية المهدي ، ولكنهم راجعوه فرجع وأعاد البيعة الى الرشيد على أن تكون لي الخلافة بعده .. ألا تذكر ذلك ؟ »

قال : « بلى .. أذكره »

قال : « فما بالهم فتكوا على اثر ذلك بوالدى وقتلوه ولم
يجلس على عرش الخلافة الا سنة وبعض السنة ؟ »

فقال وهو يظهر الدهشة : « قتلوه ؟ ومن قتله ؟ لا أعلم
انه مات مقتولا ، وانما توفى من مرض .. ولو زعمت ان أمه
الخيزران ساعدت على قتله لرأيت مسوغا لهذا الزعم واما غيره
فلا .. »

فتضحك جعفر وقال : « لا يبعد أن تكون الخيزران قد
ارتكبت هذا الجرم ، كما يقولون ، لأن والدى أغضبها حين كفَّ
يدها عن التدخل في شئون الدولة ، ولكنها فعلت ذلك مدفوعة
باغراء ذلك الفارسي .. » قال ذلك وصرَّ على أسنانه

فقال اسماعيل : « أظنك تعنى يحيى بن خالد ؟ »

قال : « اياه أعنى ، نعم اياه أعنى .. والدليل على ذلك انه هو
الذى وقف في سبيل والدى وعارضه في أمر البيعة ، وكان الرشيد
قد أذعن للخلع ورضى بتحويل البيعة الى ، ولكن يحيى هذا
حرض الرشيد على رفض هذه البيعة ، ولم يستقر حتى وافقه
والدى على أن يرجع البيعة اليه على أن أكون أنا الخليفة بعده .
فلما وافقه على ذلك أسرع الى الغدر به ، ولم تمض ليال قليلة
حتى قيل ان الهادى مات ، وزعموا ان جدتى الخيزران قتلتها ،
ولكننى أعتقد انها اذا كانت قد فعلت ذلك فانما فعلته باغرائه .

ألا تذكر انه كان أول من عرف بالوفاة فهروا ليلا الى الرشيد
وبشّره بذلك ؟.. وقد عرف الرشيد فضله وألقى مقاليد الحكومة
اليه كما تعلم . ثم أفضت الأمور الى ابنه جعفر الوزير الحالى ،
وهو فيما تعلمه من نفوذ الكلمة حتى يصح أن يقال انه هو
الخليفة وليس الرشيد »

- ٣١ -

البرامكة والدولة

وكان جعفر يتكلم والعرق يتصبب من جبينه واسماعيل يصنى
الى قوله ، وربما كان رأيه فى هذا الأمر مثل رأيه ، ولكنه لم يكن
يرى أن يشجعه عليه لاعتقاده أن ذلك ليس فى صالح الدولة ، اذ
قد يؤول الانقسام الى فسادها ، فعمد الى الاعتراض قائلا : «أراك
سوء الظن بالبرامكة كأنك توافق أعداءهم فى الطعن على أعمالهم ،
وأنت تعلم ان للبرامكة فضلا على هذه الدولة لا يضارعه فضل .
وأنا هاشمى كما تعلم والخليفة من لحمى ودمى ، يسوءنى ما يسوءه
ويسرنى ما يسره ، ولكننى أراكم ظلمتم هؤلاء الموالى ونسيتم
آثارهم فى تنظيم هذه الدولة من عهد جدهم خالد - ألم يكن
خالد من أكبر أعوان أبى مسلم فى نقل هذه الدولة من الأمويين
الىنا - فلما قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم وثار النعمان

والاكراد عليه كادت تخرج الدولة من يديه لو لم ينجده خالد
ويضمن له التغلب عليهم بالرأى دون الجنود . ناهيك بما كان من
تدبير شئون الحكومة وتنظيم دواوينها على يده ويد ابنه يحيى
وحفيديه الفضل وجعفر ..

« ان البرامكة - يا ولدى - هم عماد هذه الدولة وقوام
أبهرتها .. وهذه بغداد كيفما تلفت ، رأيت آثار تدبيرهم في معاهدها ،
فقد أقاموا فيها المكتبات والحلقات ومنازل الجند وماوى المرضى
ومجالس القضاة وغرف الشرطة .. وان ما تراه من رواج العلم
والفلسفة وتهافت أهل الذمة وغيرهم على ترجمة كتب اليونان
والفرس انما أصله ترغيب البرامكة فيه بالبذل والعطاء ، أليس
يحيى بن خالد أول من عنى بنقل المجسطى من اليونانية الى
العربية ؟ وهل تنكر انه هو الذى سعى في جمع الكتب من الهند
وغيرها .. ؟ أليس البرامكة هم الذين استقدموا أطباء الهند
لترويج صناعة الطب . ان هؤلاء الأطباء بين ظهرانينا الآن ،
وخاصة منكة الهندي الذى أشار يحيى على الرشيد باستقدامه
لما اشتدت وطأة المرض عليه ، حتى كدنا نياس من حياته فعالجه
وشفى ..

« أليس هم الذين رغبوا الرشيد في انشاء المارستان ، وولّوا
عليه طبيباً هندياً من هؤلاء ، وأنشأوا مارستاناً لأنفسهم وأسندوا
إدارته للطبيب الهندي ابن دهن ؟ .. وهل خفى عليك ما للفضل

ابن يحيى من الأثر الجميل في استخدام الكاغد ، فاني لن أنسى ضيق أصحاب الدواوين من استعمال الجلود والرقوق للدفاتر ، والاروج والسجلات ، حتى أشار الفضل المذكور بالكاغد ، فأنشأنا له المعامل في بغداد كما ترى . وأراني لو أردت تعداد مآثر هؤلاء البرامكة لتعبت قبل الاتيان على آخرها ، وأنت تعلم عصبيتى في بنى هاشم ، وغيرتى على هذه الدولة ، ورغبتى في سلامتها (قال ذلك وتنهد) فلا يعقل أن أقول ذلك عن تهوس أو غرض وإنما أقول الحق الصراح ، فلا يغرنك ما تراه من نقمة ابن الربيع وأمثاله عليهم ، وطعنهم فيهم ، فانهم يفعلون ذلك حسدا لعجزهم عن مجاراتهم »

وكان جعفر في أثناء تلك الخطبة مطرقا ينظر في حركة الماء الملامس لجدران السفينة ، وهى سائرة الهوينى ، وكأنه استغرق في هواجسه فلم يفهم كل ما سمعه . فلما فرغ اسماعيل من كلامه اتبه جعفر وقد ضاقت نفسه من سماع مدح البرامكة وهو يكرههم كرها شديدا ، ولا يرى سبيلا لدفع أدلة اسماعيل .. فلم يرَ خيرا من استئناف الكلام عنهم ، فقال : « هب انهم ملائكة نزلوا من السماء ، ألم يقتلوا والدى ويخرجوا الحكم من يدى ؟ » قال : « ان دعواك منقوضة أو هى غير ثابتة على الأقل ، اذ لم يقل أحد ان يحيى بن خالد قتل والدك أو سعى في قتله لاجراج الأمر من يدك »

قال : « أما انه قتل فلا ريب عندي فيه ، وان خفى على
الكثيرين . وأما انه فعل ذلك لاجراج الحكم من يدي ، فبدلك
عليه انه بعد أن وافقه والدي على أن يبايع الرشيد قبلي عجل
فقتله قبل أن يتمكن من البيعة لي . ولما تم الأمر للرشيد ، بدلا
من أن يبايع لي بايع لابنه هذا المتهتك ، وأظنه كان عازما على أن
يجعل الخلافة لي بعد الأمين فأغراه وزيره البرمكي على مبايعة
ابنه الآخر المأمون فأصبحت صفر اليدين ووالله لو .. » وتعلم
فابتسم اسماعيل وقطع كلامه قائلا : « اني لاعجب من تباين
أعمالك وتناقض أقوالك ، كيف تكون ناقما على هذا الغلام
وتجالسه في مجلس المدام وتعاشره في أحوال الغرام ؟ ثم اني
لا أفهم معنى لهذه النعمة ، ولا كيف يمكن لك أن تنال بغيتك ..
وهذا الرشيد على كرسى الخلافة وحوله الجند والأعوان ، وبنو
هاشم ينصرونه ويؤيدونه ، وقد بايع بالخلافة لولديه الواحد بعد
الآخر ، وهم سيتولون الخلافة بعده .. فلا أرى لنقمتك محلا ولا
الى غرضك سبيلا .. فاقطع عما يجول في خاطرك من الأفكار
الصبيانية وأنت تعلم غضب الرشيد .. اذا اطلع على شيء مما في
نفسك ، فان لحمك يتناثر تنفا بين السماء والأرض .. ولكني كتبت
أمرك وأكتمته لأنني أرجو صلاحك ورجوعك ، وأما اذا تحققت من
بقائك على عزمك فحرصى على سلامة الدولة يبعثنى على التفريط
فيك .. الا اذا زأيت في أعمالك سدادا .. فأخبرني كيف ترجو

الوصول الى الخلافة ؟ »

وكان لتهديد اسماعيل وقع شديد على جعفر وهو يحترمه ويخافه ، فضاقت نفسه وانحبست عواطفه وكاد يختنق لو لم تفرج عنه دمعتان تعلقتا بين المآقى ، وأطرق خجلا من ظهورهما وظهرت الحيرة في وجهه ، لكنه لم يصبر عن الجواب فقال : «أراك مستخفا بى وبأعمالى ، وتحسب انى أخبط فى أقوالى .. فاعلم يا عماء انى لا أجهل عجزى عن مناوأة الرشيد وهو بين جنده وأعوانه ، ولست طامعا فى ذلك .. وانما أطمع فى الظفر بالخلافة بعده ، وهذا سهل اذا سقط وزيره البرمكى - اسمع كلامى الى آخره - ان الرشيد متى مات فالخلافة تفضى أولا الى الأمين هذا ، وهو لا يصلح لها ولا أراه يزداد إلا انغماسا فى القصف والترف واللهو ، ولا أظن أهل الدولة الا خالعيه فيبقى أخوه المأمون وهو والحق يقال ذو عقل وحزم ، ولكننى لا أرى أحدا من الهاشميين يحبه لأنه ينتمى الى أخواله الفرس . ولا أظنك تجهل ان جعفر البرمكى هذا هو الذى سعى الى مبايعته بالخلافة لغرض فى نفسه لا يقل عن اخراج الدولة من أيدينا .. أرجو الاصفاء الى آخر كلامى .. فالعقبة الوحيدة فى سبيل ارجاع حقنى فى الخلافة هى وجود هذا الفارسى وهو يستحق القتل اذا لم يكن انتقاما من فعل أبيه بأبى فلانة استأثر بأموال المملكة لنفسه ولأهله ، وأنت ترى ان دخلهم من ضياعهم ربما ضارع

دخل بيت المال ، فقد أخبرنى سهل بن هرون وهو أعلم الناس بذلك ان مبلغ جباية هؤلاء الموالى عشرون ألف ألف دينار (١) فى السنة من ضياعهم ومرافقهم

ولا يخفى عليك ان جباية المملكة من أقصى الشرق الى أقصى الغرب لا يزيد على هذا القدر كثيرا .. فقد علمت من صاحب بيت المال أن مجموع جباية الدولة نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم (٢) أو ٢٧٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، ونحن الهاشميين نستقطر رواتبنا بالألف والعشرة آلاف كأنا نستجدى . ناهيك بأسباب الأبهة التى استأثروا بها حتى لقد ترى الخيول الواقفة بباب جعفر هذا أضعاف ما يقف بباب الرشيد . فما أدرانا ماذا يكون من عاقبة هذا الاستئثار اذا مات الرشيد وتولى الأمين وهو لاه كما تراه ، ألا تذهب الدولة من أيدينا ؟ .. أما المأمون فانى أعترف بحزمه ولكننى لا أراه غيورا على استبقاء الخلافة فى أهل بيته ، ولعل ذلك بسبب اتصال نسبه بالفرس من أمه ، ولأذعانه الى مشورة جعفر .. وهو الذى رباه .. »

(١) العقد الفريد - الجزء الثالث
(٢) تاريخ التمدن الاسلامى - الجزء الثانى

- ٣٢ -

العالية بنت الرشيد

فأعجب إسماعيل بتفكير جعفر ، ولعله رأى في قوله صوابا ، ولكنه لم يكن يؤمن بفائدة مثل هذا التدبير للدولة .. فأخذ يعارضه قائلا : « أما ثروة البرامكة فلا أنكر عليك ضخامتها ، ولكن ما يدخل من ريعها انما ينفقه البرامكة على الناس بسخاء في الاحسان أو الرواتب .. فمن منا لا يستولى على راتب أو هدية من جعفر أو غيره ؟ .. وقد علمت عن ثقة من صاحب بيت مالهم ان ١٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار من هذه الجباية أى أكثر من نصفها يجعل بدرا عليها صكوك مختومة ، وعلى كل بدرة اسم صاحبها من أهل الدولة أو غيرهم على سبيل الهدية . فالمال راجع الى الدولة وأهلها ولا أظن الخليفة يفعل أكثر من ذلك . ثم ان مقتل هذا الرجل خطر على الخلافة .. حتى الرشيد نفسه لو أراد قتله لم يستطع اليه سبيلا لأن أكثر رجال الدولة من مريديه وقد غمرهم بالعطاء والمعروف .. فاقطع عن هذا وذاك واصنع لنصحى فانى ضنين بشبابك حريص على حياتك . والرأى عندى أن تتقرب الى الرشيد ، فذلك خير لك وأبقى .. وأنا أضمن ما تبتغيه من التقربى ، بل أنا أسعى في ذلك بنفسى »

قلما رأى اصراره على مقاومته ، تظاهر بالقبول مخافة أن يفشى أمره اذا أغضبه فقال : « وما هي وسائل القربى ؟ »
فأنس اسماعيل قرب رضائه فسرَّ لزوال تلك العقبة من طريق الدولة فقال : « ما هو أقصى ما يطمع فيه الناس للتقرب من الخلفاء أكثر من أن يتزوجوا بناتهم ؟ .. اننى أعدك ان الرشيد يزوجك ابنته العالية .. فما قولك ؟ »

فرأى جعفر ان ذلك الزواج اذا تم لا يقف في سبيل بغيته بل هو قد يساعده على تنفيذها ، فأظهر الاستحسان ولكنه قال : « انها قبرى عزيزة ولكن الرشيد قد يشاور وزيره فلا يقبل ! » وضحك ..

فقال : « لا تكن سيء الظن بالرشيد الى هذا الحد ، فانه أقوى . عزيمة وأشد بأسا مما تظن .. وأنا أضمن لك ذلك فى كل حال ، انما أرغب أن ترجع الى البصرة ريثما أوافيك بالخبر »
قال جعفر : « سأذهب حسب أمرك ، ولكننى لا أرى ضررا من بقائى هنا حتى تنقضى هذه المهمة .. »

قال : « حسنا .. اذهب انت الآن الى قصرى ، وأنا أمضى غدا الى الرشيد فى هذا الشأن »

فقال : « ولكن ألا تأذن لى أن أعود الى الأمين فأودعه وآتى ببعض الأمتعة التى تركتها عنده ، فأبيت الليلة هناك ؟ »
قال اسماعيل : « اذهب فى حراسة الله »

وكانت الشمس قد دنت من المغيب ، فطلب جعفر الى اسماعيل أن يأذن بانزاله من السفينة ليركب زورقا يعود به الى قصر الأمين فأمر اسماعيل بايقاف الحراقة بجانب الشاطئ ، ورأى جعفر هناك زورقا ركب فيه حتى عاد الى قصر الأمين وقد أقبل العشاء وأظلم الليل فوقف عند المصطبة فنبحت الكلاب ، وكانت كبيرة هائلة ، فخاف أذاها ولبث واقفا عن بعد يتردد بين النزول من هناك أو الدخول من الباب الآخر وراء البستان . ولاحظ في أثناء وقوفه ان المصطبة خالية من الناس ، اذ لم يسمع فيها غناء ولا رأى نورا ، فعزم على المسير في الزورق الى الباب الآخر ، والطريق اليه بعيد

وبينما هو يفكر في ذلك اذ رأى نورا يظهر في المصطبة ويدنو من السور ، ثم سمع لفظا خفيفا واذا بيد امتدت فوق الحائط والمصباح في قبضتها ، فلما رأت الكلاب المصباح سكنت ثم أطل رجل عرف جعفر من مظهره انه قيّم الغلمان فناده ، فقال الرجل : « سيدى جعفر ؟ »

قال : « نعم .. هل أدخل من هنا ؟ »

فقال بصوت ضعيف : « تمهل قليلا ريثما أعود اليك ! » وتركه وعاد بمصباحه وجعفر واقف في الزورق ينتظر رجوعه ويفكر في سبب هذا التستر .. وبعد قليل ظهر النور وسمع صوت القيّم يقول : « تفضل على مهل .. »

فاستغرب جعفر هذا التخوف وصعد من الزورق ومشى حتى
دنا من الباب السرى فقابله الرجل بالمصباح وقال : « تفضل
يامولاي ادخل .. »

فدخل والرجل يمشى بين يديه بالمصباح ، فمرءا بالمصطبة فرأى
آثار الشراب والطعام لا تزال فيها كأن الجلوس غادروها من عهد
غير بعيد.. فتحيّر في أمره ، وحدثته نفسه أن يستفهم عن سبب ذلك
التغيير ، ولكنه عدل عن ذلك .. وظل الرجل يسير أمامه حتى
بلغ القاعة الوسطى في دار النساء ، فرأى المنائر في زواياها
وجدرانها قد أضيئت شموعها وليس هناك أحد ، فلم يتمالك أن
سأل الرجل : « أين هو مولانا ولي العهد ؟ »
قال : « اتنا ذاهبان اليه ياسيدي ، تعال معي ولا تضجر .. »

- ٣٣ -

خبر جديد

فمشى جعفر في أثر القيم وهو يدخل من قاعة الى قاعة ، وكلها
مضيئة بالشموع على المنائر ، وفيها الرياش الفاخر يختلف في كل
قاعة لونا وشكلا عما هو في القاعات الأخر ، حتى وصل الى باب
مقفل وقف عنده القيم ونقر عليه نقرًا خفيفا ... فسمع جعفر
حركة ، ثم فتح الباب وأطل منه الفضل بن الربيع وهو لا يزال

بثوب المنادمة كما فارقه ، وأمسك بيده وأدخله وهو صامت ،
 فدخل جعفر الى غرفة لم يجد فيها الا الأمين جالسا على طنفسة
 وهو أيضا بملابس المنادمة وبجانبه امرأة قد تزملت بعباءة ووجهها
 مكشوف ، فعرف انها جارية ، ورأى على وجهها آثار الاهتمام
 فحيّاهم ووقف .. فأمره الأمين بالجلوس قائلا : « اجلس واسمع
 هذا الحديث الغريب »

فجلس ، وجلس الفضل الى جانبه ، فقال الأمين : « قد جاءتنا
 هذه الجارية بخبر يهكم ويهمنا .. انها من جوارينا وقد كلفناها
 بالتجسس لنا على ذلك الوزير ، فاسمع ما جاءتنا به عن حياته »
 فاستبشر جعفر بما سمعه ، وتناول بعنقه نحو الجارية ، ولبث
 صامتا ، فاذا هي توجهت كلامها للأمين وتقول : « انت تعلم
 يامولاي ان يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوي كان قد خرج
 على الدولة في الديلم واجتمع حوله جماعة الشيعة وكلهم ناظم
 على بنى العباس ، يريدون اخراج الخلافة من أيديهم على ما
 يزعمون . وبعث أمير المؤمنين الرشيد لحربهم غير واحد ، وهم
 يزادون تمردا حتى أئقذ اليهم الفضل بن يحيى أخا الوزير جعفر ،
 فلما وصل بجنده الى الطالقان وعلم ان الرجل متحصن في جبال
 الديلم ، احتال في انزاله واستقدمه ووعدده خيرا . فوثق يحيى
 بمواعيده لأنه من الشيعة مثله ، فجاءه فتلفظ في معاملته وطلب
 اليه أن يصحبه الى بغداد ويسلم نفسه لأمر المؤمنين فأبى ،

فاستحثه على الذهاب ، على أن يشترط ما أراده ويكتب له الرشيد ذلك بخطه .. فتمّ الوفاق بينهما على عهد أمان كتبه الفضل وبهته الى مولانا الرشيد ، فوقّعه للرجل كما تعلمون حتى أتى الى بغداد فاستقبله أمير المؤمنين أحسن استقبال وأجرى له أرزاقاً سنية . ثم بلغ مولانا الرشيد من بعض العارفين ان الرجل لا يزال عازماً على الخروج .. »

فقطع الأمين كلامها ، وقال وهو يهز رأسه : « نعم .. انه ما يزال على سوء قصده ، وهل تصفو قلوب أولئك العلويين لنا بعد أن بلغ العداء بيننا وبينهم الى هذا الحد ..؟ ولاقلوبنا تصفو لهم » فقال جعفر : « ومن أدرانا ان الفضل لم يتواطأ مع صاحبه يحيى العلوى سرا على أمور تقضى بالتريث حيناً الى أن يخرجوا علينا جميعاً ؟ .. »

فقال الفضل : « وهذا الذى فكر فيه أمير المؤمنين على ما يظهر لأنه بعد أن أعطاه العهد عاد فأفسده كما مستمعون » فأتمت الجارية كلامها وهى تنظر الى الأمين : « نعم .. ان مولانا الرشيد أفسد ذلك العهد ، لا أدري لأى سبب ، ولكننى علمت ان آل الزبير وشكوا بذلك العلوى .. فأمر أمير المؤمنين بالقبض عليه وحبسه ، وأنتم تعتقدون الآن انه فى الحبس » فاستغرب الأمين قولها وقال : « لابد من أن يكون هناك »

قالت وهي تبتسم : « كلا يامولاي .. انه الآن في طريقه الى أهله .. »

فصاح الأمين : « ماذا تقولين ؟ ومن أطلقه ؟ »

قالت : « أطلقه الوزير جعفر .. »

فقال : « وكيف ذلك ؟.. ما هذه الجرأة ؟ »

قالت : « دعنى أقص عليك ما رأيته رأى العين في غروب هذا النهار »

فتناول لسماع حديثها فقالت : « كان الوزير جالسا عصر هذا النهار في غرفته الخاصة من قصره ، والخدم والجواري يشتغلون بشئونهم الا أنا ، فقد كنت حريصة على مراقبة من يدخل أو يخرج ، فرأيت يحيى بن عبد الله العلوى المذكور داخلا وحده دخول المتلصصين وليس معه أحد من الحاشية ، فعلت انه جاء خلصة .. فراقبت طريقه فرأيته قد دخل على الوزير، وجلسا في الغرفة وليس معهما ثالث ، فعلت انهما لأمر ما اختليا هناك ، فدرت من ناحية أخرى الى غرفة ، بينها وبين هذه باب مقفل ، يمكن مشاهدة الذين بداخلها من بعض ثقبه .. فوقفت هناك فرأيت العلوى لما دخل ، وقف له الوزير ورحب به وأجلسه الى جانبه وبش له ، وأمر الخادم أن يقفل الباب عليهما . فلما استقر بهما الجلوس سأله الوزير عن حاله في الحبس فبكى وشكا الى أن قال : « اتق الله يا جعفر في أمرى ، ودبر طريقة لاطلاق سراحى ،

فوالله ما أحدثت حدثاً يوجب الحبس « فما فرغ العلوى من قوله حتى رأيت الوزير يلاطفه ويخفف عنه بكلام لم أفهمه ، ولكننى فهمت أخيراً قوله : « اذهب حيث شئت من البلاد »

فلما قالت الجارية ذلك . بدت الدهشة على وجه الأمين وقال : « قبّحه الله على هذه الجرأة ، بل على هذه الخيانة .. كيف يطلق أسيراً أمر والدى بحبسه ؟ .. وبعد ذلك ماذا فعل ؟ »

قالت : « فأجابه الرجل ، كيف أذهب وأنا أخاف أن يتقبض علىّ فأرد .. »

قال الفضل : « صدق والله .. »

فقال ابن الهادى : « وكيف أطلقه اذن ؟ »

قالت : « انه طمأنه وبعث معه رجلاً من حاشيته ليوصلوه الى مأمنه وقد رأيتـه خارجاً وهو يثنى على الوزير ، والوزير يشجعه ويطمئنه .. »

فصاح الأمين : « قد نجا العلوى اذن ! .. »

قالت : « نعم يامولاي ، فعزمت منذ تلك الساعة أن أسرع اليك لأقص هذا الخبر عليك فلم أستطع الخروج قبل الآن » فنظر الأمين الى ابن الهادى كأنه يستطلع رأيه فى ذلك فأوماً اليه أن يصرف الجارية ، فأدرك انه لا يريد الكلام فى حضورها ، فأشار اليها أن تمضى الى قيّمة الجوارى وهى تقوم بمكافاتها ،

فنهضت ، وقبّلت ثوب الأمين ، وخرجت ..

فلما خلا جعفر بالأمين والفضل ، أخذ في التهويل فيما سمعوه ليغريهما على الفتك بالبرمكي فقال : « ان الصبر على هذا التناول ضعف » ولبت ينتظر ما يبدو من الأمين فإذا هو يضحك ويقهقه . فاستغرب ضحكه فقال : « وما الذي يضحك مولاي ؟ أظنه يرى أن شر البلية ما يضحك ! .. »

قال : « كلا .. ولكنني أضحك لما أتوقعه من استغرابك اذا سمعت ما قصه عليّ الفضل قبل مجيئك » والتفت الى الفضل كأنه يأمره بأن يروي الخبر

فالتفت جعفر الى الفضل فرآه يقول للأمين : « أظن مولاي يعنى خبر مولاتى العباسة ؟ » فأوما برأسه أن : « نعم .. »

فازداد جعفر شوقا لسماع الخبر ، فأخذ الفضل يقص عليه ما جرى له في فجر ذلك اليوم في دار الرقيق ، وما قصه عليه أبو العتاهية من تلصصه ، وما رآه وما سمعه .. وجعفر مصغ وقد تولته الدهشة . فلما فرغ الفضل من حديثه ، لم يتمالك جعفر أن وقف وصاح : « يا للخيانة كيف تصبرون على ذلك ؟ لماذا لا يعلم أمير المؤمنين بهذه الخيانة ؟ »

فقال الفضل : « أما خبر العباسة فلا يجرؤ أحد على نقله الى

الرشيـد ما لم يعرض حياته لخطر ، لما تتوقعه من غضبه والعياذ بالله »

فقال جعفر : « كيف نطلع على هذه الخيانة ونخفيها ؟ ان اخفاءها خيانة أخرى .. »

قال الفضل : « لا بد من الاجتيال في ابلاغه ذلك على يد مغنية بالاشارة أو التلميح أو التعريض . أما خبر فرار العلوى فيسهل نقله .. »

فاقتنع جعفر بذلك لعلمه ان خبر العلوى وحده يكفي للفتك بجعفر وهذا ما يتمناه ويرضيه ، فأخذ يشجعه على الاسراع في نقله . ثم التفت الى الفضل وكأنه قد فطن لأمر هام وقال : « وأين ذهب الطفلان ابنا العباسة ؟ أرجو أن لا يكون قد فاتكم ادراكهما والقبض عليهما والاحتفاظ بهما لحين الحاجة ، لأن نقل الخبر اذا لم يكن مؤيدا بوجودهما .. فيا لشقاء ناقله ! .. »

فقال الفضل : « لست ساذجا الى هذا الحد.. اننى حالما سمعت القصة ، أتفدت جماعة من رجالى — وأبا العتاهية معهم — للقبض على الغلامين ولم يرجعوا الى بالخبر بعد.. على اننى لست أخشى أن يعجزوا عن القبض عليهما .. »

وبينما هم فيما تقدم من الحديث اذ سمعوا وقع أقدام في الغرفة المجاورة ، ثم قرع الباب قرعاً تعود الأمين سماعه من غلامه اذا جاء لمسارحته في شأن.. فنهض الفضل لفتح الباب ، فأطل الغلام

وظل وأقفاً بالباب ففهم الأمين أنه يريد أن يلقي إليه بسر ، وفهم جعفر والفضل ذلك ..

فاستأذنا في الخروج ، فأذنَ لهما ودخل الغلام ، فقال : « ان أحد رجال الشاكرية جاءنا الآن » فعلم أنه رسول من عند والدته زبيدة لأنها أول من اتخذ الشاكرية من الخدم ، يترددون على الدواب إلى جهاتها .. ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها (١) فقال : « وماذا يريد ؟ »

قال الغلام : « جاء ليدعوك إلى مولاتنا السيدة زبيدة لأنها تحب أن تراك في صباح الغد لأمر هام » فقال : « قل له انى أصبح إليها باكراً ان شاء الله » فخرج الغلام ، وكان الليل قد أسدل ثقبه ، فذهب كلٌّ إلى فراشه ..

- ٣٤ -

زبيدة بنت جعفر

هي زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور وابنة عم الرشيد أخى أبيه تزوجها سنة ١٦٥ هـ . وهي تفاخر بنسبها الهاشمى سائر نساء الرشيد لأنهن من أمهات الأولاد ، ولذلك كانت عنده

(١) المسعودى ٢٦٦ - الجزء الثانى

فى المنزلة الأولى . وكانت جميلة الصورة واسمها الاصلى أمة العزيز ، فلقبها جدها المنصور زبيدة لبضاضتها ونضارتها (١) . وكانت نافذة الكلمة عند الرشيد وهو يتبرك بمشورتها ، ولها فى الاسلام مآثر لم يسبقها اليها أحد .. مثل حفرها للعين المعروفة بعين المشاش بالحجاز ، فانها حفرتها ومهدت الطريق لمائها فى كل منخفض ومرتفع وسهل وجبل حتى أخرجتها مسافة اثنى عشر ميلا الى مكة ، فبلغ ما أنفقته ١٧٠٠٠٠٠٠ دينار ، فضلا عن المصانع والدور والبرك والآبار بالحجاز والثغور مما أنفقت الألوف عليه . غير ما كانت تنفقه على أهل الفاقة .. وكان لها مائة جارية ، يحفظن القرآن ولكل واحدة ورد عشر من القرآن .. حتى كان يسمع فى قصرها كدوى النحل من القراءة

وهى أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكلفة بالجواهر، وصنع لها الوشى الرفيع ، حتى بلغ ثمن الثوب من الوشى الذى اتخذ لها ٥٠٠٠٠٠ دينار . وهى أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجوارى ، وأول من اصطنع القباب من الفضة والأبنوس والصندل ، وكلاسيها من الذهب والفضة ملبسة بالوشى والسمر والديباج ، وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق

واتخذت الخفاف المرصعة بالجواهر ، وأضاءت شمع العنبر على

(١) ابن خلكان - الجزء الاول

منائر من الذهب .. وقد تشبّه الناس بها في سائر أحوالهم (١)
 وكان لها قصر في بغداد على شاطئ دجلة الغربي يسمى قصر
 زبيدة ويلقب (دار القراز) ، يقع جنوبي قصر الخلد شرقي
 مدينة المنصور ، وحوله الحدائق والبساتين مما لم يكن له شبيه
 في تلك الحضارة الزاهرة

وكانت زبيدة شديدة العصبية لبني هاشم ، وفي صدرها
 حقد على البرامكة وخاصة جعفر بن يحيى الوزير لأنه كان يحط
 من قدر ابنها الأمين ويرفع من شأن أخيه المأمون ، مع أن أمه
 جارية .. وآخر ما زاد من نفرتها عليه ، أنه حمل الرشيد على أن
 يبايع للمأمون بولاية العهد مع ابنها الأمين ، وكانت تحب أن
 تكون البيعة له وحده . وزد على ذلك أن الرشيد سار سنة
 ١٨٦ هـ إلى الكعبة حاجاً ومعه أبناءه ووزرائه وقواده وقضاته ،
 وفي جملتهم ابنه الأمين والمأمون ليعهد لهما بولاية العهد وجعفر
 البرمكي ليشهد العقد فكتبوا الكتابين وعلقوهما في الكعبة ،
 وحلف كل منهما على الثبات ، وكانت زبيدة حاضرة فلما حلف
 الأمين وأراد الخروج من الكعبة رده جعفر وقال له : « فانغدرت
 بأخيك خذلك الله » وطلب منه أن يحلف على ذلك ثلاث مرات
 ففعل .. فحققت زبيدة عليه ، وما برحت منذ ذلك الحين تترقب
 الفرص للإيقاع به .. وربما كانت أكثر أعداء البرامكة حقداً عليهم ،

(١) المسعودي ٣٦٦ - الجزء الثاني

لا تدخر وسعا في استطلاع أخبارهم لعلها تجد فرصة تتمكن بها منهم . وكانت تعلم أن جعفر يتردد على العباسية ، ولكنها لم تكن مطلعة على خبر الطفلين .. ولو علمت ما أحجبت عن كشف أمرهما لزوجها لأنها لم تكن تنهيب منه لما تعلمه من منزلتها عنده فلما كان صباح ذلك اليوم وحدث ما حدث من الغوغاء عند دار الرقيق ، اطلع على خبر الطفلين أحد جواسيسها عند العباسية.. فنقل الخبر إليها فرأت أن تغتنم أول فرصة لاطلاع الرشيد عليه ، ولكنها أحبت أن تفاوض ابنها الأمين في ذلك فأرسلت في طلبه كما تقدم ..

وبكر الأمين في صباح اليوم التالي الى دار القرار اجابة لطلب والدته ، فركب جواده والغلمان يسيرون في ركابه يتقدمهم فارس يحمل الحربة بين يديه على عادتهم في المسير بين يدي ولئى العهد فى ذلك الحين (١) . فسار الموكب محاذيا الشاطئ الشرقى ، وعلى الأمين السواد والقلنسوة حتى وصل الجسر السفلى ، فقطعه وسار بعده على الشاطئ الغربى حتى أطل على دار القرار والناس يقفون له فى الطرق ويحيونه ويدعون له بطول البقاء ، ولا سيما العرب ومن يرى رأيهم فى العصبية العربية .. فيرد تحيتهم وهو مشرق الوجه بنضارة الشباب وعزة الملك وكانت زبيدة تنتظر مجيئه ، وقد استبظاته مع علمها بطول

(١) البيان والتبيين ١٥ - الجزء الثانى ، وابن الاثير ٢٥ - الجزء الثالث

المسافة بين قصرها وقصره ، ولكن مدة الانتظار تطول على المنتظر وان قصرت .. وكانت قد أعدت له كل أسباب الراحة والأنس والترحاب لشدة تعلقها به لأنه وحيدها ، وقد تركزت كل آمالها فيه .. فأمرت جواريتها ففرشن طرقات الحديقة بالأزهار والرياحين وأعدت له مجلسا تضوعت فيه رائحة الطيب من المسك والعنبر في غرفة من قصرها سقفاها قبة مصنوعة من خشب الصندل ، ومكسوة بالوشى والسمور وأنواع الحرير بألوانه الزاهية ، وقد أسدلوا من جوانب القبة على جدران المجلس ستائر من الديباج طرزوا عليها بالقصب أبياتا من الشعر، أو حكما مأثورة ، وعلقوها في مواضعها بكلايب من الذهب ، وفي أرض الغرفة بساط واحد من السجاد الثمين عليه رسوم أحد ملوك الفرس يصطاد السباع ، توهم الناظر من اتقان صنعها انه يرى منظرا حقيقيا . وعلى حواشى البساط أبيات من الشعر مطرزة بالذهب . وفي وسطه صورة طاووس ألوانه منسوجة بالحرير وخيوط الذهب والفضة وعيناه من ياقوت مما يبهز النظر ..

وكان في قصر زبيدة غرف عديدة لكل غرفة فرش خاص بشكل خاص ، وفرش هذه الغرفة من الطراز المعروف بالأرمني في ذلك العصر من صنع أرمينية ، وهو عشر مصليات بمخادعها ومساندها ومطارحها وبساطها كما وصفناه . فمثل هذا الفرش

لا يتقوئم بأقل من ٥٠٠٠ دينار (١) غير البساط وغير مايكسو القبة والنوافذ والجدران من الستائر والنقوش ، وغير ما فى جوانبها من المنائر المصنوعة من الذهب ، وقد غرس فيها شمع العنبر وهو من أثمن ما يكون ، ولم يستخدمه أحد قبلها الى ذلك العهد

- ٣٥ -

دار القرار والجوارى المقدودات

وحينما وصل الأمين الى الحديقة ، استقبله جماعة من الخدم الشاكرية أعانوه على النزول عن جواده ، وقد تحوّل صاحب الحربة قبله ومشى بين يديه بالحربة حتى وصلا الى موضع الأزهار، وقد فاحت روائحها وامتزجت بروائح الطيب .. فتتحنى صاحب الحربة ، ومشى الأمين وحده حتى وصل الى باب القصر فرأى والدته واقفة هناك فى انتظاره .. فلما دنا منها همّت به فضمتها الى صدرها وقبّلتها قبله الوالدة المشتاقة ، فقبّلت يدها فأحس بيضاضتها .. وكانت زبيدة مشرقة الوجه بيضاء عليها وقار الهاشميين مع حلاوة وجمال، وكانت سوداء العينين كبيرتهما مع ذكاء وحدة وقد استدار خذاها وانبسطا من عيش الترف والرغد، وكان فيها صغيرا باسماء يعلوه أنف فيه شمع وذقن قليل البروز ليس

(١) الفرج بعد الشدة ١٠٣ - الجزء الاول

بينه وبين الترقوة غور ولا ثنية ، وقد استدار عنقها واشتد
بياضه ، وليس فيه بروز ..

وكانت بضّة ، طويلة القامة مع سمن قليل .. اذا أسرعت في
مشيتها ارتج كتفها وفخذاها ارتجاج الدلال والرخاء . وقد
تزلت برداء من الحرير ارجواني اللون يسر كل أثوابها ،
وتمنطقت فوقه بمنطقة مذهبة شدت طرفيها بعروة مرصعة بالجواهر .
وقد أرسلت شعرها صغيرة واحدة على كتفيها ، وعصبت حول
رأسها عصابة ليس بها شيء من الجواهر . والعصائب كانت لا
تزال حديثة العهد لم تبلغ الى نساء العامة . بل كانت مقصورة
على بيت الخلفاء والأمراء .. شأن ما يحدث في الأزياء في كل عصر .
فان الزى الجديد (المودة) تبدأ به عادة بعض الوجيهاة فيقلدها
آثرابها ثم يشيع بين العامة .. والعصائب استبظتها عليه أخت
الرشيده لتستر بها عيبا في جبينها . فاصطنعتها مرصعة بالجواهر
كما تقدم . فاستحسن الناس ذلك فقلدوه .. أما زيده فكانت ائتمرت
استرازها بمنزلتها عند الرشيد حسبا وجمالا وتعقلا . تستكف أن
نقلد سواها . فاتخذت عصابة بسيطة لا جواهر بها . ترفعا عن
التقليد .. ولم تضع في عنقها عقدا . ولا في أصابعها خاتما . ولا في
معصمها سوارا . تنزهها عما يستطع سواها تقليدها به . فلم
يتسالك الأمين عند مشاهدة تلك العصابة عن الابتسامة وقال :
« أراك تقلدين عمتي عليه . ان هذه العصائب جميلة يا أماد .

لكننى لا أرى على عصابتك شيئاً من الجواهر «

فابتسمت وأشارت بسبابتها الى قدميها ؛ فنظر الى قدميها فاذا
هى قد رصعت خفيها بالجواهر .. فأعجب بترفعها وبذخها . وهى
أول من لبس الخفاف المرصعة

وكان الأمين يمشى بجانب والدته لا يدرى الى أين تسير به .
فقطعت الدهليز وبلغت الى درجات صعدت عليها وهو يتبعها حتى
مرّت من دهليز آخر الى القاعة التى ذكرناها .. فلم يبهره ما هنالك
من الفراش الثمين ، ولكنه دهش لشيء آخر لم يكن قد رآه من
قبل .. ذلك انه لما أطل على القاعة تزايدت رائحة المسك ورأى
عند مدخلها صفيين من الجوارى الحسان على رءوسهن العمائم
وقد سوين شعورهن على أشكال الطرر والأصداغ والأقفية
ولبسن الأقبية والقراطق والمناطق من الذهب والفضة ، فبانت
قدودهن وبرزت صدورهن على شكل غريب ، وفى أيدي بعضهن
جامات المسك وفى البعض الآخر قوارير الطيب .. فلم يتمالك
الأمين عند مشاهدة ذلك المنظر عن الدهشة والاعجاب ، وأمه
تتماسك عن الضحك ، فالتفت اليها فضحكت فقال : « ما هذه
الملابس يا أماه ..؟ أراك قد جعلت هؤلاء الجوارى غلمانا »

فقلت : « فعلت ذلك تشبها بك يا ولداه .. رأيتك اتخذت
الغلمان وبالغت فى تزيينهم كأنهم من الجوارى الحسان ، فاتخذت
هؤلاء الجوارى أقلد بهن الغلمان كما ترى ، وقد سميتهن الجوارى

المقدودات (١) وسأبعث بهن هدية اليك «
 فسرّ الأمين بتلك الهدية .. وكانا قد وصلا الى مجلس معد
 لهما على سرير من الأبنوس في صدر القاعة محلى بالذهب .
 فجلست زبيدة فوقه على وسادة من الخز المزركش محشوة بريش
 النعام ، وأجلست الأمين الى جانبها وهي تنظر اليه ولا ترتوى من
 رؤيته . ثم أشارت الى من كان هناك من الجوارى والعلمان
 فانصرفوا ..

- ٣٦ -

المشورة والحيلة

فلما خلت به تغير وجهها من الابتسام والأنس الى الهيبة
 والجلال ، وبدت في عينيها السوداوين اللامعتين ملامح الذكاء
 وحدة الذهن والجدة فقالت : « كيف قضيت نهارك أمس
 يا محمد ؟ »

قال : « قضيته كما تحبين ياسيدتي من الأنس والطرب »

قالت : « وفي الليل .. لماذا كنت مستترا في خلوة ؟ »

قال : « ومن قال لك ذلك ؟ »

قالت : « أخبرني به الشاكرى الذى بعثته اليك ، فما هي هذه

« الخلوة ؟ »

قال : « هي خلوة يحلو لك سماع خبرها ، وقد كنت عازما على المجيء اليك لأطلعك على سر اكتشفته يسرك الاطلاع عليه . وأنت ما الذي بعثت الي من أجله ؟ »

وكانت متكئة على كتفه ويدها على خده قلاعب بأناملها شعرات في عذاره ، وتنظر اليه نظر الحنان والعطف . فلما قال لها ذلك ابتسمت وقالت :

« وعندي أيضا ما يهمك الاطلاع عليه ، وأرجو أن تتخلص به من ذلك الفارسي »

فعلم انها تشير الى جعفر البرمكي فبغت وقال : « وخبري أيضا يتعلق به قبحه الله .. هل تعنين خبره مع العلوي أم مع عمتي العباسة ؟ »

فأجفلت زبيدة وتصاعد الدم الى وجنتيها وظهرت الدهشة في عينيها وقالت : « هل علمت بخبر العباسة أيضا ؟ »

قال : « نعم .. علمت به ، وكدت أتميز من الغيظ ، ولكن لا أظننا ننتفع بذلك عاجلا .. أما خبر العلوي فهو أقرب للافادة منه » فقالت : « وأي علوي تعني ؟ وما خبره ؟ اني لم أ مع بشيء من هذا القبيل »

فاعتدل في مجلسه ، وقصص عليها ماسمعه مساء أمس من الجارية

حتى أتى على آخره ، وزبيدة تنظر اليه وعيناها تبرقان استغرابا ودهشة . فلما فرغ من حديثه تنهدت وقالت : « ذلك جزاء من يستهين بسلطة فوضها الله اليه .. ان أباك مع تعقله وحزمه قد استسلم لهذا الفارسي حتى أصبحت الخلافة له ولم يبق لأبيك الا اسمها .. ولكن سوف يلقي الباغى عاقبة بغيه »

فقال : « لا أنكر عليك أن والدي أطلق يد هذا الوزير في أمور الدولة ، ولكن ألا تظنين ذلك لازما ليضمن سير الأعمال..؟ وهل يستطيع أمير المؤمنين أن يتولى كل الأعمال بنفسه ؟ »

فقالت والجد ظاهر في عينيها : « ان اطلاق يده في شئون الدولة قد يكون له فيه عذر ، ولكن ما عذره في ادخاله على حريمه بلا اذن ولا حرج ؟ ان جدك المهدي - رحمه الله - مع استخدامه البرامكة وثقته بهم ، لم يبلغ هذا الحد من اطلاق أيديهم .. ولا عمك الهادي فعل شيئا من ذلك ، ولا أظن أن أحدا يفعل ما فعله أبوك .. » قالت ذلك وقد ظهر الغضب على وجهها فزادها هيبة

قال : « وماذا تعنين يا أماء بدخوله على الحريم ؟ »

قالت : « أعني ان أباك - حفظه الله - أمر أن يدخل جعفر على دور النساء في السفر والحضر ، وأبرز اليه جواريه واخوته وبناته لزعمه أن بينهما رضاعا يحل ذلك ، فهو يدخل الى قصور نساء الخليفة وبناته واخواته بلا حرج ، فلا عجب اذا ظهر ماظهر من جرأته » . وتنهدت وقد أخذ الغضب منها مأخذا عظيما ،

وكان في يدها جام فيه مسك تتشاغل بتفتيته في أثناء الحديث ، فلما غلب عليها الغضب ارتعشت أناملها ، فوقع الجام من يدها وانتشر فتات المسك على البساط فهمم الأمين بالتقاطه وهو يقول : « وهل بلغ من اطلاق يده في دور النساء أن يدخل الى قصرك ويراك ؟ » وقد بانث الغيرة في وجهه

فصاحت : « كلا .. وهل يجسر هذا المولى أن يرفع بصره الى ..؟ انه لم يطأ أرض قصرى هذا ولا كلفته بحاجة يقضيها لى ولن أكلفه .. » (١)

وكان الأمين قد فرغ من التقاط المسك ، فأعاده الى الجام ودفعه الى أمه وهو يقول : « وما رأى الآن ؟ ان هذا الرجل لا ينبغي أن نستر فعله والا ذهب الأمر من أيدينا واكتسبنا العار الذى لايمحى لما ارتكبه هذا الخائن بعمتى .. »

فقطعت كلامه وقالت : « ان أمر عمتك يا بنى أكثر اللوم فيه على أيك كما قلت لك ، لأنه أباح لوزيره الدخول الى قصرها ومخاطبتها وقضاء حوائجها ، وهو شاب حسن الخلقة نظيف الثوب طيب الرائحة وهى لم تر رجلا غيره — ذلك جزاء من جمع بين النار والخطب — على ان هذا لايرثه من الخيانة .. » وعادت الى التشاغل بفتات المسك وهى تنظر الى البساط تنفرس في الطاووس المنقوش في وسطه .. والأمين قد انقبضت نفسه ، وضاق صدره

لأنه مع طول الحديث لم يصل الى الغرض المطلوب ، ولا تجاسر أن يفتحها بطلب قتله أو الوشاية به . فلما ضاق ذرعا أطرق وبانت الحيرة في وجهه .. ولاحظت أمته ذلك ، فأسرعت الى تطيب خاطره قائلة : « أظنك تريد أن تعرف رأى في هذا الرجل ؟ »

فلم يتمالك محمد أن صاح : « نعم يا أماء لقد ضاق صدري » فقالت : « وهل ترى أن نبليغ أباك خبر أخته العباسة ؟ » قال : « لا أدري .. وانما أريد أن يقتل هذا الرجل والسلام » فضحكت وأدارت ذراعها حول عنقه وقبّلته ، ودموع الحنان تكاد تتناثر من عينيها لولا عظم الأمر الذي أدخلت نفسها فيه وقالت : « قد كنت عازمة على أن أطلعها على خبر أخته ، ولكن مباغته الرشيد بذلك لا تخلو من الخطر على الناقل فيكفى الآن أن نبليغه خبر العلوى .. » ثم خفضت صوتها ومدت يدها الى جيبها فأخرجت بطاقة دفعتها اليه وهي تقول : « لا تظننى غافلة عن الانتقام لك من هذا المولى .. انى لا أنسى تشديده عليك بالقسم على كتاب العهد بالكعبة في العام الماضى ، فقد بلغ من قبحته وسوء أدبه أن يستهين بك أمامى .. وقد أعددت أبياتا من الشعر بمعنى ما نحن فيه ، على ان أوصّلها الى أهلك سرّا من حيث لا يعلم ، فنكون قد أبلغناه بالخطر الذى يهدد الدولة من هذا الرجل .. فاذا لم يفلح ذلك في تحذيره ، عمدنا الى ما هو أبلغ »

فتناول الأمين البطاقة وقراها فاذا فيها : (١)

قل لأمين الله في أرضه ومن إليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا مثلك ما بينكما حد
وقد بنى الدار التى ما بنى ال فرس لها مثلا ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها وتربها العنبر والند
ونحن نخشى انه وارث ملكك ان غيبك اللحد
ولن يباهى العبد أربابه الا اذا ما بطر العبد
فلما فرغ من قراءتها أحس بارتياح وقال : « أظنها تقتله
لا محالة .. وهل أنت عازمة على ايصالها ؟.. وكيف ؟ »

قالت : « لا يهمك ذلك فانى أكلف واحدا من جواسيسنا
هناك يلقيها عند مصلى أبيك ، فاذا رآها قرأها وأظنها تفى
بالغرض المطلوب والا فالدواء الناجع عندى .. » قالت ذلك
ووقفت ، فوقف الأمين وقد علم انها تنوى الخروج من تلك
القاعة ، فمشيا معا وهى تقول له : « أظن انك جائع .. وقد
أعدت المائدة ، فهلم بنا اليها .. »

قال : « صدقت .. انى جائع ، وهل أعود بعد الطعام الى
قصرى ؟ »

قالت : « انى مشتاقة اليك يا محمد .. دعنا نقضى هذا اليوم
معا »

(١) ابن خلكان - الجزء الثانى ، الاثليدى ١١٧

وذهبا الى غرفة المائدة ..

فلتركهما يتناولان الطعام ، ولنعد الى ما كان من اسماعيل
ابن يحيى ومهمته الى الرشيد

- ٣٧ -

قصر الخلد

تركنا اسماعيل بعد مفارقة جعفر في مساء أمس ، وهو عازم
على زيارة الرشيد في الغد لمخاطبته في شأن ابن الهادي والعالية .
فلما أصبح ، لبس سواده وقلنسوته وركب الى قصر الخلد ..
وقضى مسافة الطريق وهو يفكر في الرشيد ويهين الأسلوب
الذي ينفذ منه الى مخاطبته في أمر ابن عمه ، لعلمه بقسوة الرشيد
اذا غضب ، وربما سبق الى ذهنه سوء الظن فتعود العائدة وبالا
عليه .. لكنه لم يطل على ذلك القصر حتى رأى الناس يسرعون
في الأسواق نحو الشارع الأعظم المؤدى من القصر الى الجسر ،
فأمر أحد الغلامين السائرين في ركابه أن يسأل عن سبب ذلك
الهرج فعاد وهو يقول : « ان أمير المؤمنين خارج الى الشماسية
لحضور حلبة السباق » فتشأ اسماعيل من هذا الاتفاق وسبق
الى اعتقاده فشل مهمته لأنه لم يوفق فيما كان يريد في ذلك
الصباح ، ولا هو يرجو أن يقابل الرشيد في المساء لأن الشماسية

في الجانب الشرقي من بغداد والحلبة تستغرق كل النهار . فترجل
وتنحى جانبا بحيث يرى موكب الخليفة ولا يعلم به أحد . فما
لبث أن رأى الناس يسعون الى الفرار .. يدفع بعضهم بعضا
كأنهم يساقون سوقا ، ثم رأى خدما صغارا يركضون وفي أيديهم
قسي البندق يرمون بها العامة الذين يعترضون الموكب في الطريق ..
وهم فرقة من الخدم يسمونهم النمل (١) ومن ورائهم رجال مشاة
على الأقدام عليهم شارة الدولة ، وفي أيدي بعضهم السيوف
المرهفة ، وفي أيدي الآخرين الأعمدة ، ووراءهم رجال في أيديهم
القسي الموتورة (٢) وهم يمشون بوقار وسكون . ووافي الخليفة
بعدهم على جواد مخضّب بالحناء عليه سرج مذهب .. وقد تغطى
سائر الجواد بالديباج المخوص بالذهب ، والرشيدي جالس فوقه
وعلى رأسه قلنسوة طويلة ليس حولها عمامة .. لأن الخلفاء كانوا
إذا لبسوا القلانس مكشوفة زادوا في طولها وحدة رءوسها حتى
تكون فوق قلانس جميع الأمة (٣) فكيف إذا ركب وهم مشاة .
ورأى سواده مسترسلا حتى غطى جانبا من ظهر الجواد ..

وكان الرشيد يومئذ في الحادية والأربعين من عمره ، وقد أشرق
وجهه بياضا وأبرقت عيناه ذكاء ، وكاتتا كبيرتين ولحيته خفيفة
كستائية اللون ، وشاربه مستطيل دقيق ، وفي فمه ابتسامة ،
وفي يده اليمنى قضيب من الأبنوس طرفه مصنوع من الذهب ،

(٢) المسعودي - الجزء الثاني

(١) الألفاني ٩٤ - ج ٢٠

(٣) البيان والتبيين ٨٤ - الجزء الثاني

وكان الجواد يمشى الهوينى ، ويتبختر فى مشيته ، كأنه يعرف مَنْ فوقه ، ووراء الخليفة صاحب المظلة يحمل مظلة من ريش النعام مجنبة على عصاها لتظل الخليفة من الشمس ، ووراءهما فرسان من الخاصة والقواد وكبار الكتاب الا جعفر الوزير فانه لم يكن معهم . ويلي ذلك افراس الحلبة عليها سروج خفيفة وسياس يقودونها بالارسان ، وبينها فرس عليه رئيس السياس وهو تركى له مهارة فى تربية الخيل . وأخيرا فرقة أخرى من الخدم الصغار يردون الناس عن الموكب من الورا .

وظل اسماعيل واقفا ينظر الى ذلك الموكب نظر الفيلسوف المفكر ، وهو يعجب لغرور الانسان واهتمامه بالمظاهر الزائفة أكثر من الحقائق الدامغة .. ونظر فيمن يحف بالرشيد من الخاصة والقواد والهاشميين ، وهو يعلم ما فى نفوسهم .. ومنهم من يكره الرشيد حتى يتمنى له الموت ، ومنهم من يحبه ويتفانى فى خدمته والمرجع العام فى ذلك كله الى حب الذات . ثم فكر فى نفسه وفى ما كان قادما من أجله ، وتحركت فيه الغيرة على الدولة والرغبة فى سلامتها ..

وأسف لاختفاقه فى مهمته فى ذلك الصباح ، فركب وعاد الى منزله متألما .. على أن يعود فى صباح الغد لاستئناف ما كان يسعى اليه ..

وبادر فى صباح اليوم التالى فركب كالأمس وغلاماه فى ركابه وعليه السواد والقلنسوة ، وما زال حتى أقبل على قصر الخلد .

وللقصر أربعة أسوار الواحد داخل الآخر فلا يستطيع أحد الوصول الى مجلس الخليفة الا بعد المرور في أربعة أبواب (١) وعند كل منها حرس من الشاكرية وقفوا بالأسلحة . فدخل الباب الأول وهو راكب ، فوقف الحرس اكراما له ولم يعترضوه ، لعلمهم انه من كبار بنى هاشم فضلا عن منزلته عند الرشيد ، ودخل الباب الثاني فالثالث والحرس يقومون له ويحيونه حتى اذا وصل الى الباب الرابع ، تناول الفرس أحد الغلامين ومشى اسماعيل في طريق واسع يؤدي الى دار العامة ، وغلمان القصر يسرون بين يديه وهو يمشى الهوينى في جلال ووقار حتى أقبل على تلك الدار ، وهى التى يجلس فيها الخليفة للعامة ، وبجانباها غرف يقف فيها الشعراء والأدباء والنساء أو يجلسون ريثما يؤذن لهم أو يطلب الرشيد أحدهم . فعلم اسماعيل من جلبتهم وغوغائهم وخلو المكان من الحرس (الشاكرية) ان الرشيد ليس هناك ، فاستغرب ذلك وأحب أن يسأل عنه فاذا بمسرور خادم الرشيد يعدو نحوه مسرعا وسيفه يخط على جانب فخذه لشدة سرعته . فلما رآه اسماعيل لم ينشرح صدره له لعلمه بفظاظته وقسوته وهو فرغانى الأصل ، وأكب مسرور على يد اسماعيل ليقبلها فاجتذبتها منه وسأله عن أمير المؤمنين

فقال : « هو فى دار الخاصة يامولاي »

قال : « وكيف ذلك واليوم موعد جلوسه في دار العامة ؟ »
 فقال : « كان عازما على الجلوس فيها ، فجاءه وفد من ملك
 الهند .. فأحب أن يجلس لهم في دار الخاصة لأن ذلك أقرب
 للرغبة والعظمة »

— ٣٨ —

وفد ملك الهند

فتحول اسماعيل نحو تلك الدار ، وقبل الوصول اليها رأى
 صفين من جند الخليفة الأتراك ، وقد وقفوا بانتظام ولبسوا
 الحديد حتى لا يرى منهم غير حدقات عيونهم ، فقال لمسرور :
 « ما بال هؤلاء ؟ .. وما الذي بعث على وقوفهم بالحديد كأنهم في
 ساحة الحرب ؟ »

قال : « لما علم أمير المؤمنين بمجيء الوفد من ملك الهند
 أحب أن يوقع الرعب في قلوبهم ليبلغوا ملكهم ما شاهدوه من
 قوة الاسلام فأمر بوقوف هؤلاء كما ترى » (١)
 فانبسطت نفس اسماعيل لما لمسه من رغبة الرشيد في أبهة
 الدولة ، ولكنه ما لبث أن تذكر ما يخشاه عليها من الدسائس ..
 فانقبض صدره . على انه تماسك ومشى نحو الدار بين الصفين

.. (١) العقد الفريد ١٤٩ - الجزء الاول، وسراج الملوك

حتى دنا من بابها وكان مرتفعا يصعد اليه على درجات عريضة من الرخام الأبيض يتخللها قطع من البلاط الأخضر ، والشاكرية وقوف الى الجانبين وفي أيديهم السيوف .. فدخل مسرور أمامه ليخبر صاحب الاذن (الحاجب) بحضوره ليستأذن له في الدخول فصعد اسماعيل في أثره وهو يتباطأ في مشيته ريثما يؤذن له ، فما لبث أن جاء يدعو للدخول .. فمشى في دهليز عريض مبلط ببلاط أحمر مشدود بعضه الى بعض بقضبان الذهب والآذن يسير بين يديه ، فرأى في آخر الدهليز ثلاثة كلاب هائلة المنظر كبيرة الأبدان كأنها أسود ، وقد أوثقت من أعناقها بسلاسل من الحديد ، وأمسك السلاسل ثلاثة رجال عرف من منظرهم وألوانهم انهم من أهل الهند وهم مكشوفو الرؤوس .. فاشتغل خاطره بتلك الكلاب وتهيب من توقد أبصارها وضخامة أبدانها ..

ولكنه تجلد وهو يمر بالأروقة والدهاليز ، والخدم يقفون له حتى انتهى الى دار قوراء مفروشة بالبسط الثمينة فوقها جلود النمر والسباع ، وفي جوانبها قصب المناور عليها الشموع الملونة . فوق اسماعيل هناك وهو يتشاغل بقراءة ما نقش على الجدران من أبيات الشعر أو الحكم لعله يحتاج الى اذن ثان على جاري العادة في الداخلين على الخليفة ، فرأى الآذن قد عاد وهو يشير اليه أن يتقدم لأن مثله لا يحتاج الى اذن ثان

فتقدم نحو باب عليه ستارة من الديباج المخصوص بالذهب فتحه

الآذن بيده اليسرى وأشار الى اسماعيل باليسرى أن يدخل ،
فدخل الى ايوان كبير طوله ثلاثون ذراعا في ثلاثين ، قائم على
أساطين من الرخام وعلى جدرانه صور مما في البر والبحر ، نقش
بالذهب والفضة . تتخللها أبيات من الشعر وحكم مكتوبة بـ
الذهب ، وفي أرضه بساط من الدياجج الأصفر كأن صانعه قلده به
القטיפ بساط كسرى .. عليه نقوش بألوان زاهية بينها خيوط
القصب تمثل أشجارا وأنهارا وطيورا وأسماكاً ، توهم الناظر انه
في حديقة يانعة الثمار جرت فيها الجداول وتغنن فيها الأطياف .
وعلى حواشي البساط ونش جميل . وسقف الايوان قبة عظيمة
الامتداد مبنية على ثلاثة عقود كل عقد قائم على خمسة أساطين ،
وعلى سقف القبة نقوش وكتابة . وفي وسط الايوان ستارة من
الحريير الصيني معلقة عرضا بين الحائطين ، تحجب الخليفة عن
يجالسه على عادتهم في مجالسة الخلفاء يومئذ ، الا من اختار
الخليفة تقديمه ورفع الستارة بينه وبين أهله وخاصته

ورأى اسماعيل الكراسي المنصوبة خارج الستارة لجلوس بنى
هاشم وليس عليها أحد منهم .. ويسمى الهاشميون في اصطلاح
تلك الأيام أبناء الملوك أو الأشراف (١) ، وأما الوسائد المطروحة
أمام الكراسي لجلوس الخاصة من الأمراء والقواد .. فرأى على
بعضها أناسا من الهنود عليهم القبعات المزركشة ، وملابسهم من

نسيج الهند .. عليها صور ملونة تمثل بعض الحيوانات الكبرى ولا سيما الفيل . وفي أعناقهم عقود من الجواهر الشينة بينها تعاويد من الذهب تمثل بعض أصنامهم ، وقد جلسوا خاشعين متهيئين ينتظرون أمر الخليفة .. وبين أيديهم على البساط سيوف من صنع بلادهم يقال لها السيوف القلعية ؛ فعلم انهم الوفد القادم من ملك الهند وان أصحاب الكلاب في الدهليز تابعون لهم فأشار صاحب الستارة الى اسماعيل أن يدخل اذا شاء أو يجلس على أحد الكراسي ريثما يفرغ الرشيد من هؤلاء الهنود . وكان اسماعيل قد سمع الرشيد يتحنن فعلم انه جالس هناك على سريره وراء الستارة ؛ ففضل الجلوس هناك حتى يفرغ من هؤلاء ؛ وهو يخشى أن يحولوا بينه وبين ما يريد من مخاطبة الرشيد ؛ ثم سمع الرشيد يخاطبهم من وراء الستار بواسطة الترجمان ؛ وهو صاحب الستارة لأنهم كانوا يختارون أصحاب الستارة من الناطقين باللغات في مثل هذه الأحوال . فقال الرشيد لرئيس الوفد : « ما الذي أتيتمونا به ؟ »

قالوا : « هذه سيوف قلعية لا نظير لها عندنا »

فدعا الرشيد بالصمصامة وهي سيف عمرو بن معدى كرب ، وأمر أحد رجاله الأتراك فقطع بها تلك السيوف واحدا واحدا ؛ وأمر أن يريهم ذلك السيف . فأرأوه .. فاذا هولا فل فيه ؛ فأسقط في أيديهم ونكسوا رؤوسهم ثم قال : « وما عندكم غير هذا ؟ »

قالوا : « أتينا بكلاب لا يلقاها سبع الا عقرتة »

فلما سمع اسماعيل قولهم زاد تهيبا من رؤيتها ، ثم سمع الرشيد وهو يقول : « ان عندنا سبعا ، فان عقرتة كلابكم فهي كما ذكرتم .. اخرجوها الى السباع في أقفاصها ، وأمروا السباع أن يخرج السبع عليها .. ونحن ننظر الى ما يدور بينها من الروشن »

فخرج صاحب الستارة ، وأشار الى الهنود ، فنهضوا ومشوا حتى مروا بالكلاب في الدهليز فساقوها معهم ، وسار بعض الغلمان بهم الى خارج الدار وقد سبق أحدهم الى السباع فأمره بإخراج أسد عظيم فأخرجه ، وجاءوا به الى ساحة أطلق فيها الكلاب القلعية ، ورأى اسماعيل الأسد يخطر ويزار ، مما يؤكد انه سيمزق الكلاب اربا اربا .. فاذا هي قد مزقته ، ورأى الرشيد ذلك من الروشن فأرسل الى الوفد أن يعودوا الى الايوان كما كانوا ، فعادوا وعاد اسماعيل وهو يستغرب مما رآه من الكلاب فلما عادوا قال الرشيد للوفد : « من أين لكم هذه الكلاب ؟ ومن أي جنس هي ؟ »

قالوا : « هي كلاب سيورية تعيش في بلادنا ، لا شبيه لها في العالم »

فقال : « هذه أحب أن أحفظها .. فتمنوا بمقابل هذه الكلاب ما شئتم من طرائف بلدنا »

قالوا : « لا تتمنى سوى السيف الذى قطعت به سيوفنا .. »
 فقال لهم : « لا يجوز فى ديننا أن نهدى اليكم السلاح ،
 ولولا ذلك ما بخلنا به عليكم ، ولكن تمنوا غير ذلك ما شئتم »
 قالوا : « لا تتمنى سواه »
 فقال : « لا سبيل اليه » ثم أمر لهم بتحف كثيرة وأحسن
 جائزتهم ، وانصرفوا (١) وفى نفوسهم رهبة من هيبة الخلافة

- ٣٩ -

مجلس الرشيد

أما اسماعيل ، فانه انتظر حتى فرغ الخليفة من ذلك الوفد
 فعاد الى التفكير فيما جاء من أجله ، وأحب أن يخاطبه على انفراد
 قبل أن يأتى أحد من بنى هاشم أو سواهم فيحول بينه وبين ما
 يريد .. وهو يرى الاسراع فى مهمته قبل ذهاب الفرصة ، فلما
 ذهب الوفد عاد صاحب الستارة ودعاه للدخول على الرشيد اذ
 لا حجاب عليه وقال : « لما علم مولانا أمير المؤمنين بمجيئك أمرنى
 أن أدخلك عليه »
 قال : « وأحب أن لا تدخل علينا أحدا ، ريثما أفرغ من
 حديثى معه »

فوسع له الستارة ما بين شطريها ، فأطل اسماعيل على الرشيد
فراه جالسا على سرير من الذهب الابريز مرصع بالجواهر (١)
فوق سدة في صدر المجلس منصوبة بين اسطواناتين من أساطين
الايوان ، مجللتين بالوشى المنسوج بالذهب ، وقد وقف عند كل
منهما وصفاء في أيديهم المذبات أو المناديل . ووراء السدة من
الجانبين شاكرين بيد كل منهما سيف مسلول . والسدة عبارة عن
مظلة قائمة على عمد من الأبنوس المطعم بالعاج ، سقفا من
الديباج الأسود المزركش بالذهب برسوم جميلة . وفي حاشيته
من الأمام والجانبين أهلة من الذهب مدلاة في كل هلال منها
اترجة ذهب مسبك ، يتدلى من كل اترجة درر كبار بينها الياقوت
الأحمر والأصفر والأزرق على نظام بديع يهر النظر . والرشيد
جالس على السرير في السدة تحت المظلة وعليه ثياب يلبسها عند
استقبال قادم من كبار الملوك أو نوابهم اذا أراد ارهابهم بعز
الاسلام وجلال الدولة وأبهة الخلافة . وقد لبسها في ذلك اليوم
لاستقبال الوفد الهندي ، فكان على رأسه قلنسوة قصيرة حولها
عمامة سوداء من الخز الموشى وبين ثناياها عقود من الجواهر
بشكل مسبحات تملأ الأخلية بين تعاريج العمامة . وفي مقدمتها
فوق الجبهة شبه طرة من الذهب المرصع بالجواهر والياقوت
والزمرد يبرز منها كعرف الطاووس من أسلاك الذهب ، وقد نظمت

(١) الاغانى ١٨٤ - الجزء الثالث

بها لآلىء بينها ثلاث كبيض الحمام عند قاعدة العرف .. وكان على الرشيد جبة سوداء فوقها بردة النبي صلى الله عليه وسلم . فهل يسع المقبل على تلك السدة غير التهييب ؟ أما اسماعيل فكان قد تعود ذلك ، وهو عاقل حكيم لا تأخذه المظاهر المبهرجة ، وكان مع ذلك في شاغل من اعمال الفكرة في حال الخلافة وما يخشاه عليها من التدهور .. وهو يعلم شدة انفعال الرشيد وتسرعه اذا غضب ..

فلما أطل من بين شطرى الستارة ، قال بأعلى صوته : « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .. »

فتحرك الرشيد كأنه يتحفظ للقيام اجلالا لاسماعيل ، وابتسم له وهو يقول : « وعليك السلام يا عماه .. مرحبا بك »

فدخل وأسرع في خطواته ليمنع الخليفة من الوقوف له . أما الرشيد فنهض من مقعده قليلا ، ومد يده وصافح اسماعيل ، وقال : « لقد أتيت أهلا يا عماه ، أمثلك يستأذن في الدخول ؟ » ثم أوما الى الوصفاء فقدموا له مقعدا وضعوه بجانب السرير ، وأشار الرشيد اليه بالجلوس وهو يتسم ترحابا واستئناسا . فجلس وأثنى على ما قوبل به من الرعاية والحفاوة ، ودعا للرشيد .. ولبث ساكتا على عادة من يجالس الخلفاء فانهم لا يبدأون الخليفة بكلام . فاستحسن الرشيد تأدبه مع علمه بكبر نفسه ودالته فقال : « لقد أتيتنا لخبر ان شاء الله ، فإني منقطع عنا منذ أيام ولا تأتينا

الا لنصيحة أو مهمة ، ونحن كل يوم نرجو لقاءك »
 قال : « انى يا أمير المؤمنين أقيم فى البصرة ، وقلمما آتى
 بغداد ، ولو علمت لدخولى على الخليفة نفعا لقضيت سحابة عمرى
 بين يديه . وأما الآن فقد أتيت ألتمس منه فضلا بالاضافة الى
 عطاياه المتوالية ونعمه السابغة .. »

قال : « قل ماشئت فانك صاحب الأمر معنا »
 فأكبر اسماعيل تلك المجاملة وأحنى رأسه امتنانا ، وبداه
 ملمومتان فى حجره وقال : « ان الأمر لمولاي ، جعله الله له وحده
 لاينازعه فيه أحد . وهو ينعم بما يشاء من فضله ، فاذا سمح
 مولاي بكلمة فانى أستأذنه فى الخلوة »

فأوما الرشيد فخرج الوصفاء والشاكرين وأقبل هو بكليته
 على اسماعيل ، وقد أبرقت عيناه اهتماما وتفريسا لعلمه ان
 اسماعيل لا يطلب الخلوة الا لأمر ذى بال
 فنظر اسماعيل الى الرشيد ، وقال : « هل أتكلم ؟ .. »
 قال : « تكلم .. اطلب ما تشاء .. »

فقال : « لا يخفى على مولاي ان جعفر ابن أخى الهادى من
 خيرة بنى أعمامنا »

فلما سمع الرشيد اسم جعفر أوجس خيفة مما قد يتلوه من
 اقتراحات لا يروق له تنفيذها ، ولكنه أظهر اللطف وقال : « نعم
 انه ابن أخى ، فهل هو فى حاجة الى عطاء ؟ »

فقال : « كلا يامولاي .. لأن نِعَمَ أمير المؤمنين تتوالى عليه
كما تتوالى على سائر بنى هاشم ، ولكنه يود الزيادة في شرفه »
فأدرك الرشيد بفراسته ان اسماعيل انما جاء خاطبا ، فتجاهل
وقال : « ان قرابة الرسول أعظم أسباب الشرف له ولنا »
فقال : « نعم .. هو كذلك ، ولكنه يحب التقرب من عمه
أمير المؤمنين وخليفة سيد المرسلين »

فلم يبق عند الرشيد شك في انه جاء يخطب ابنته لجعفر ،
فابتدره قائلا : « كل ما تقترحه يا عماء ينفذ الا خطبة العالية.. »
فاستغرب اسماعيل تلك المفاجأة وقال : « وأنا لم آت لأطلب
سواها .. فاذا كان ذلك ممتنعا فالأمر لأمير المؤمنين ، ونحن
مطيعون لارادته تدعو له بطول البقاء .. على ان ما خولتني من
الدالة يشجعني على سؤال أرجو أن لا يثقل على مولاي »
فقال : « قل .. فان لك رعاية وحقا »

قال : « لعل أمير المؤمنين لا يرى ابن أخيه كفؤا لمولاتنا
العالية .. فمن يا ترى أكثر كفاءة لها من ابن عمها أخى أبيها
حفيد الملك النبيل والشيخ الجليل (يقصد المنصور) ؟ »
فقال الرشيد وهو يعث بقضيب الخلافة بين أنامله : « أما
الكفاءة فلا ينازعه أحد فيها كما ذكرت .. ولكن سبق السيف
العزل .. فان العالية مخطوبة .. »

فاستبعد اسماعيل أن تخطب بنت الخليفة ولا يعلم هو

بخطبتها ، وظن أن الرشيد يقول ذلك ليبرر رفضه ، فقال :
« العالية مخطوبة ؟ .. انى لا أعلم بذلك ، ولو علمت به ما أقدمت
على طلبها ، ولم أكن أظن أن أحدا يمكن أن يظفر بذلك غير ابن
عمها !.. »

فتحرك الرشيد في مجلسه ، ونظره على البساط ، وقال وهو
يحاول اخفاء ما كاد يظهر على وجهه من الانفعال : « نعم .. لكن
وزيرنا جعفر طلبها لابراهيم بن عبد الملك بن صالح ابن عمنا
فلم نرد طلبه .. »

فلما سمع اسماعيل فوله أطرق وتشاغل ببلع ريقه وقد عظم
عليه فشله . ولكن غضبه من نفوذ جعفر الى هذا الحد كان أعظم
عليه من ذلك الفشل ، على أنه تماسك مخافة أن يظهر غضبه فيؤدى
الى النقمة عليه ، وظل مطرقا والرشيد ينظر اليه ويراقب ما يبدو
منه وهو يود الاكتفاء بما تقدم . فلما طال سكوت اسماعيل قال
الرشيد : « انه يؤسفنى أن أرد طلبك لولا ما قلت لك من اتمام
الخطبة ، وأنت تعلم ان الرجوع عن ذلك لا يليق .. فاطلب لابن
أخينا منة أخرى »

— ٤٠ —

الفشل

فرجع اسماعيل بصره ، واغتتم رغبة الرشيد في التعويض عن

رفضه لطلبه ، وقال : « صدق مولاي ، ان الرجوع عن الوعد لا يليق بمقامه ، وأنا أعلم ذلك لثقل ما أقاسيه من رجوعى بخفى حنين بعد أن وعدت ابن أخى بهذا الشرف وقد تسرعت فى وعدى ولكننى لم أفعل ذلك الا رغبة فى صيانة الدولة لما يعلمه مولاي من غيرتى على سلامتها .. »

فأدرك الرشيد ما يعرض به من الرغبة فى ارضاء ابن أخيه الهادى ليشغله عن طلب الخلافة أو الوقوف فى سبيلها . وقد تعود الرشيد أن يسمع من اسماعيل ما هو أكثر صراحة من ذلك مما لا يتجرأ سواه على بعضه ، ومع ذلك فان هذا التعريض أثار غضبه لأن الخلفاء العباسيين لم يكونوا يغضبون لشيء مثل غضبهم لما يشتم من رائحة التعرض للملك ولو تلميحاً . ولكنه تمالك وكظم غيظه وتجاهل وقال : « انك مشهور بغيرتك على دولتنا وهى انما تتأيد بآراء أمثالك من شيوخ الحكمة وأرباب رأى السديد وهم قليلون . وأما ابن أخى فانه من لحمى ودمى وأحب له ما يرضيه ، فهل من شيء تطلبه له غير خطبة العالية ؟ »

فقال : « أطل الله بقاء أمير المؤمنين .. انى أراه يبالغ فى مجاملتى ، ولكن يسرنى أن يعلم الغاية التى أقصدها .. فأرجو منه أن يسند الى ابن أخيه عملاً يشغله .. ونظراً لقرابته من الخليفة ، فأطلب له ولاية مصر أو خراسان .. »

فوجم الرشيد عند سماعه ذلك وبدأت البغته فى عينيه وهز

رأسه استغراباً لذلك الاتفاق وقال : « وهذا لا سبيل اليه ياعماه فاني وعدت وزيرى فى صباح الأمس بولاية مصر لابراهيم المذكور ، وأما خراسان فقد وعدته بها لنفسه منذ أيام وقد كتبت ذلك ، ولم أخبر به أحدا ، ولولا انك اسماعيل ما صرحت لك به .. »

فضاق اسماعيل ذرعا من توالى الفشل على هذه الصورة ، وعاد الى الاطراق واعمال الفكرة ، ولم ير بدا من التصريح بغرضه من تلك الاقتراحات .. فعاد الى ما فطر عليه من حرية القول ونسى موقفه وما يعلمه من سوء العاقبة اذا غضب الرشيد فقال : « فليأذن لى أمير المؤمنين فى أن أبوح له بما فى ضميرى ، فأخاطبه باعتبار انه هرون بن محمد ، وأنا ابن عمه اسماعيل بن يحيى .. » وتنحنح واعتدل فى جلسته والرشيد يتجلد لسماع قوله ، وهو يكاد يتلقفه بعينه من شدة التفرس

فقال : « أنت تعلم غيرتى على سلامة هذه الدولة وشدة محافظتى على بقاء هذا الخاتم بيد هرون ، وهذه البردة على كتفيه ، وتعلم أيضا ما قد يجول فى خاطر ابن أخيك .. وأنا أعلم عجزه عن الظفر به ، ولكن المصلحة وحسن السياسة يقضيان علينا بتلافى أسباب الفتن ، لئلا يرى أعداؤنا ضعفا فينا فيغتالونا ، وهم كثيرون ، يكفى منهم الروم فى القسطنطينية ، والأمويون فى الأندلس .. وأنا أومن بعجزهم عن الفوز ، ولكن الحكمة تستدعى

التكاتف وجمع الكلمة . وهذا سهل على الرشيد اذا استخدم ذكاه ودهاءه فيشغل أهل المطامع من أهله بخدمة دولته بدلا من أن يتفرغوا لاقلاق راحته .. »

فبادر الرشيد الى قطع كلامه خوفا من استرساله في الحديث حتى يصرح بأكثر من ذلك ، فيغلب الغضب عليه ولا يقوى على التماسك فقال : « قد كان بودنا أن نولى ابن أخينا مصر ، لولا ما قدمته من الوعد بها لابراهيم .. فهل ترى لى حيلة أخرى ؟ » فأسرع اسماعيل بالجواب قائلا ، وقد غلبت عليه الانفة والاستقلال بالرأى : « لى حيلة واحدة .. »

قال : « وما هى ؟ »

فقال وكفاه على ركبتيه كأنه يتحفز للقيام : « تباع له بالخلافة بعد محمد وعبد الله (الأمين والمأمون) .. افعل ذلك ولو على سبيل الرضاء .. »

فلما سمع الرشيد قوله ألقى القضييب من يده على السرير ونهض بغتة ونزل الى البساط بسرعة حتى انحرفت البردة عن كتفيه وكادت تسقط ، وقد نسى موقفه ومنزلة اسماعيل عنده ، ثم أصلح البردة وجعل يخطر فى الايوان .. فنهض اسماعيل وقد أدرك أن بقاءه هناك أصبح خطرا ولا فائدة منه ، وأجّل التصريح بما فى نفسه لفرصة أخرى . فتراجع من موقفه وقد رأى بنهوض الخليفة مسوغا لخروجه من حضرته لأن ذلك من علامات الاذن

بالانصراف عند الخلفاء ، ولكنه لم يشأ الخروج على تلك الصورة
لئلا يسيء الرشيد الظن به فقال : « أظن ان أمير المؤمنين قد ندم
على ما سمح لى من اطلاق لسانى بين يديه ، وأظننى قد تطاولت
فى الدالة عليه الى أبعد مما ينبغى فتدخلت فيما لا يعينى ..
فأعذر له عن جسارتى .. »

وكان الرشيد قد وقف وتشاغل بقراءة بيتين من الشعر
منقوشين على حائط الايوان ، فلما سمع قوله تحول اليه وتكلف
ابتسامة لم تخف غضبه ، وقال : « ان اسماعيل عندنا فى المقام
الذى تعلمه ، وله فضل النصيح والمشورة على الدولة ، فلا
يزعجك ما رأيته من وقوفى فجأة . واذا غضبت فان غضبى لك
لا منك ، وكيف أغضب من شيخ بنى هاشم وحكيم بنى العباس ؟
ولكن ساءنى انك لم تطلب أمرا ممكنا لكى أجيبك اليه حالا ،
مع رغبتى فى رعايتك واکرامك .. »

فأدرك اسماعيل من خلال قوله ما كان يحاول اخفائه من
الغضب ، وما يتكلفه من التلطف فى الجواب ، فقال : « أشكر
لمولاي تفضله وحسن قصده ، والظاهر ان سوء طالع ذلك الرجل
قد أوجب هذا الاتفاق .. اذ لكل وقت طالع وكأن طالع هذه
الساعة لا يوافق حظه .. فهل يأذن مولاي بانصرافى الآن وتوكل
ذلك الى ساعة خير من هذه ؟ »

فسر الرشيد لطلبه الانصراف فى تلك الحال وقال : « لا بأس

من انصرافك يا عماه »

فرجع اسماعيل وهو منحني يمشي القهقري بين يديه على جاري
العادة في الخروج من مجالس الخلفاء حتى وصل الى الستارة ،
وخرج والرشيدي واقف ينظر اليه ، وقد احتدم في نفسه من الغضب
ما أقلقه وحبب اليه الخلوة بنفسه

- ٤١ -

عبد الملك بن صالح

أما اسماعيل فخرج توا الى جواده ، وقد ندم على مجيئه ..
فركب ومشى الغلامان في ركابه ، وهما غافلان عما يتقد في قلبه
من الغضب وما يتردد في ذهنه من الأسف على حال تلك الدولة
بما يعلمه من تضارب الأحزاب واختلاف الأغراض . فوصل الى
قصره والشمس قد تكبدت السماء ، فوجد ابن الهادي في
انتظاره . واستفهم منه عما جرى ، فقص عليه بعض الخبر وأبلغه
عذر الرشيد في امتناعه عن زواجه بالعالية ، وبالنسبة في الاعتذار عنه
لئلا يثير غضبه .. ولم يخبره بطلب ولاية مصر ، ولا ولاية العهد
الى أن قال : « واني آسف لما اتفق لي من الفشل ، والرشيد أكثر
أسفا مني على ذلك ، ولكن لا حيلة لنا في الواقع فاصبر وكن
عاقلا ، وسنغتني وقتنا غير هذا للتحدث في هذا الأمر ، فان الرشيد

حسن الظن بك .. »

فلم يَخَفْ على جعفر غرض اسماعيل من تلطيف الخبر، ولكنه سايره وقال : « انى مذعن لأمرك .. ولكن هل تعلم السبب الذى بعث على خطبة العالية لابراهيم ؟ »

قال : « كلا .. ولكن للوزير دالة على الخليفة ، ولعبد الملك دالة على الوزير ، فيبدو انه طلب منه أن يتوسط له بخطبتها عند أمير المؤمنين وهو ابن عمها وكفاء لها فأجاب طلبه »

قال : « لو كان الأمر كذلك لهان ، ولكننى أقص عليك السبب ليثبت لديك ما قلته عن استخفاف هؤلاء الموالى بالخليفة وأهله . أخبرنى جاسوس لى عند جعفر فى صباح هذا اليوم ان هذا الوزير كان فى مجلس أنس خلا فيه بندمائه ، فلبس الحرير وتضمخ بالطيب .. وكذلك فعل سائر جلسائه ، وأمر حاجبه أن يحجب عنه الجميع الا عبد الملك بن بجران قهرمانه .. فسمع الحاجب لفظ عبد الملك ولم يسمع لفظ ابن بجران . وكان عبد الملك بن صالح ابن عمنا يترقب فرصة يخاطب فيها الوزير فى بعض حاجاته ، فلما سمع بذلك المجلس قدم الى داره فجاء الحاجب وقال لجعفر ان عبد الملك بالباب ، فظنه ابن بجران فأمر بادخاله فدخل وهو فى سواده وقلنسوته فرأى القوم فى ملابس المنادمة . ولما رآه جعفر اربد وجهه ، وأنت تعلم ان عبد الملك لا يشرب النبيذ ، فلما رأى تلك الحال خلع السواد والقلنسوة وطلب ثياب

المنادمة ودخل وسلم وقال : « اشركونا في أمركم وافعلوا بنا مثل ما تفعلون بأنفسكم » فجاء الخادم وألبسه ثياب المنادمة ، وأحضر الطعام فأكل ، ونبىذ فأتوه برطل فشربه ، ثم قال لجعفر : « والله ما شربته قبل اليوم » . فزاده جعفر من النبىذ وأتوه بالطيب فتضمخ ، ونادم القوم أحسن منادمة فذهب عن جعفر خجله . فلما أراد عبد الملك الانصراف قال له جعفر : « اذكر حاجاتك فاني لا أستطيع أن أكافئك على ما كان منك » . فقال : « ان في قلب أمير المؤمنين مودة على فتخرجها من قلبه وتعيد الى جميل رأيه في » . فقال : « قد رضى عنك أمير المؤمنين وزال ما عنده منك » . فقال : « وعلى أربعة آلاف درهم ديناً » قال : « تقتضى عنك ، وانها لحاضرة ، ولكن كونها من أمير المؤمنين أشرف بك وأدل على أحسن ما عنده لك » . قال : « وابراهيم ابني أحب أن أرفع قدره بنسب ينتمى الى الخلافة » . قال : « قد زوجه أمير المؤمنين العالية ابنته » . قال : « وأوثر التنبيه على موضعه برفع لواء على رأسه » . قال : « وقد ولاه أمير المؤمنين مصر » (١)

« فانظر الى هذه الجرأة التي ليس أغرب منها الا رضاء الرشيد بها ، وقد فعل جعفر ذلك مكافأة على شرب النبىذ ونحن نلوم ابن عمنا الأمين مع صغر سنه على شربه ونعده خليعاً ، وهذه هي الخساسة ولا يخفى عليك اضرارها بالملك . ومع ذلك فان

(١) ابن خلكان ١٠٥ - الجزء الاول

الرشيد أطاع جعفر ، ولم يفكر فيما يترتب على ذلك من ضعف الملك «

وكان اسماعيل يسمع كلام ابن الهادي وهو يكاد يتميز غيظا ، ولكنه اختصر في الجواب وأظهر الاستخفاف بالقصة وقال : « هكذا أبلغك الجاسوس ولا يخلو قوله من مغالاة .. ومع ذلك فليس هذا بالأمر الهام ، واني أرجو أن تكتم ما دار بيننا وتصبر لنرى ماذا يكون »

فسكت جعفر عن احترام ، لا عن اقتناع ، فقال اسماعيل : « فاذهب الى البصرة وسألحق بك بعد يومين »

فقال : « سمعا وطاعة » فودعه وأظهر انه يتأهب للسفر ، وانشغل اسماعيل عنه ، فاخفى يوما ثم أتى الى الفضل بن الربيع في منزله .. وكان الفضل لا يزال يفكر في أسلوب يبلغ الرشيد به خبر العلوي ، وقد عاد محمد الأمين وأخبره بحديث والدته أم جعفر وما دار بينها وبينه من خبر العلوي وما في نفسها على البرامكة . ولم يكن الفضل يجهل ذلك ، فلما جاءه ابن الهادي رحب به فأخبره بما سمعه عن أمر عبد الملك بن صالح وزواج العالية ، وما يدل عليه ذلك من ضعف الخليفة واسبداد البرامكة وحرّضه على ابلاغ خبر العلوي الى الرشيد

فقال له الفضل : « قد أعددت كل شيء .. »

قال : « وهل اخترت من يقوم بذلك ؟ »

فقال : « ليس لنا الا أبو العتاهية ، فانك تشتريه بالمال وله دالة على الخليفة »

قال وقد تذكر أمرا قد نسيه : « وهل عاد من اقتصاص أثر الطفلين ؟ »

فقال : « عاد وقد قبض عليهما وحبسهما في مكان أمين لوقت الحاجة »

فأبرقت أسارير جعفر وقال : « لقد قتل البرمكي لا محالة .. والآن دبّر ما تراه لا بلاغ الخبر الى الرشيد ، فاني منصرف من بغداد لأن عمي اسماعيل ألح عليّ في الانصراف وأنا واثق انك كفء لانجاز العمل .. »

قال : « كن مطمئنا .. »

فودعه ورجع وهو يتوهم انه أغرى الفضل واستخدمه في مصلحته ، والفضل يعتقد انه استخدم ابن الهادي لغرضه ، لأنه اذا سقط البرامكة عادت الوزارة اليه .. ولم يخف عليه ما في نفس ابن الهادي على الرشيد وانه إنما يسعى في مصلحة نفسه لارجاع الخلافة اليه ، ولذلك كان يوهمه انه يسعى في مساعدته على نيل الخلافة على حين انه كان يعمل على ارجاع الوزارة له .. ولا يهمه أكانت وزارته للرشيد أو لسواه . فكانت النيات مختلفة والدسائس متنوعة والمساعى متضاربة ، ولكن الغرض متفق فيها

كلها وهو اسقاط البرامكة بأية وسيلة كانت . واذا أراد الله أمرا
هياً له أسبابه

- ٤٢ -

المناجاة

فلندع الفضل في مساعيه .. ولنعد الى الرشيد ، فقد تركناه
في الايوان وحده ، فلما خلا بنفسه ساءه خروج اسماعيل على
تلك الصورة مع رفعة مقامه وجلال قدره ، فأخذ يفكر فيما دار
بينهما ، ويردد ما قاله له ، فلم يجد في امكانه أن يفعل غير
ما فعله . فجعل يخطر في الايوان جيئة وذهابا ، وقد ذهب عنه
الغضب وتراكت عليه الهواجس ، فتذكر حاله مع وزيره ، وما
بلغ اليه من نفوذ الكلمة عنده حتى أصبح أكثر وجاهة ونفوذا
من أبناء عمه ، ثم عاد الى صوابه ، فرأى انه مضطر لذلك ببواعث
كثيرة ، لأن الوزير قابض على مصالح الدولة يدير شئونها
ويتصرف في أعمالها بحكمة ودراية . وقد أراحه من مشاغلها
وخفف عنه أثقالها ، فضلا عما بينهما من روابط إلقاء والمحبة
وما لأبيه يحيى من الفضل عليه ، وهو الذي أقامه على منصة
الخلافة بحسن تدبيره . ثم اعترض حسن ظنه به ما يعلمه من ميله
الى الشيعة العلوية ، وما يراه من كثرة الطاعنين عليه ، ولكنه

كان يحمل طعنهم عليه محمل الحسد منه

وبينما هو يمشي في الغرفة ويفكر على هذه الصورة اذ لاحت منه التفاتة الى السرير فرأى القضيب الذي كان قد وضعه هناك فتقدم ليتناوله ويتشاغل به في أثناء هواجسه ، فوقع نظره على بطاقة وراء الوسادة فالتقطها وفضها وقرأها فاذا فيها الأبيات التي قرأتها أم جعفر زوجته على ابنها محمد وقد تقدم ذكرها .. فلما بلغ الى قوله :

ونحن نخشى انه وارث ملكك ان غيبك اللحد
ولن يباهى العبد أربابه الا اذا ما بطر العبد

توارد الدم الى رأسه ، وحمى غضبه ، فأعاد النظر الى البطاقة فقرأها ثانية وهو يعمل الفكرة ، وقد نسي البحث عن سبب وضعها هناك لعظم ما كان من تأثيرها على ذهنه ، فعاد الى التفكير في جعفر ، وما بلغ اليه من الثروة والاستبداد حتى يزوج بنات الخليفة ويولى الأمصار لمن يشاء ، ويهب الأموال بلا مشورة ، لا يخشى بأسا ، ولا يخاف اعتراضا ، فقال في نفسه : « لقد آن لك ياهرون أن تستيقظ من نومك وتنظر في أمر هذا المولى وما بلغ من تطاوله ، فانه لا يلبث أن يمد يده الى أعظم من ذلك ، والعياذ بالله ! » ثم وثب من موقعه والقضيب مشهر بيده كأنه يهاجم عدوا وهو يقول :

ان سهامنا اذا وقعت بقدر ما تعلو بها رتبة

واذا بدت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه (١)
ثم تراجع ونظر حوله فرأى ما هو فيه من النعيم والأبهة ،
وتصور انه اذا مات أفضى الأمر الى جعفر لأنه لا يجهل ضعف
إبنه الأمين ، ويعرف قوة المأمون وهو ابنه أيضا ، ولكن يميل
الى الفرس لأنه ربي في حجر جعفر وشب على حب الشيعة ، فاذا
أفضى اليه الأمر وجعفر حى خرجت الخلافة من بنى العباس .
فندم على تسليم المأمون الى جعفر واهمال الأمر الذى كان
ينبغى أن ينظر فيه قبل كل شئ .. وهو بقاء الدولة لبنى العباس .
ثم تذكر كيف حرضه جعفر على المبايعة للمأمون ، ولم يكف عنه
حتى أطاعه ، فتوهم ان ذلك انما فعله لينقل الخلافة الى الشيعة
بعد ذهابها من يد الأمين .. فصرّ على أسنانه ندما ثم عض أظفاره
وهز رأسه وقال :

لقد بان لى وجه الرأى لى غير اتنى
عدلت عن الأمر الذى كان أحزما
فكيف يرد الدر فى الضرع بعد نما
توزع حتى صار نهبا مقسما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه
وان ينقض الجبل الذى كان أبرما
وعاد فرجع الى رشده وأعمل فكرته فى حقيقة الواقع ، فغلب

عليه الخوف من جعفر .. لما يعلمه من كثرة مريديه وأنصاره وفيهم
جماعة كبيرة من خيرة رجال الدولة ، حتى بنى هاشم ممن غمرهم
بعطاياه وأسرتهم بأفضاله .. فكانت هذه الهواجس تتردد في
مخيلته وهو يمشى في الايوان ، ويداه وراء ظهره . واتفق وهو
في ذلك أن وقف أمام الستار ، فقرأ عليه بيتين مطرزين بالقصب
هذا نصهما :

واياك والأمر الذي ان توسعت
موارده ضاقت عليك المصادر
فما حسن أن يعذر المرء نفسه
وليس له من سائر الناس عاذر
فلما قرأهما أمسك نفسه وعاد الى صوابه ، ونظر الى البطاقة
التي في يده وقال : « لعل الذي كتب هذه الأبيات من حساد
جعفر وهم كثيرون ، واني على أى حال صابر له ، أترقب الفرصة
للاطلاع على الحقيقة »

- ٤٣ -

باب الرشيد

قضى في تلك الخواطر وأمثالها حيناً وهو يقف تارة ، ويمشى
أخرى ، وعليه تلك الملابس الفخمة ، وإذا بالحاجب يدخل وهو

يقول : « ان الشعراء والندماء يباب العامة منذ الصباح لأنه يوم الجلوس لهم .. فهل يأمر أمير المؤمنين ببقائهم أو بصرفهم ؟ »
فلما سمع الرشيد قوله اتبته لنفسه كأنه هب من النوم ، وتحير في أمره لأنه في حال لا يروق له معها مجالسة الندماء والشعراء ، وإنما يفضل الخلوة ، ولكنه استنكف أن يشعر أحد بقلقه اذا صرف الشعراء فقال : « مَن بالباب من هؤلاء ؟ »

قال : « هم كثيرون وفيهم المقيمون في بغداد من أهل الرواتب المعينة والأرزاق الجارية ، وفيهم الوافدون للاستجداء من أطراف البلاد »

فقال : « أما الوافدون فنأذن لهم في وقت آخر ، اصرفهم الآن وقل لصاحب بيت المال أن يسخو لهم في العطاء ويطيّب خواطرهم .. ومن بالباب من أهل الرواتب ؟ »

قال : « فيهم من العلماء الأصمعي ، والكسائي : وأبو عبيدة » فقطع كلامه وأشار اليه بيده ولسان حاله يقول : « دعني من العلماء واذكر غيرهم »

فقال : « أما الشعراء فمنهم الحسن بن هانئ (أبو نواس) وأبو العتاهية ومروان بن أبي حفصة .. وأما .. »

فأشرق وجه الرشيد عند سماع اسم مروان لأنه كان يستطيب شعره لما فيه من الطعن على العلويين ، ولكنه لم يجد في نفسه ميلا لسماع الشعر أو الأدب ، وأدرك أنه لا يجلو ما في خاطره

غير الغناء فقال : « دع هؤلاء الشعراء الثلاثة فقط يدخلون الى قاعة الشراب في هذا القصر ، وأخبرني هل بياينا أحد من الندماء والمغنين ؟ »

فقال : « أما المغنون فرأيت منهم بعض أصحاب مولانا ابراهيم بن المهدي أخى أمير المؤمنين ، الذين هم على طريقته في الغناء ، كابن جامع ، وابن نابه ، وابن أبى العوراء ، ويحيى الملكى ، ورأيت بعض أصحاب اسحق الموصلى المعجبين بطريقته وسمعتهم يتقارعون في أى الطريقتين أفضل .. »

فقطع الرشيد كلامه وقال : « دعنا من هذه الطبقات فانى لا أرى الاجتماع للمناظرة في طرق الغناء اليوم .. فادع برصوما الزامر ، وأبا زكار الربابائى الأعمى ، وحسينا الخليع . وأما الغناء فأحب سماعه من قيان القصر .. » ثم أطرق وقال : « ولكن ذلك لا يحلو الا بوجود ابراهيم الموصلى .. ادع لى مسرورا الخادم » فأشار مطيعا وخرج .. ثم أتى مسرور بسيفه وفظاظته وحيئا ، فقال له الرشيد : « التى بابراهيم المغنى على عجل .. » فظل مسرور واقفا .. فعلم الرشيد انه يريد أن يتكلم ، فقال : « ما بالك لا تذهب ؟ »

قال : « لا أدري أين أجد ابراهيم الآن ، وأمير المؤمنين قد أذن له أن يختلى بأهله يوما في الاسبوع لا يطلبه فيه .. وهذا هو اليوم »

فقال : « احضره حيثما كان ولا نراجعنى .. »

فلم يسه الا الطاعة فخرج . وصفق الرشيد فجاءه أحد الغلمان فقال : « اتى بصاحب الملبس » وهو الذى يلبس الخليفة ثيابه فأنى .. فقال له : « انى عازم على مجلس منادمة فلبسنى ثيابها » فخرج ثم عاد ومعه عدد وصفاء يحملون تلك الثياب ، وهى غلالة وشى منسوجة بالذهب ، وعمامة صغيرة موشاة ، وأزرار رشيدى عريض العلم مخرج .. تلك كانت ملابسه الصيفية فى مثل هذا المجلس . وجاء غلمان آخرون فى أيديهم المباخر فيها العود والند . وفى أيدي آخرين جامات الطيب . فبدأ صاحب الملابس بنزع ما على العمامة من الحلى حتى حل العمامة وأخذ البردة والجبّة ، ثم ألبسه الغلالة وعسه وناوله الأزار فاتشح به . فلما فرغ من لبسه خرج من باب فى الأيوان يؤدى الى دار النساء وما زال ينتقل من رواق الى آخر . ومن دار الى أخرى حتى دخل دارا مفروشة الصحن بالرخام والحيطان موشاة بالوشى المنسوج بالذهب . ومنها الى قاعة أرضها وحيطانها مرصعة بالوشى المذكور ، وقد نصبوا له هناك سريرا من الصندل وأرخوا فى منتصف الغرفة ستارة من ذلك الوشى المطرز عليها نقوش جميلة ، وحول أرض الغرفة ابوساتد من الوشى المطرز وليس عليها أحد ، لأن الشعراء يجلسون فى القسم الآخر من الغرفة وبينه وبينهم الستار

فلما جلس هناك ووقف الغلمان بين يديه تذكر انه جائع ولم يتناول الطعام منذ الصباح ، فأمر صاحب الطعام بأن يأتيه ببعض الأطعمة المستعجلة . فنصبوا له سمطا وأتوه أولا بالمرق من السكاج تنشيطا لجسمه ، ثم جاءوا بالبقول المطبوخ . ثم الدجاج فالشواء من الحمام أو الدراج ، فأنواع السمك . وبعض ما يطبخ بالنوابل من اللحم والبقول . ثم قدموا له رقاقا من السنوسج المحشية باللحم والدهن عليها التوابل من الفلفل والزنجبيل . ثم الحلوى من الفالودج واللوزينج . وأخيرا النقل للتعلل بعد الطعام . وكان يأكل وخاطره قلق حتى اذا فرغ من الطعام سمع عودا يضرب ضربا مطربا على نغم لم يسمعه من قبل

فأصاخ بسمعه فأطربه ذلك الصوت ، وعلم انه آت من الرواق وبينه وبين ذلك المكان ستارا ، فشرع بذهاب الانقباض عن صدره شيئا فشيئا ، وهو يعجب لذلك النغم الغريب . وقد أدرك من نعومته انه صوت جارية فصاح : « من يغنينا في الرواق ؟ .. جزاء الله خيرا »

فسمع الجواب من وراء الستار : « هذه قرنفلة وصوتها مثل رائحتها » فعلم الرشيد ان الذي يخاطبه حسين الخليع فصاح فيه : « قبحك الله .. وأى قرنفلة ؟ »

فقال : « هي جارية أرسلها مولانا ولي العهد هدية لأمية المؤمنين في هذا الصباح . غنى ياقرنفلة ، ان الخليفة طرب لصوتك

فيا لسعادتك .. ويا لينى كنت مكانك فيغنينى ذلك عن اللطم
والصفع على الأقل «

فلما سمع الخليفة مجونه ضحك . وضحك سائر السامعين الا
حسينا المذكور فانه اسأنف الكلام قائلا : « هذا هو حظى
بنقربى من الخلفاء ، أنا أبكى وهم يضحكون .. فعسى أن يسعدنى
الحظ وأصير قرنفلة أو وردة يشمنى الناس ويسمعون صوتى
أو يرفقون بجلدى .. ولكننى أخاف — لادبار سعدى — أن
يجاب دعائى ويقع الالتباس فى طلبتى فيجعلنى القضاء بطيخة أو
سكباجة فيأكلنى الناس ويتمتعون بى وأصير أنا الى ظلمة
الأحشاء وبئس الظلمة . غنى يا قرنفلة غنى .. أطلب من الله أن
يقينى على ما أنا عليه .. وقد قيل : نحس تعرفه ، ولا سعد
تتعرف به .. »

فأغرق الرشيد فى الضحك ، ولم يبق أحد هناك الا قهقهه ، ثم
سكتوا جميعا ينتظرون ما يبدو من الرشيد . ولم يكن عنده أحد
من الندماء أو الخاصة الذين يجالسونه بلا حجاب، فلم يكن يرى
وجهه فى ذلك المجلس الا الغلمان والوصيفات الواقفات فى خدمته
أو الترويح له . وسكت الرشيد لحظة وهو يغالب هاجسا مما كان
فيه ذلك الصباح ثم قال : « قد علمت ان هذه القينة جديدة
عندنا منذ سمعت ضربها وغناها مع كثرة من فى هذا القصر من
القيان .. قبح الله ابراهيم الموصلى .. أين هو ؟ »

فقال الحاجب : « قد ذهب مسرور في أثره ولم يأت بعد »
 فقال : « انصبوا الستارة لهذه المغنية وضموا اليها أحسن
 من في قصرنا من القيان ممن أتقن الصناعة على يد إبراهيم ..
 وأحضروا الشراب .. »

- ٤٤ -

مجلس المسادمة

فسر السامعون بتلك الأوامر لما سيشتف آذانهم من
 معجزات الطرب . وكان في قصر الرشيد ثلثمائة قينة فيهن العوادة
 والجنكية والمزهرية والطنبورية وغيرها (١) .. من المتقنات
 للضرب على آلات الطرب ، وإن تفاوتن في المنزلة لديه بتفاوت
 الجمال ودقة الصنعة ، غير ألفى جارية لا يحسن الغناء وهن
 السراري . فأسرع الغلمان لتدبير ذلك .. وكان المنوط بالسراري
 والقيان مسرور الخادم وهو غائب فتاب عنه قيّم الجواري . ثم
 جاء صاحب الشراب بمائدة الشراب وما تحتاج إليه من الأباريق
 والأقداح من البلور والذهب والفضة ، وعليها النقوش على نحو
 ما وصفناه في مصطبة الأمين . وأما الأشربة التي تعاطوها في ذلك
 المجلس فأنواع .. الأنبذة المصنوعة من عصير العنب ومنقوع التمر

^١ (١) أعلام الناس ١١٣.

أو التفاح أو المشمش أو غيرها من الفاكهة اللذيذة ، وأشربة من
محلول العسل أو الدبس أو غيرها . فلما انتظمت القيان للغناء
دار الساقى بأباريق الشراب على الرشيد ، فشرب قليلا وهو
محجوب عن القيان بستارة ، وعن الشعراء بستارة أخرى ، ومع
القيان برصوما ، وأبو زكار . وكان كلما غنت احداهن صوتا
عرفها وطرب لها وناداهما باسمها . ثم صاح بالحاجب فأتى ، فقال
له : « قل للحسن بن هانىء أن ينشد ما عنده »

فبلغه أمر الرشيد فقال أبياتا كان قد هيأها فأنشدها انشادا
على عادة الشعراء فى مجالس الخلفاء ، فطرب الرشيد وصاح :
« وأنت يا ابن أبى حمصة ؟ »

فقال : « لبيك يا أمير المؤمنين » وأخذ ينشد قصيدة نظمها
فى مدح الرشيد ضمنها التعريض بالعلوين ، ذكرته بما كاد ينساه
من هواجسه فصاح فيه : « دع عنك هذا الآن .. قل لأبى
العتاهية هل هو باق على الزهد فى الشعر ؟ »

فأجاب أبو العتاهية : « ان ما نسمعه يا أمير المؤمنين من
أسباب الطرب يرمى الزهد بالمنجنيق »

فاستلطف الرشيد تعبيره وضحك وهو يقول : « هذا هو
الشعر بعينه .. فقل بيتا أو بيتين »

قال : « سمعا وطاعة .. وسأتلو ما يحضرنى بعد قليل لأنى
تركبت النظم من زمن طويل »

وبينما هم في ذلك اذ دخل مسرور ، فلما رآه صاح فيه :
« ويلك .. أين ابراهيم ؟ »

قال : « هو بالباب يا مولاي .. لقد أتيت به من أقاصى
الأرض .. »

قال : « ادخله التى ليكون قريبا من هؤلاء القيان يعلمهن أو
يساعدهن »

فدخل ابراهيم وسلم فأمر له الرشيد بالجلوس ، وقال له :
« نظننا قد أزعجناك لدعوتنا اياك على غير انتظار .. ولكننا
آثرنا لذتنا على راحتك .. فاعذرنا »

فخجل ابراهيم لهذه المجاملة وقال : « نحن عبيد أمير المؤمنين
واذا دعانا الى خدمته فقد شرفنا ورفع منزلتنا .. »

فقطع الرشيد كلامه وقال : « اسمع الغناء الجديد .. »
والتفت الى صاحبة ستارة القيان وقال : « ان ابراهيم أستاذ
المغنين يحب سماع ذلك الغناء الجديد »
فصاحت الجارية : « غن يا قرنفة .. »

فلما سمع الموصلى اسمها ابتسم وقال : « قرنفة هنا ، ان
هذه المغنية نادرة في رخامة الصوت واثقان الصنعة ، وطالما كنت
أتمنى دخولها في جملة قيان القصر .. وهى من جملة الجوارى
البيض اللواتى تعلمن الغناء على يدى ومن أكثرهن براعة واثقانا »
قال الرشيد : « ان ولدنا محمدا أهداها. الينا في هذا اليوم

ولم أر وجهها بعد ...»

قال : « ووجهها جميل يا مولاي ! »

فصاح حسين الخليع من وراء الستار : « نحمد الله لأن
أستاذها علمها الغناء فقط ولم يعلمها الجمال »

فضحك الرشيد وأمر الساقى فصب له قدحا ولا إبراهيم قدحا
وقال : « ان حسينا خفيف الروح .. اشرب هذا القدح
يا ابراهيم »

فصاح حسين الخليع من الداخل : « جزى الله أمير المؤمنين
خيرا لأنه أنصف بيني وبين مغنييه ، فأعطاني خفة الروح وأعطاه
القدح ، كأن خفاف الروح لا يشربون لئلا يزدادوا خفة فيطيروا »
فضحك الرشيد وقال لابراهيم بصوت منخفض : « قبحه الله
رمى حجرا فأصاب اثنين .. فقد جعلني من الثقلاء وهو لا يدري »
فسمع الخليع قوله فاستدرك خطأه وقال : « أستمح عذر أمير
المؤمنين ، فان منع الشراب عني قد أسكرني فخلطت .. ورميت
القول جزافا .. ولكن صاحب الحاجة يعرف حاجته ، ولذلك
فلا أظن كلامي قد تجاوز ابراهيم خطوة واحدة .. »

فضحك ابراهيم وقال : « كن مطمئنا يا حسين فاني قد
حبسته عندي فاكفف عني »

- ٤٥ -

تغير الحال

ثم قال الرشيد : « نسمع يا قرنفلة .. »
فأخذت تضرب على العود وحدها وتغنى والرشيد يبالغ في
استحسان صوتها حتى حسدتها رفيقاتها ، وفيهن من كانت لها
حظوة كبرى عند الرشيد .. فسمع الخليفة لغطا وراء الستار
أعقبه ضحك فقال : « وعلى أى شىء يضحكن ؟ »
قالت صاحبة الستارة : « ضياء (احدى القيان) تقول ان أمير
المؤمنين معجب بقرنفلة وهى لا تحسن الا صوتا أو صوتين
تعودتهما ، فاذا أمر أحد الشعراء بنظم بيتين تغنيهما ارتجالا
اتضحت الحقيقة »
فصاح الرشيد : « أحسنت ، أحسنت .. هات يا أبا العتاهية
بيتا أو بيتين مما نظمته الآن »
قال : « لبيك يا أمير المؤمنين .. هل أقول وعلى الأمان مما
ربما كان ؟ »
فاستغربوا سؤاله ، ولا سيما الرشيد .. ولكنه ظن انه يقول
ذلك من قبيل المجون خوفا من القيان فقال : « عليك الأمان »
قال : « وتجزئنى يا أمير المؤمنين غير اجازة سائر الشعراء .. »

لأنى لم أقل الشعر من زمن بعيد ؟ »
 فازداد الرشيد استغراباً لهذه الشروط ، ولكنه ما زال يحسبه
 مازحاً فقال : « ونجيزك »

قال : « وتسمح لى أن أرى وجهك على حدة ؟ »
 فضجر الرشيد من كثرة الشروط ، ولكنه تحمله وقال :
 « ولك ذلك أيضا .. قل ! »

فقال : « لا تعجب يامولاي من دالتى وجرأتى فقد قيل :
 ولن يباهى العبد أربابه الا اذا ما بطر العبد »
 فلما سمع الحضور هذا البيت ، ظنوه يشير الى جرأته فى شروطه
 على الخليفة بما لم يسبق له مثيل . وأما الرشيد فحالما سمع قوله
 تذكر أنه قرأه منذ ساعة فى تلك البطاقة ، فانتبضت نفسه ، وأدرك
 أن أبا العتاهية لم يقدم على ذلك الا وفى نفسه شئ يريد أن يفضى
 به اليه ، وخاصة بعد أن اشترط أن يرى وجهه — كناية عن
 مقابله — فتغير الرشيد .. ونسى ما كان فيه من الطرب وأصبح
 همه الاطلاع على سر تلك البطاقة ، فنهض للحال ونهض الحضور
 معه ولم يفهموا شيئاً مما فى خاطره لأنهم كانوا لا يعلمون شيئاً
 من أمر تلك القصيدة . ثم صفق فجاء مسروراً ، فأسر اليه أن
 يجيز الشعراء والقيان وإن يأتيه بأبى العتاهية وحده ، وأحس
 الموصلى بوجوب الانصراف فاستأذن فى الخروج .. وخرج سائر
 من كان فى المجلس

وتحولت تلك الضوضاء الى سكوت ووقار . أما مسرور فعاد
ومعه أبو العتاهية ، وقد قبضَ على عنقه لاعتقاده انه السبب
الوحيد في انقلاب سرورهم الى كدر ، ولم يكن يشك في أن
الرشيد سيأمر بقطع رأسه

أما أبو العتاهية فانه أقدم على ذلك الخطر طمعا في مبلغ كبير
من المال وعده به الفضل بن الربيع ، ومع جبنه وضعفه فقد غلب
الطمع عليه حتى حملة على تلك المخاطرة فدبر هذه الوسيلة ،
وكان مطلعا على تلك القصيدة . ولا يبعد أن يكون هو ناظمها
لأم جعفر، وقد علم ان أم جعفر بعثت بها باكرا ، وانها وضعت
على سرير الخليفة في دار الخاصة ، ولا بد من أن يكون الرشيد
قد رآها وقرأها ، فالإشارة الى بيت منها تبعثه على طلب المزيد
فاذا استزاده قص عليه خبر اطلاق العلوى . على انه لم يشعر
بمقدار الخطر الذي عرّض نفسه له الا حينما رأى انقلاب ذلك المجلس
من الغناء والضوضاء الى الانقباض والسكوت ، فخفق قلبه وخاف
على حياته وخاصة بعد أن قبض مسرور على عنقه وجاء به الى
ما بين يدي الرشيد ، فانه دخل تلك الغرفة وقد انحرفت عماثته
وتشوشت لحيته وارتعدت يداه واصطكت ركبتاه حتى لم يعد
يستطيع الوقوف . فحالما وقع نظره على الرشيد ترمى على قدميه
وأخذ في تقبيلهما وغلب عليه البكاء ، فتحقق مسرور عند ذلك
انه مذنب ولا يلبث أن يسمع أمر الخليفة بقتله ، فوقف ويداه

على قبضة الحسام ، وعيناه على شفتى الرشيد ..
 أما الرشيد فلما رأى ما استولى على أبى العتاهية من الرعب
 وما أظهره من التذلل والاستعطاف ، بعد أن أعطى الأمان ،
 أسنفق عليه وقال : « لا بأس عليك يا أبا العتاهية .. انك شاعرنا
 ونحن نكرم الشعراء .. قم ولا تخف .. »

فأما سمع تلك العبارة ، وقف وهو مطرق لا يرفع بصره عن
 الأرض والرعدة لاتزال ظاهرة في ركبتيه ويديه ، وظل ساكنا
 خائفا حتى سمع الرشيد يأمر مسرورا بالخروج . فرمقه بطرف
 عينيه .. فلما تحقق من خروجه ، اطمأن خاطره ورفع بصره الى
 الرشيد بخشوع

- ٤٦ -

السر

فاتكأ الرشيد على السرير ، وأوماً اليه أن يجلس .. فجلس
 جاثيا على البساط والدموع لاتزال في عينيه فقال له : « لاتخف
 يا أبا العتاهية انك في أمان »

فأجاب وصوته مخنق : « هل أنا آمن يا أمير المؤمنين ؟ »

قال : « أنت آمن اذا صدقتنى »

قال : « آمن منك ومن وزيرك ؟ ! »

قال : « لا تكثر من الأسئلة .. اذا أمنك أمير المؤمنين فلا خوف عليك .. »

فتنفس الصعداء حتى هدأ روعه ، ثم قال : « وسيعلم مولاي انى انما ركبت هذا المركب الخشن فى سبيل خدمته »-

قال وقد ملَّ الانتظار : « قل لى من أين عرفت هذا الشعر ، ومن الذى أطلعك عليه ؟ »

فقال : « لم يطلعنى عليه أحد .. »

قال : « وكيف عرفتة ؟.. لعله من نظمك ؟ »

فقال : « نعم .. »

قال : « وما الذى حملك على نظمه ؟ »

فقال : « حملنى على ذلك أمر عرفتة وعلمت أن ليس بين رجال بطانتك من يجرؤ على أن يطلعك عليه ، فلجأت الى هذه الحيلة فى ابلاغه اليك ، فأرجو أن لا أكون قد أسأت الى نفسى والى أهلى »

قال : « لا بأس عليك .. وما هو ذلك الأمر ؟.. وما صلة وزيرنا به ؟ »

فقال : « انه يتعلق به وحده ياسيدى ، وسأفصه عليك ، فاذا تحققت من وقوعه فأنا آمن ، والا فدمى مسفوك »

قال : « اقصص الخبر ولا تخف .. »

فقص عليه حكاية العلوي ونجاته على يد جعفر الى آخر الحديث ..

وكان أبو العتاهية يتكلم وصوته يرتجف ويتقطع ، والرشيد مصغ بكل جوارحه وجأشه رابط .. فلما أتى على آخر حديثه سأله : « هل أنت واثق من صدق هذه الرواية ؟ »

فقال : « لو لم أكن واثقا .. بل لو لم أكن على يقين من الأمر ، ما عرّضت حياتي لهذا الخطر العظيم »

فتذكر الرشيد علاقة جعفر به ورفعة مقامه عنده ، فأكبر أن يدخل ذلك الشاعر-بينهما .. ورأى أن من الحزم والحكمة أن يغالطه فاغتصب ضحكة وقال : « لاريب عندي أنك أقدمت على كشف هذا الأمر غيرة منك على مصلحة الدولة ، ولذلك فأنت أهل للشكر والجائزة .. ولكنك كلفت نفسك عناء عظيما بلا طائل لأن وزيرنا لم يأت بهذا العمل من نفسه ، فهو لم يطلق ذلك العلوي الا بإشارتي ، بعد أن تحققت انه لا بأس من اطلاقه »

فلما سيمع أبو العتاهية ذلك أسبقط في يده وتولاه الخجل ولكنه اطمأن بآله على حياته وقد ربح المال الذي وعده الفضل به .. على أنه ظل خائفا من جعفر ، اذا بلغه خبر هذه الوشاية فقال : « أحمد الله على أن ذلك لم يحدث الا برأى أمير المؤمنين .. وقد اطمأن بالي على حياة الوزير ، ولكنني أصبحت أخشى على حياتي منه اذا بلغه اني نقلت هذا الخبر ، فيحسبني من أعدائه .. »

فقطع الرشيد كلامه قائلا : « لا تخف .. فاني سأكتم ذلك عنه .. كن مطمئنا » قال ذلك ونهض ، فنهض أبو العتاهية وقد هدا روعه .. أما الرشيد فقد انحبس غضبه حتى ضاق صدره عنه وكاد يصرعه .. فعل ذلك رغبة في اخفاء ما في نفسه عن أعداء جعفر . ولم يخف عليه أن أبا العتاهية لم يأت من عند نفسه ، وان الفضل هو الذي أرسله .. ولكنه اكتفى بما سمعه وصفق فجاء مسرورا كالبرق الخاطف ، فقال له الرشيد : « خذ أبا العتاهية ، ومر صاحب بيت مالنا أن يعطيه ألف دينار ، وأطلق نسيله .. »

فقال : « سمعا وطاعة يا أمير المؤمنين.. » وأمسك أبا العتاهية بيده وخرج به ..

فلما خلا الرشيد الى نفسه ، هاج بلباله وعادت اليه وساوسه ، فتذكر ما دار بينه وبين اسماعيل في ذلك الصباح وكيف رده خائبا رغم قرابته ، وجلالة قدره ، رعاية لحق جعفر .. وكيف تبدر منه هذه البادرة فيطلق أسيرا عهد به اليه . فثبت عنده ما كان يتهمه به من الميل الى العلويين والرغبة فيهم عن العباسيين . فلما تصور ذلك هاج غضبه ونسى موقفه وجعل يمضي ذهابا وايابا على غير هدى ، ويخاطب نفسه قائلا : « هل أنا في حلم ؟ أيرتكب جعفر هذه الخيانة وقد أحببته وأكرمته ورفعت قدره وسلمت اليه مقاليد الأحكام وأطلقت يديه في شئون الدولة ؟ وهل يعقل أن

يكون ما سمعنه وشاية من الحساد ؟ لا يعقل ذلك .. ولكن كيف أتصور أن يغدر بى جعفر ويطلق عدوا سلمته اليه مع ما يعلمه من بغضى للعلويين . بل كيف يفعل ذلك ولا يخاف على حياته ؟ وهذا أيضا لا يعقل .. الا أن يكون الرجل مصابا فى عقله .. لأنه يعلم بطش هرون اذا غضب .. »

- ٤٧ -

مداعبة السباع

قضى ساعة فى هذه المناجاة وهو لا يستقر فى موقفه ، وأخيرا هتدا من غضبه وأخذ يعمل فكرته فيما يجلو عنه هذه الشكوك، فرأى أن يسأل جعفرا نفسه عن حقيقة هذا الخبر ، فاذا كان صحيحا بادر الى الانتقام . فأمسك غضبه وتجلد .. وكان الرشيد مع سرعة غضبه وشدة بطشه قوى الارادة له قدرة عجيبة على الكظم وكتمان ما فى نفسه ، فصفتق فجاءه مسرور فقال له : « قد حدث ما يستدعى حضور الوزير الى هنا ، فادع لى صاحب الطعام واذهب أنت الى الوزير فادعه التى »

فسأله : « ماذا أقول له ؟ »

فأجاب : « قل له ان أمير المؤمنين أحب أن تتناول معه العشاء فى هذا المساء .. ولا تقل غير ذلك .. »

فقال : « سمعا وطاعة » .. وخرج

وكانت الشمس قد قاربت المغيب ، فلما جاء صاحب الطعام قال له : « اعد مائدة أتناول عليها العشاء مع الوزير ، ولتكن فاخرة .. »

فأشار مطيعا وخرج . ومكث الرشيد وحده فعادت اليه أفكاره وقد تعب منها .. فأحب أن يلهو الى أن يأتي جعفر، فخطر له أن يخرج الى حديقة القصر يمتع فيها نظره ، فأمر برداء تزمثل به، وجاء غلام ألبسه النعال وسّواها بقدميه .. فخرج الرشيد الى الحديقة ومشى بين الأشجار والرياحين الى حيث لا يعلم

فما لبث أن وجد نفسه بجانب أقفاص السباع ، وكان بينها أسد قد تعود الرشيد أن يلهو بمداعبته وهو داخل القفص . فلما وقع نظره عليه شعر بشيء لفت انتباهه .. وهو ارتياح طبيعي في الانسان اذا رأى الأسد أو غيره من السباع في قفص . ولعل سببه الاعجاب بقوتها والدهشة من منظرها غير ما يجيش في النفس من حب التمثل بها .. ومنظر السباع يهيج ثورة النفس في الانسان ، فكيف اذا كان ثائرا ؟ .. فوقف الرشيد عند القفص ، وأمر حارس السباع أن يرمى للأسد طعامه ، فأتى بخروف كان قد ذبحه وقطعه قطعا صغيرة ، فرمى له قطعة منها فوثب الأسد عليها والتقمها دفعة واحدة لأنها صغيرة ، ووقف ينتظر أخرى فنهى الرشيد الحارس أن يرمى اليه شيئا ، فراح الأسد يزأر ،

ويعشى في القفص ذهابا وإيابا وذيله كالقوس فوق ظهره ينظر الى الحارس بعينين يكاد الشرر يتطاير منهما ، والحارس يريه اللحم عن بعد .. فلما استبظا الطعام ، أقبل يضرب قضبان القفص الحديد برأسه تارة ، وبمخالبه تارة أخرى .. يحدث في قطعة اللحم وهي في يد الحارس ويزأر ويكشر عن أنيابه والحارس يضحك والرشيديشارك الأسد في الغضب ، وقد ازداد عبوسا وازدادت أساريه انقباضا حتى كاد يفتك بالحارس عنه .. وكأنه تصور نفسه شريكا له في ذلك الغضب ، لأن حاله مع جعفر مثل حال الأسد مع حارسه ..

ولكن الوحوش ليس لها ما يمنعها من اظهار احساسها .. فتغضب وتقلق وهي في أقفاصها . أما الرجل العاقل فيتحكم في غضبه ويمسك نفسه عن الفتك بفريسته وهي بين يديه ، كما كان الحال مع وزيره في ذلك اليوم . فرأى نفسه أسدا عاقلا .. فاذا لم يستطع امساك نفسه كان حيوانا أعجم

كان الرشيد يفكر في ذلك .. والحارس ينتظر أمره ليرمى قطعة اللحم للأسد حتى زأر الأسد زأرة نبهت الرشيد ، فأشار الى الحارس فرمى له قطعة اللحم فانقض عليها ، وعاد الى الزئير حتى رمى القطعة الثالثة والرابعة ، وهكذا حتى شبع . فربض ووضع رأسه بين ساعديه ولم يتحرك ، ولكن عيناه ما زالتا تبرقان والحنق ظاهر فيهما

قضى الرشيد ساعة يلهو بذلك المنظر حتى سرى عنه ، وزاد
تمكنا من اعتقاده في أن رابط الجأش من الناس اذا كان ذا سلطان
وأمسك غضبه كان أسدا عاقلا . وأراد أن يكون هو ذلك الأسد
في تلك الليلة

فلما غابت الشمس وأخذت الظلال تتكاثر فوق قصور بغداد
وبساتينها ، رجع الرشيد الى قصره وهو يسير بين الأشجار بثوبه
الموشى وعمامته المزركشة ، والعلمان يتباعدون عنه احتراما له ،
وقد لاحظوا غضبه وعرف بعضهم سببه ، والرشيد يحسب أن
سره لا يعرفه أحد .. وبينما هو في ذلك اذ سمع دبدبة
وصهيلا، وصلصلة وضوضاء بباب القصر ، فعلم انه موكب جعفر
فتجاهل وظل ماشيا حتى اذا دنا من باب الخاصة لقيه مسرور
فأخبره بأن الوزير ينتظره في تلك الدار .

فقال له : « ادعه لموافاني الى القاعة التي كنا فيها في أصيل
هذا اليوم »

ومشى الرشيد حتى دخل القاعة وقد أضيئت فيها الشموع
على مصابيح من الذهب ، وفاحت روائح البخور والطيب ، فتربع
على السرير .. ولم تمض برهة حتى أقبل الحاجب يخبره بمجيء
جعفر ، فقال له : « فليدخل .. ليس على الوزير حجاب »

فدخل جعفر وعليه القلنسوة والجبّة على جاري عاداته في مجيئه
لمقابلة الخليفة وهي ملابس العباسيين الرسمية . وكان جعفر خائفا

من ذلك الطلب في آخر النهار، لعلنه بما يتوقعه من وشاية حساده به في أمر العباسة بعد أن اطلع أبو العتاهية على سره ورأى ابنه مع والدتهما رأى العين . فلما دعاه مسرور الى الرشيد أوجس خيفة ، وسأل عما يريد منه فقال : « لا أدري » . ولم يتوسم في وجه الرجل سوءا ومع ذلك ركب في موكبه الحافل ، وفيه جماعة من الفرسان الأشداء ممن يتفانون في نصرته ، ودخلوا معه الى الباب الرابع على غير المعتاد فيمن يدخل قصر الخلد من القادمين الا بنى هاشم والوزير وأمثالهم من المقربين . فترجّل جعفر وأقبل على دار الخاصة ، ومسرور يسير بين يديه لا يتكلم

— ٤٨ —

المداجاة

فدخل الوزير تلك القاعة وهو يتكلف الابتسام ويظهر الاطمئنان وقلبه يرتجف خوفا . فلما أقبل على الرشيد رحب به وابتسم له وقال : « ليتك جئتي بمثل ملابسى ، فان مجلسنا مجلس أنس » .. ودعاه للجلوس بجانبه على السرير . فحيّاه وجلس متأدبا وقد سرى عنه واطمأن بآله . وجعلا يتطارحان الأحاديث والرشيد يحتفى به ويلطفه . ومما قاله : « لقد دعوتك رغبة في أنسك لأنى شعرت بملل فى أثناء النهار على أثر مقابلة ذلك الوفد

الهندي» .. وأقبل يقصص عليه ماجاء به الوفد من السيوف القلعية والكلاب السيورية وما كان من قوتها وقتكها بالأسد

فأجابه جعفر : « ما زال قصر الخلد مصدر الأبهة والسؤدد ، ولا زال أمير المؤمنين مؤيدا بنصر الله يتزلف له الملوك والسلطين »

والقارئ يعلم ما في قلب جعفر من الرشيد وما يكتمه من الخوف من بطشه اذا اطلع على حاله مع العباسية ، وما يعتزمه من النجاة بها اذا اطلع الرشيد على سرهما .. فكنا يتداجيان وفي قلب كل منهما غل على صاحبه ، وما زالا في ذلك حتى آن وقت العشاء ، فمدد السماط وقد أعدت عليه ألوان اللحوم والطيور والتوابل وأنواع الفاكهة والرياحين وأصناف البقول ، ووقف الغلمان بأباريق الماء وأقداح الشراب . فجلسا يأكلان ، والرشيد يبالي في اكرام جعفر حتى كان يقدم له الطعام من الصحاف فيلقمه بيده (١) ويناوله السنبوسجة بعد السنبوسجة ، والتفاحة بعد التفاحة ، وييش له ويحادثه ويضحك لحديثه حتى تطرق الى حكاية العلوى فقال له : « وماذا حدث لذلك العلوى الذى عهدت به اليك ؟ »

فقال جعفر : « هو على حاله يا أمير المؤمنين ، لا يزال فى الحبس كما أمرت »

فابتسم الرشيد وقال : « هل هو هناك ؟ »

(١) ابن الاثير ٧٠ - الجزء السادس

فقال جعفر : « نعم يا أمير المؤمنين »

قال الرشيد : « بحياتي ؟ »

ففطن جعفر الى أن سؤاله لم يكن سؤالاً عادياً ، فبغت وظهرت البغته على وجهه وقال : « لا وحياتك .. بل أطلقت سراحه .. لأننى لم أجد مكروها عنده ولا خوف منه .. وزد على ذلك ، انى أخذت عليه الموائيق والعهود حتى لا يعود الى شيء مما كان فيه » فضحك الرشيد وقدم لجعفر خوخة كانت فى يده وهو يقول : « بورك فيك .. فقد فعلت ما كنت أرجوه منك ولم تتجاوز ما فى نفسى »

فاستأنس جعفر بتلك الملاطفة ، وخاصة بعد أن غير الرشيد الحدث ، وأخذ يمازحه ..

ولما فرغا من العشاء جاءهما الخدم بآنية الغسيل ، فغسلا أيديهما وجلسا يتحدثان ساعة ثم استأذن جعفر فى الذهاب فأذن له الرشيد ومشى لوداعه الى باب القاعة . فلما ودعه ورجع صر على أسنانه ، وقيل فى نفسه : « قتلنى الله ان لم أقتله »

أما جعفر فلم تنطل عليه مداجاة الرشيد ولا انخدع بملاطفته ومجاراته ، فقد خرج وهو يعلم أن مركزه أصبح فى خطر لاعتقاده أن تلك القصة لم يرد ذكرها عرضاً كما أحب الرشيد أن يوهمه ، ولا كان ينوى اطلاق العلوى كما زعم .. وكيف يصدق ذلك وقد كان هذا العلوى مطلقاً ومعه أمان بخط الرشيد وخبته ، فما

زال الرشيد يسعى حتى أفسد الأمان ومزقه ، وأمر بالقبض عليه ،
وحبسه خوفا منه .. فهل ينطلى على جعفر انه كان ينوى اطلاقه
مع ما اختبره من طباع الرشيد ، وكظمه الغيظ ، وملايئته .. ولكنه
أظهر انه صدق قوله ، واقتربا وهما يتخادعان ويتداجيان ويظن
كل منهما انه خدع صاحبه وكلاهما خادع ومخدوع

- ٤٩ -

الخروج للصيد

عندما رجع الرشيد بعد وداع جعفر ، دخل غرفة النوم وهو
يفكر فيما مر به ذلك اليوم من الغرائب . فتذكر مجيء اسماعيل
في الصباح وما كان من رده ، ولم يقض له حاجة رعاية لحق جعفر
وزيره ، وما عرفه بعد ذلك من استبداد هذا الوزير في الأمور
واطلاقه سراح ذلك العلوي ، حتى قام في نفسه أن يقتله . ورأى
انه أساء معاملة اسماعيل وهو يثق بنصائحه وحسن قصده ،
فأحس بحاجة الى مجالسته ليطلعه على ما فعله جعفر ويبوح له
بما نواه من الفتك به لأنه كان شديد الثقة باخلاصه ، ولم يكن
يثق بأحد من أهله أو رجال دولته مثل ثقته به ، وقد يتطرق بهما
الحديث الى الاعتذار له عن رده خائبا . وشعر الرشيد بضيق
صدره ، فلم ير خيرا من خروجه للصيد يفرج به كربته . فلما

أصبح دعا « مسرورا » خادمه وأمره أن يوصى أصحاب الصيد بالتأهب للخروج الى أرض دجيل (قرب بغداد) الى أن قال : « وهل تعلم مقر اسماعيل بن يحيى ؟ »

فقال مسرور : « نعم يا مولاي .. »

قال الرشيد : « اذهب اليه وادعه ، ولكن لاتزعجه بفظاظتك »

فقال مسرور : « واذا سألتني عما يريد أمير المؤمنين منه ؟ »

قال الرشيد : « قل له اني عازم على الصيد ، وأحب أن يكون

معي »

فأشار مطيعا ، وخرج الى الفهادين والبيازرة والحجالين وأصحاب الصقور والكلاب وسائر خدم الصيد والقنص .. فأمرهم بالخروج الى أرض دجيل . وكانت لهم عادات وطرق في خروجهم الى ذلك المكان يعرفونها ولا يحتاجون فيها الى ترتيب أو تدريب .. وكانوا يتصيدون في أرض « دجيل » وهي بقعة من الأرض ، مساحتها عدة فراسخ في مثلها ، وقد أحاطوا احدى جهاتها بسور على هيئة نصف دائرة مبنى بالأعمدة المنصوبة ، وقد شد بعضها الى بعض بالأمراس أو الأسلاك على شكل سور منيع ، وكانت عاداتهم في الصيد أن يطاردوا الحيوانات التي يريدون صيدها نحو ذلك السور من مقره ، فيضربون حولها حلقة من الجهة المفتوحة ويطاردونها بخيولهم وفهودهم وكلابهم ، وهي تفر أمامهم بين الأعشاب والأدغال ، فلا يزالون يضيّقون

عليها حتى يدخلوها وراء ذلك السور ، ولا يكون لها مجال للفرار .. فاذا انحصرت في ذلك الموضع ، أقبل الخليفة ومن معه من الخاصة وتأفقوا في القتل .. فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقي (١)

وكان من عادة الرشيد اذا خرج للصيد أن يتجول جانبا من النهار على الجواد في أرباض بغداد وما يحدق بها من المغارس والضياع حتى يعلم ان الحيوانات قد حصرت وآن أوان صيدها ، فيأتى ويأشر قنص بعضها بنفسه ، أو يتفرج على البزاة والصقور والفهود .. كيف يستخدمها أصحابها في الصيد مما يطول شرحه . أما في ذلك اليوم فقد جعل الخروج الى الصيد حيلة لأجل مخاطبة اسماعيل كما قدمنا

أما اسماعيل ، فلما جاءه أمر الرشيد بالحضور اليه ليرافقه في الصيد لبس الثياب الخاصة بذلك وركب الى قصر الخلد ، وكان الرشيد في انتظاره بموكب الصيد وهو يختلف عن سواه من مواكب الخلافة . وما أقبل اسماعيل على القصر حتى رأى أصحاب الصيد خارجين بصقورهم وبزاتهم وفهودهم ، وقد ارتدوا الملابس الخفيفة ، وفي جملتهم أصحاب اللباييد .. وعادت الضوضاء وتزاحم الناس . هذا يلاعب صقره ويحرضه على طائر مار فوق رأسه فاذا تحفر الصقر أمسكه . وذاك يقود فهده بسلسلة من

الحديد ، وآخر يستحث كلبه على طلب فريسة يوهمه انها وراء شجرة هناك ، والكلب لا يكثرث لأنه لم يشم رائحة الفريسة .. وعلا ما يترتب على ذلك من الضوضاء واختلاط الأصوات بين ضهيل ونباح وهرير وصرصرة وقعقة وصلصلة وطققة وهدير. فتجاوزهم اسماعيل حتى دخل الباب الثانى من أبواب القصر فلقية مسرور وقال له : « لا يترجّل مولاي لأن أمير المؤمنين خارج بموكبه وقد أمرنى بذلك »

فوقف حتى رأى الرشيد قادما على جواده بشيابه الخفيفة والفرسان حوله فى موكب الصيد ، فلم يتمالك عند ذلك عن الترجل فابتدره الرشيد قائلا : « اركب ياعماء واجعل فرسك فى محاذاة فرسى »

فركب وأراد أن يسير متأخرا عنه تأدبا : على جارى العادة فى مصاحبة الخلفاء ، فطلب منه أن يحاذيه : وقال له : « ليس اسماعيل ممن يطالب بمثل هذه التقاليد .. وما دعوتك لمرافقتى الا للاستئناس بك »

— ٥٠ —

المفاوضة

فدعا له وسار بجانبه .. وأمر الرشيد مسرورا أن يطلق أصحاب

الصيّد الى عملهم في دجيل كالعادة ريثما يصل . وسار الرشيد واسماعيل لا يتكلمان . أما هذا فسكت عن تأدب اذ لا يليق أن يبدأ هو بالكلام .. وأما الرشيد فقد سكت عن هاجس غلب عليه . وما زالا ساكتين حتى خرجا من بغداد وأشرقا على بساطينها وأرباضها ، فأمسك الرشيد شكيمة جواده والتفت حوله لفتة فهم فرسان الموكب انه يطلب الانفراد ، فتفرقوا وظل هو واسماعيل سائرين . فلما انفردا نظر الرشيد الى اسماعيل وقال والاهتمام باد على محياه : « ما الذي حدثك به نفسك حينما خرجت من عندي أمس ؟ »

قال : « لم تحدثني بشيء غير موالاة الدعاء بطول بقائك وتأيد سلطانك »

قال : « ذلك هو عهدي بك ، على انك لو عتبت على هرون وانتقدته لما وجدت سبيلا الى لومك ، لأنى لم أزع حقك وقد أسأت معاملتك في سبيل رجل لم يزع حقى ولا حق بنى العباس .. » قال ذلك والتفت كأنه يحاذر أن يسمعه أحد . ثم تشاغل باصلاح ما على مقدم السرج من الديباج الموشى ، ومد يده الى ناصية الجواد وجعل يمشطها بأنامله وهو ينتظر ما يبدو من اسماعيل

أما هذا فأدرك ما في نفس الرشيد وانه يضرر سوءا لجعفر ، فشق عليه ذلك لعلمه انه يعود على الدولة بالخسران ، فتجاهل

وأقبل يشكر للرشييد حسن ظنه الى أن قال: « أرى أمير المؤمنين
يبالغ في اكرامى .. ومحال أن يأتى أمرا يوجب اللوم .. وهب انه
فعل ذلك فهو لا يمكن أن يثلام .. وانما ساءنى انه غير راض عن
مواليه ، ولو صرح لى بما يريد وأوضح لى الكلام لزادنى مئة .. »
فقطع الرشييد كلامه وقال : « أظنك تتجاهل ياعماه ، ومثلك
لا يفوته ادراك ما أريد ؟ »

فقال : « اذا صدق ظنى فان الرشييد يشكو من وزيره »
قال : « وهل تستغرب شكواى من رجل سلمت اليه مقاليد
دولتى وأطلقت يديه فى كل شئونى .. وقدمته على أهلى وذوى
عصبيتى ثم هو يسغى فى هلاكى ؟ »
فقال : « معاذ الله أن يكون ذلك .. وما وزيرك يا أمير
المؤمنين الا من بعض مواليك يتفانى فى مصلحة دولتك .. ذلك
هو عهدى به .. »

وكانا يتخاطبان والفرسان يسيران متحاذين بين الأشجار
الباسقة وقد تشابكت أغصانها ، تظلل الطرق ، فبعدا عن المدينة
وهما يسيران الى غير مكان مقصود . واتفق عند ذلك انهما
أشرفا على ضيعة (عزبة) عامرة ومواش كثيرة وعمارة حسنة ،
يدور طريقها حول الضيعة .. فدارا حولها حتى اقتربا من بابها ،
فنظر الرشييد الى بيدرها وكثرة الغلال فيه ، وما يسرح من
الماشية الكثيرة حوله ، والتفت الى اسماعيل وقال : « لمن هذه

الضيعة يا اسماعيل ؟ »

فعلم اسماعيل انها لجعفر وقد أراد الرشيد أن يتخذ ذلك حجة على ما يريد من الطعن عليه فقال : « هي لأخيك جعفر بن يحيى »

فتنفس الرشيد الصعداء وقال : « ولو سألتك عن سائر ما في هذه الضاحية من الضياع لما أجبت غير هذا الجواب ، لأن الذى دعوته أخى قد مأك أهله كل ما يحيط ببغداد من الضياع والبساتين .. أرأيت كيف أغنيا هؤلاء البرامكة وأفقرنا أولادنا وأغفلنا أمرهم حتى صارت البلاد لهم ، وأصبحت مواكبهم أعظم من مواكبنا ، وأموالهم أكثر من أموالنا ؟ .. وإذا كانت هذه ضياعهم قرب هذه المدينة ، فكيف بما هو لهم على غير هذا الطريق في سائر البلدان ؟ »

فشق على اسماعيل ذلك القول غيرة منه على سلامة الدولة فقال : « انما البرامكة عبيدك وخدمك ، وما ضياعهم وكل ما يملكون الا لك .. »

وكان الرشيد لا يتوقع من اسماعيل دفاعا عن رجل كان بالأمس سببا في فشله ، فسمت منزلته في عينيه ، ولكن ساءه دفاعه لأنه كان يتوقع منه أن يجاريه فيما ينويه ، شأن كل غاضب مستبد . فنظر الى اسماعيل نظرة جبار عنيد ، وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما وقال : « أراك حسن الظن بأعدائى وتحسبهم

عبيدا لى ، والبرامكة يعدون بنى هاشم عبيدهم وانهم هم
أصحاب الدواة ، وان لا نعمة لبنى العباس الا والبرامكة أصحاب
الفضل عليهم فيها »

فلم ير اسماعيل أن يدافع أكثر من ذلك لئلا يتحول غضب
الرشيده اليه فقال : « ان أمير المؤمنين أبصر بخدمه وعبيده »
فأدرك الرشيده انه خشي غضبه ، ولم يصرح بما فى نفسه
فأحب أن يسمع رأيه فقال : « ليس لذلك صحبتك يا عماد ، ولا
هذا عهدى بك .. هل تسأيرنى وتجارينى خوفا من غضبى ؟ »

فتحير اسماعيل فى أمره وتردد بين أن يجيبه أو يبقى على
الكتمان . ومع ما يعلم من منزلته عند الرشيده ، لم يكن يطلق
لنفسه الحرية الا وهو يحاذر من غضبه .. اذ لا يستبعد أن ينقلب
الرشيده عليه اذا تبادر الى ذهنه سوء الظن به . وهذا جعفر لم
يبلغ أحد ما بلغه من الدالة والنفوذ حتى صار الرشيده يدعو
أخاه ويدعو والدده يحيى أباه . فلما شك فيه أصبحت حياته
فى خطر . فظل اسماعيل ساكتا يفكر ، وهو يسير بجانب الرشيده
ولا يدرى الى أين يسير به

فانتبه فاذا هو بباب المدينة ، فرأى مسوئنا لتغيير الحديث
فقال : « آرانا قد عدنا الى بغداد . فأين العبيد ؟ »

قال : « لم أخرج للصيد الا حيلة لمرافقتك . وقد أوصيت
من يقوم به عنى .. ولكنى لم أسمع منك غير ما يقوله سائر

الناس ممن يجالسونا ويصانعوننا ، وأنت شيخ بنى هاشم
وحكيمهم فلا أقبل منك هذه المصانعة .. »

فقال : « أرى أمير المؤمنين حسن الظن بى ، وأنا بحمد الله
عند حسن ظنه .. ولكننى لم أسمع منه سؤالا صريحا فأجيبه .. »

- ٥١ -

التصريح

وكان الرشيد لما دخل المدينة ، قد عاد الموكب الى المسير بين
يديه فقال : « نحن داخلون بغداد ، وعما قليل ندخل قصر الخلد
فنخلو وتتحدث »

فأوجس اسماعيل خيفة من عاقبة ذلك الحديث ، ولكنه تجلد
وسكت حتى اذا دخلا القصر ترجلا وسارا الى غرفة خاصة ،
فجلس الرشيد على السرير ودعا اسماعيل الى جانبه فجلس وهو
مطرق ينتظر مايقوله الخليفة ، فاذا هو يقول : « دعك من الدفاع ،
وقل ما فى نفسك ، ألم تر هؤلاء الأعاجم قد تناولوا علينا
واستأثروا بالدولة وأموالها دوننا ؟ »

قال : « بلى .. ولكنهم فعلوا ذلك بإرادة أمير المؤمنين ، ولو
لفهمهم انه يريد غير ذلك لأذعنوا لأمره »

قال : « وهل أمرتهم أن يستأثروا بكل شىء دونى ؟ »

فتوقف اسماعيل عن الجواب وهو يتردد بين أن ييوح له بما يعتقد من فضل البرامكة على الدولة أو يسايره في أقواله ، فغلب عليه استقلال رأيه فقال : « أما وقد أكرمنى أمير المؤمنين بحسن ظنه ، فلا ينبغي أن أكنمه شيئاً مما يجول فى خاطرى .. ان البرامكة عبيد مولانا ومواليه ولا خلاف فى ذلك ، ولكن أمير المؤمنين أعلم الناس بما كان من بلائهم فى مصلحة هذه الدولة من عهد جدهم خالد فى خدمة جدك المنصور . وقد عرف هذا الملك النبيل فضل خالد فقدمه كما قدم أمير المؤمنين ابنه يحيى وحفيده جعفر .. ولا يخفى على الرشيد ما لهؤلاء من الأثر الصالح فى خدمة دولته وتنظيم ادارتها وسائر شئونها ، غير ما لهم من المآثر فى رفع منار العلم وأسبابه بتقديم الفلاسفة واستقدام الأطباء من الهند وفارس الى بغداد ، وقد بنوا المارستان وأدخلوا الكاغد وعمّروا بغداد بنقل الكنب .. وهم لم يفعلوا ذلك الا والرشيد راض عنه .. وأخشى أن أطيل الكلام .. »

وكان اسماعيل يتكلم وهو يرقب ما يبدو من الرشيد ، وكأنه قرأ فى وجهه قرب استيائه من ذلك الثناء ، وانه لا يرضيه الا ما يقوى عزمه على الفتك بهم .. فاستدرك قائلاً : « ولا أنكر انهم من الجهة الأخرى قد استأثروا بالأموال .. والانسان مطبوع على الطمع ، ولكنى علمت عن ثقة أن الأموال التى تجمع من غلتهم فى كل عام مهما كثرت فانهم يوزعون معظمها على أهل الناقة »

فضحك الرشيد اغتصابا وهز رأسه وقال : « لا يفعلون ذلك
على سبيل الاحسان ولكنهم يتعاون الأحزاب ، ولا يلبثون أن
يجندوا علينا الجند » .. قال ذلك وتنهد

فابتدريه اسماعيل قائلا : « معاذ الله .. »

فقطع الرشيد كلامه وقال وهو مقبل عليه : « كيف لا ،
ووزيرنا الذي دعوته أخى يمالىء العلويين علينا ؟ »

فأجفل اسماعيل وقال : « يمالئهم ؟ »

فقال الرشيد : « نعم .. انه أطلق سراح يحيى بن عبدالله »

فقال اسماعيل : « يحيى العلوى ؟ »

قال الرشيد : « أطلق سراحه بدون اذن ، ولا شك فى ذلك
وقد اعترف هو نفسه به »

فلم ير اسماعيل بابا للدفاع ، وتحقق ان الرشيد لن يرجع عن
غضبه بعد ذلك لعلمه بما فى نفسه على الشيعة العلوية فقال :
« انها جسارة وتطاول .. وهل تظنه فعل ذلك عن عمد وقصد
سيىء ؟ »

فقال الرشيد : « مهما يكن من قصده فان فعله هذا
لا أستطيع الصبر عليه .. »

فقال اسماعيل : « وما الحيلة يا مولاي ؟ »

قال الرشيد : « الحيلة ؟ .. قد حُل قتلته ، والسلام .. »

فأكبر اسماعيل تسرعه الى هذا التصريح وقال : « اذا قتل

أمير المؤمنين عبيده فانه مالك الرقاب يفعل ما يشاء .. ولكنه أعلم منى بما يترتب على هذا الأمر .. وقد قال لى الساعة ان البرامكة يتعاون الأحزاب بالأموال .. »

فأطرق الرشيد واسماعيل وكلاهما يعمل فكرته .. ثم رفع الرشيد بصره وقال : « فما الذى يراه ابن عمنا ؟ »

قال اسماعيل : « ألا ترى أن تفرق بينه وبين أحزابه بعمل توليه اياه خارج بغداد ؟ »

فأبرقت أسرة الرشيد عند سماعه رأيه وقال : « ذلك ما عزمت عليه وسأوليه خراسان .. فاذا بعد عن بغداد فكّرنا فى شأنه .. »

فسر اسماعيل بقبول الرشيد ذلك ، وقال : « نِعم الراى هذا .. »

فقال الرشيد : « انه رأى سديد ، وبعد ذلك تنظر فى أمره » ثم توجه نحوه بكليته وقال وهو يتفرس فيه : « واعلم يا اسماعيل انى لم أطلعك على سرى هذا الا لعظم ثقى بك .. وانى آمرك أن تكتمه فانه ما علم به أحد غيرك ، فاذا بلغهم شىء مما جرى علمت انك أنت الذى أبلغته .. هل فهمت ؟ »

فبهت اسماعيل من ذلك التهديد . ولما سمع الرشيد يخاطبه بتلك اللهجة تحقق أن مشيرى الملوك اذا لم يسايروهم ويداهنوهم كانت حياتهم فى خطر فقال : « أعوذ بالله أن أقدم

على افشاء أسرارك يا أمير المؤمنين »

ثم تزحزح الرشيد من مجلسه ، فعلم اسماعيل انه يريد الانصراف ، فوقف واستأذن فأذن له فخرج ، وقد عظم عليه ما سمعه وأصبح خائفا على الدولة من تغير الرشيد ، وانطلق الى منزله وهو يصبر نفسه ليرى هل يعمل الرشيد بما قاله

- ٥٢ -

اسماعيل وجعفر

وفي صباح اليوم التالي ، علم ان الرشيد بعث الى جعفر فجاءه فأجلسه الى يمينه وأكرمه غاية الاكرام ، وبش في وجهه وحديثه ساعة وأهداه هدايا كثيرة في جملتها غلام خادم من خاصة خدمه ، وأنبلهم وأوضحهم وجها وأكملهم ظرفا ، كاتباً ، حاسباً ، ليبياً ، وان جعفر سرّ سرورا كاملاً بذلك .. فعجب اسماعيل من مقدرة الرشيد على كتمان ما في نفسه من شدة الحنق والضيق والغضب . وربما تبادر الى ذهنه ان الرشيد قد صفح وذهب ما يحفظه على جعفر لولا ما علمه من اطلاق سراح العلوي ، والرشيد يكره تلك الشيعة ويخاف منها على ملكه

ثم علم اسماعيل بعد يومين ، ان الرشيد خلع على وزيره وعقد له لواء على خراسان فظنه قد صفا له .. فتمنى أن تزول الضغائن

بهذه الطريقة وتعود المياه الى مجاريها ، ولا سيما بعد أن علم برضاء جعفر عن هذه الولاية واسراعه في ارسال أعوانه ورجاله يتقدمونه الى النهروان خارج بغداد .. فانهم ذهبوا وضربوا مضاربهم هناك وأخذوا يتأهبون للرحيل الى خراسان ، والبلد بعيد الشقة يحتاج الى الأحمال والأثقال . فلما تحقق اسماعيل من قرب سفر جعفر ، رأى أن يزوره ويودعه ويسعى في ازالة ما قد يكون باقيا في نفس الرشيد بوسيلة خطرت له

وأما جعفر فلم يكن ذلك كله ليذهب ما في قلبه على الرشيد ، ولكنه رأى في سفره الى خراسان بابا للفرج .. وعزم على مخابرة العباسة في شأن الفرار معه . ففي اليوم الذي احتفلوا بالخلع عليه عاد الى قصره في الشماسية وهو من جملة قصور البرامكة في ذلك الحى . وكان لهم عدة قصور هناك أشهرها قصر يحيى بن خالد عند باب الشماسية وقصر له آخر في باب البردان (١) ، وكان جعفر في ذلك العام مقيما في قصره بباب الشماسية ، ولا تقل قصوره فخامة عن قصور الرشيد ، يكفي ما تقدم من وصفها في القصيدة التي دستتها أم جعفر الى زوجها وفيها قول الشاعر في وصف تلك الدار :

وقد بنى الدار التي ما بنى الـ
فرس لها مثلا ولا الهند

الدر والياقوت حصباؤها
وتربها العنبر والنـد

فهذا بعض ما كان من فخامة هذا القصر وأمثاله من قصور
البرامكة مما يضيق المقام عن وصفه ووصف ما فيه من الرياش
الفاخر ، وقد وصفنا قصر الخلد وقصر الأمين ودار القرار (قصر
زبيدة) فقيس عليها ..

فعاد جعفر الى قصره المشار اليه ، وهو لا يصدق انه ولي
خراسان .. وان كان الرشيد قد وعده بها غير مرة ، فثبادر الى
ذهنه ان الخليفة ليس في قلبه غل عليه ، أو انه ولاه خراسان
خوفا منه على دولته اذا ظل في بغداد ، فاستقوى نفسه واستضعف
الرشيد ونسى خوفه منه . فلما عاد الى القصر أمر قهرمانه أن
يهتم بالرحيل ويوصي قيّم الجوارى والعبيد وكاتبه أن يتهيأوا
في الغد . ودخل القصر وكان قد أعجب بالخدام الذي أهداه
الرشيد اليه لأدبه وفرط جماله ، فاصطحبه الى قاعة ريشها
سماوى اللون لاعتقاده أن هذا اللون يشرح الصدر على مذهب
القدماء ، ودخل الغلام لمؤانسته . ثم جاءه الحاجب يقول : « ان
اسماعيل بن يحيى بالبـاب .. »

فنهض جعفر لاستقباله وأدخله حتى أجلسه في صدر مجلسه
لأنه كان يجلس مقامه ويثق به ، لاعتقاده بصماء نيته وصدق
لهجته ، ولكنه لاحظ في أثناء حديثه انه يكتُم أمرا يريد اطلاعه

عليه ، فصرف مَنْ كان في مجلسه من الناس .. ولم يبق في الغرفة سواهما ، وأقبل جعفر بكليته لسمع حديثه فقال اسماعيل : « يا سيدى أنت عازم على الخروج الى بلدة كثيرة الخير ، كبيرة المساحة ، عظيمة المكانة ، فلو تنازلت عن بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده »

فلما سمع جعفر قوله تبادر الى ظنه ان الرشيد أوفده للتوسط في ذلك ، فزاد استخفافا به وثقة بنفسه ، وغلب عليه الحقد لما يقاسيه من تصرفه معه ، وظن أنه قد نجا من قبضته بانتقاله الى خراسان قبل أن يكشف أمر العباسية . وكان حسن الظن باسماعيل ، وكثيرا ما ذكر فضل بيته على الدولة بين يديه واسماعيل يوافقه لأن هذا هو اعتقاده ، فلم يمتنع عند سماعه ذلك عن التصريح برأيه في هذا الأمر فقال : « والله يا اسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك الا بفضل ، ولا قامت هذه الدولة الا بنا . أما كفى انى تركته لا يهتم بشيء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته ، وقد ملأت بيوت أمواله أموالا ، ولا زلت للأمور الجليلة أدبرها حتى يمد عينه الى ما ادخرته واخترته لولدى وعقبى من بعدى ، ودخله حسد بنى هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع ، والله لئن سألتنى شيئا من ذلك ليكونن وبالا عليه سريعا »

فندم اسماعيل على مجيئه اليه وخشى أن يترتب على حديثه أمر يبلغ الرشيد فيعده منه افشاء ، فغيّر الحديث حتى اغتتم

فرصة للاستئذان وخرج

- ٥٣ -

العباسة وأرجوان

أما جعفر فعاد الى صوابه بعد ذهاب اسماعيل ، فرأى انه أخطأ بما بدر منه طعنا في بنى هاشم واسماعيل منهم . فسبق الى وهمه انه ربما باح للرشيد بما سمعه منه .. فلا يبقى سبيل للصلح ، فزاد رغبة في عزمه على الفرار بالعباسة والولدين ، وصفق فجاءه خادمه الخاص حمدان ، وكان شديد الاعتماد عليه .. فأسرَّ اليه بعزمه وقال له : « نحن مسافرون غدا الى معسكرنا في النهروان فاذهب الى عتبة وقل لها تخبر مولاتها العباسة أن تكون على أهبة الرحيل ريثما أبعث اليها من يحملها اليَّ .. أفهمت ؟ »

فقال حمدان : « نعم يا مولاي فهمت .. »

وخرج حمدان مسرعا للقيام بهذه المهمة ..

وكانت العباسة في أثناء هذه الحوادث على أثر اجتماعها الأخير بجعفر وما سمعته من وعده بالذهاب الى خراسان وذهابها معه ، لا تنفك تفكر في هذه الأمنية وهي لا تصدق انها ستظفر بها ، لأنها كانت تفضل الإقامة مع زوجها وولديها سالمين آمنين في كوخ حقير على الإقامة في تلك القصور الفخمة تحت الخطر وأعين

الرقباء .. ولا سيما بعد أن اطلع أبو العتاهية على سرها ورأى
ولديها بعينيه وحدث ما حدث من اساءته . فكانت لا يهدأ لها
بال خوفا من أن يبلغ ذلك أخيها - والعياذ بالله - وكانت لا ترى
اثنين يتساران الا ظنتهما يتباحثان في شأنها ؛ ولا رأت كوكبة من
النمرسان مارة بقرب قصرها الا حسبتها آتية للقبض عليها . ولم
تكن تتعزى بشيء مثل اجتماعها بجاريتها عتبة ؛ وكانت تبوح لها
بمخاوفها وهذه تطمئنها وتمنيها حتى علمت في ذلك اليوم ان
الرشيذ عقد لجعفر على خراسان ، ورأت الناس يتسابقون في
الطرق لحضور الاحتفال بذلك ، فكادت تطير فرحا ومكثت
تتوقع ان يأتيها رسول جعفر ، وانقضت عدة ساعات حتى علمت
بخروج أعوان جعفر ورجاله الى النهر وان ولم يأتيها الرسول ،
فخطر لها أن يكون حبسها قد شغل عنها .. وشككت في صدقه
- والمحب كثير الشكوك - وهمت بالشكوى الى عتبة وكانت
جالسة معها في الشرفة التي انتظرت فيها جعفر منذ أيام . واذا
بحمدان مقبل بملابس أحد خدم قصرها .. فلما رآته قادما أرسلت
عتبة لاستقباله واستلام الرسالة منه ، فلما لقيها قص عليها المهمة
التي أتى من أجلها ، وألح عليها أن تبلغ مولاتها بأن تكون على
أهبة السفر بما خفف حمله .. وأن تتنكر في ملابس إحدى الجوارى
حتى اذا جاء الرسول ، وهو أنا ، فلا يحتاج في اخراجها الى أكثر
من كلمة .. فلما أخبرتها عتبة بذلك بكّت من شدة الفرح وأمرتها

باستدعاء حمدان اليها لتسمع تلك البشرى من فمه ، قدخل
ووقف متأدبا فقالت له : « كيف فارقت سيدك ؟ »

فقال حمدان : « هو بخير ، ويبلغك السلام يامولاتى .. »

قالت : « ومتى تظننا نخرج من هنا ؟ »

قال : « ربما فى صباح الغد .. »

فالتفتت الى عتبة لفتة فهمت انها تذكرها بالولدين : الحسن ،
والحسين .. فقالت : « انهما فى مأمن مع الخادمين كما تعلمين ،
ومتى خرجنا من بغداد بعثنا من يستقدمهما من الحجاز أو حيث
يكونان ، وتتخلصين من هذه المخاوف »

فتنهدت العباسة تنهدا عميقا ، ولكن البشر كان يتجلى فى
وجهها ، فصرفت حمدان ودخلت الى غرفتها وأخذت عتبة فى
الاستعداد للسفر ، وكانت الشمس قد مالت الى الأصيل ،
والعباسة منفردة فى تلك الغرفة ، فما لبثت أن أصابها رد الفعل
فانقبضت نفسها وغلبت عليها عواطفها ، لأنها نصورت نفسها
هاربة من قصرها ومن بين يدي أخيها ، وستترك ذلك القصر بما
فيه من أسباب السعادة وقد تعودته وألفت قاعاته وحدائقه وأثاثه
وخدمه وجواريه وكل شيء فيه . نعم انها تفضل الإقامة مع
حبيبها فى كوخ ، على الإقامة وحدها فى قصر . ولكن الانسان
ابن العادة اذا ألف شيئا شق عليه فراقه ، فكيف بها وقد رببت فى
ذلك القصر ولم تخرج منه الا نادرا . على أنها كانت اذا تصورت

ما ترجوه من الاجتماع بجعفر وولديها هدا روعها . ثم يعترضها ما تخافه من نقمة أخيها اذا علم بفرازاها على تلك الصورة ، وربما حملة غضبه على تجريد الجيوش في طلبها . فكادت هذه الهواجس تشنى من عزمها وهى تغالب عواطفها وتمنى نفسها بالنجاة .. وبينما هى فى تلك الخواطر اذ تذكرت خادما لها كان أمينا على سرها فى أثناء مخاوفها حتى جعلته رئيس الخدم فى قصرها ، واسمه « ارجوان » . وكانت تستأنس به فى ابان اضطرابها وقلقها ، فرأت أن تصطحبه فى فرارها ، فنادت عتبة وكانت منهمكة فى اعداد المعدات فأتت ، والغبار يعلوها والانهماك ظاهر عليها ، فقالت لها العباسة : « أين أرجوان ؟ »

فقالت عتبة : « هو هنا فى القصر .. هل أدعوه ؟ »

قالت العباسة : « ادعه .. فانى أرى أن نصحبه معنا »

فخرجت عتبة ، ثم عادت ومعها ارجوان . وكان أسود اللون أصله من بلاد البربر فى شمال أفريقيا ، وقد ربى فى قصر المنصور وكان مقربا له لأن أم المنصور بربرية . وكان طويل القامة وأكثر طوله فى ساقيه على طبيعة الخصيان . وهو يومئذ فى نحو الخمسين من عمره .. ولولا قلة الشعر فى وجهه من نتائج الخصى ، لظهرت شببته وبانت كهولته . ولكن هؤلاء الخصيان قلما تعرف حقيقة عمرهم بمجرد النظر اليهم . وكان ارجوان قد ربى العباسة منذ طفولتها وأخلص الخدمة لها ، وهى قد تعودته واحسنت الثقة به .

فلما استقدمته في ذلك اليوم وقف بين يديها ، فنظرت اليه والدمع في عينيها ، فلما رآها تبكى بكى معها وقال بصوته المؤنس ولحنه الأعجمي : « ما الذى تأمرين به يامولاتى ؟ »

قالت العباسة : « نحن مسافرون ، وأحب أن تخرج معنا »

فقال ارجوان : « انى عبدك وطوع ارادتك .. »

قالت العباسة : « أتدرى الى أين ؟ »

فقال ارجوان : « الى حيثما تشاءين .. ولو الى القتل »

قالت العباسة : « بورك فيك يا ارجوان ، فاشتغل مع عتبة في

اعداد ما يلزم .. وهى تنبئك بالخبر »

فقال ارجوان : « سمعا وطاعة .. » وخرج مع عتبة ، فقصت

عليه ما هم فيه ، فأخذ في التأهب

فلنتركهم في ذلك .. ولنعد الى الرشيد

— ٥٤ —

الرشيد وزبيدة

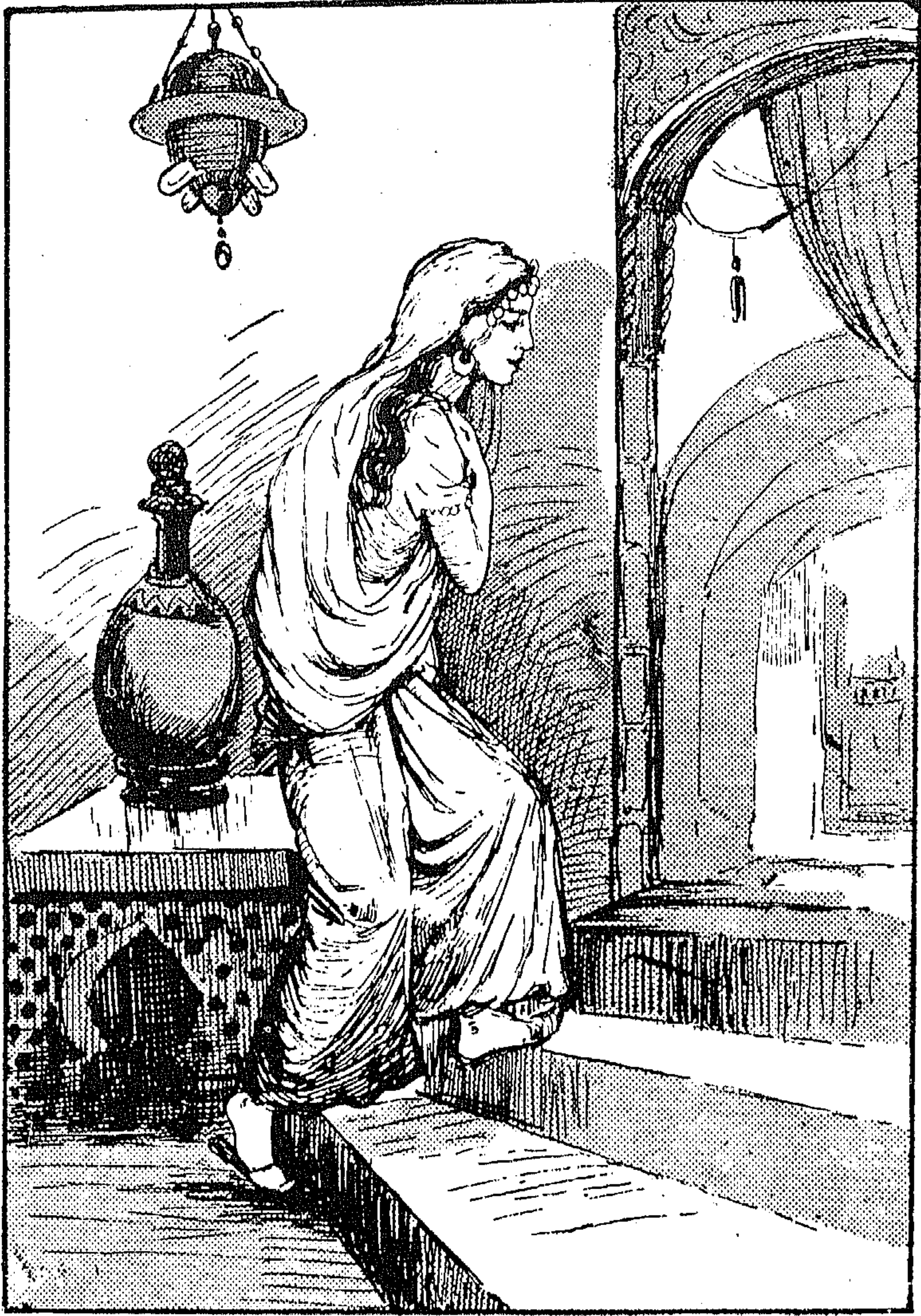
كان الرشيد أكثر كتماناً لسره مما ظهر لاسماعيل .. فمع شدة ثقته به ، لم يطلعه على كل ما ينويه لأن غضبه لاطلاق سراح ذلك العلوى ظل راسخاً في نفسه . وقد ولى جعفر خراسان وعقد له عليها ليجربه ويستطلع كنه قلبه ، فأهداه ذلك الخادم الجميل

جاسوسا ينقل اليه أقواله ، وكان الخادم المشار اليه واقفا ساعة زيارة اسماعيل بحيث يسمع ما دار بينه وبين جعفر ، فكتب بذلك الى الرشيد حالا. فلما وصل كتابه اليه تحقق من سوء نية جعفر ، فعاد الى مخاوفه وكان جالسا على سريره .. فلما قرأ الكتاب هب من مقعده وقد عظم الأمر عليه .. ورأى الفرصة ضيقة لا تأذن بأعمال الفكرة . وخيّل له ان وزيره اذا خرج من بغداد أفلت من بين يديه ، وأهل خراسان طوع ارادته فيسهل العصيان عليه . فلما تصور ذلك خفق قلبه وأشكل عليه أمره ، فأخذ يخطر في الغرفة ذهابا وإيابا كأنه أصيب بجنّة ، وأحس بحاجة الى من يباحثه في ذلك ، ولم يعد يرى أن يخاطب اسماعيل بعد ما علمه من حديثه منع جعفر وصداقته له وان كان لا يشك في أمره .. فانه انما يلتبس المداولة مع من يجاريه في عزمه ، ولا يعارضه كما فعل اسماعيل ..

قضى الرشيد ساعة في التردد حتى كاد يتقد غيظا ، فخطر له أن يشاور امرأته زبيدة في الأمر على غير المألوف من شأن المرأة في ذلك العهد . ولكن الرشيد كان يحب زبيدة ويحترمها وتبرك بمشورتها ، ويعلم ما بينها وبين جعفر من العداوة القديمة . فلما خطر له ذلك أحس بارتياح عظيم ، وكان الوقت نحو الغروب فدعا مسرورا وأمره أن يهيئ له برذونا ليركب عليه خفية الى قصرها (دار القرار) ولا يسير معه أحد سواه

فأعد له البرذون فركبه وقد تلثم ومشى مسرورا في ركابه ،
فلما أقبل على الدار لم يعرفه الحرس .. ولكنهم عرفوا مسرورا
ففتحوا له فدخل الحديقة ، ثم ترجل الرشيد وأمر مسرورا أن
يسبقه الى زبيدة فيخبرها بمجيئه . فلما أخبرها أدركت انه انما
جاءها في تلك الساعة لأمر هام .. فخرجت لاستقباله في القاعة
التي استقبلت فيها ابنها محمدا منذ أيام ، وقد أضيئت فيها
الشموع فزادتها بهاء . ولبست هي أفخر ثيابها وتطيبت
واستقبلته أحسن استقبال ، وعليها العقود من الجوهر ، وفي
رأسها الدبابيس المرصعة ، وفي صدرها الحلى المنمقة على أشكال
بديعة .. حتى خفافها كانت مرصعة كما علمت ، وأقبلت ترحب به
وتلاطفه . أما هو فمع شدة غضبه ، لم يتمالك عند رؤيتها من
الابتسام .. وجلس على السرير وأمسك بيدها وأجلسها الى جانبه
وهو يتشاغل بالنظر الى ما عليها من أنواع الحلى ، وقد زادها
ضوء الشموع لمعانا وروثقا . أما هي فلحظت ما وراء ذلك
الابتسام من الغيظ ، ولكنها تجاهلت وعادت الى الترحاب
فقالت : « مرحبا بأمر المؤمنين .. لقد آنسنى بلقياه وشرافنى
بمجيئه ، فهل يأمر بطعام أو شراب ؟ »

فلم يسعه الا أن قال : « لم آتكم للطعام يا ابنة العم .. »
فقالت وقد أبرقت عيناها تفرسا واستطلاعا : « لخير جئت ان
شاء الله .. »



(وخرجت زبيدة لاستقبال الرشيد في القاعة التي استقبلت فيها ابنها محمدا
منذ أيام ، وقد اضيئت فيها الشموع فزادتها بهاء . . .)

فمد يده الى جيبه ، وأخرج الكتاب الذى جاءه من جاسوسه
ودفعه اليها ولم يتكلم ، فتناولته وقرأته وهو يراقب ما يندو
منها ، فلما فرغت من قراءته أعادته اليه وهى تضحك فقال لها :
« أراك تضحكين كأنك لم تقرئى الكتاب ..؟ »

قالت : « بلى .. قرأته »

قال : « لا أظنك تدركين ما ينطوى عليه ، الا اذا أخبرتك
بما ارتكبه هذا الفارسى ؟ »

فلما سمعت قوله ظنته اطلع على خبر العباسة ، فتجاهلت
وقالت : « وماذا ارتكب ؟ »

قال : « انه أطلق سراح الرجل العلوى الذى لم تقبض عليه
الا بشق النفس ، ولم نكد نتحقق اننا حبسناه واثقيناه شره حتى
عاد فأطلق سراحه . وأنت تعلمين من هذا الكتاب ان هذا العبد
قد شمع بأنفه حتى أصبح يهددنا .. فمن يضمن انه اذا سار الى
خراسان لا تحدثه نفسه بالتمرد فيعصانا وتخرج خراسان من
أيدينا ؟.. فأشيرى على ، فانى أتبرءك بمشورتك »

فضحكت زبيدة ضحكة يمازجها التهكم والاستخفاف ، ولم
يكن أحد من أهل الخافقين يجرؤ على ذلك بين يدي الرشيد
سواها ، لأنه كان يحبها ويحترم رأيها ولها عليه دالة القرابة
وسلطان الحب ، فكيف اذا أضيف اليهما نفوذ صاحب الحق ،
لأنها كثيرا ما نصحت له أن يعدل عن الاستسلام لجعفر وأهله

وهو لا يطيعها ، بل كان يحمل ذلك منها يحمل الانتقام منهم . فلما جاءها الآن يشكو عواقب استسلامه نظرت اليه نظر الظافر وقالت : « مثلك يا أمير المؤمنين مع البرامكة مثل رجل مخمور عريق في بحر عميق ، فان كنت قد تيقظت من سكرتك ، وتخلصت من غرقك أخبرتك بما هو أعظم من ذلك كثيرا ، وان كنت لاتزال على الحالة الأولى .. تركتك »

فأثرت لهجتها هذه على الرشيد تأثيرا عظيما .. ولولا حرمتها عنده ما أمسك عن الفتك بها فقال لها : « قد كان ما كان .. فقولى أى شىء أعظم من هذا ؟ »

قالت : « ان الأمر الذى سأحدثك عنه ، قد أخفاه عنك وزيرك .. وهو أقبح من الخبر الذى عرفت وأشنع »
فغضب الرشيد وقال : « ويحك .. وما هو ؟ قولى »

فأعرضت بوجهها عنه وقالت : « انى أجل نفسى عن أن أخاطبك به .. وعليك أن تحضر أرجوان الخادم ، وتشدد عليه وتوهنه ضربا فينبئك بالخبر »

فكاد الرشيد يتقد غيظا ونهض سريعا وصاح : « أرجوان ؟ خادم العباسة أختى ؟ »

قالت : « نعم .. خادم العباسة أختك »

فصاح الرشيد : « أين هو .. ؟ استدعيه »

فصفت زبيدة فجاءها أحد الشاكرية الواقفين ببابها فقالت :

« اذهب حالا وادع لنا ارجوان الخادم من قصر العباسة »
 فأجاب مطيعا وخرج ، وظل الرشيد في انتظاره كأنه على لظى
 الجمر ، وزبيدة جالسة بين يديه ، ولم يفه أحدهما بكلمة

— ٥٥ —

كشف السر

وكان ارجوان مشغلا بالتأهب للسفر كما علمت ، وقد اطلع
 على سر مولاته وسبب سفرها ، وهو حريص على راحتها متفان
 في سبيل مرضاتها ، فان أولئك الخصيان اذا طابت سرائرهم كانوا
 نعمة على مواليتهم ، لأن الرجل منهم اذا أخلص النية نسي نفسه ،
 وانقطع لخدمة مولاه بكل جوارحه . ولعل السبب في ذلك انهم
 لا يتزوجون فلا يعلقون آمالهم بولد أو ابنة ، فتتصرف عواطفهم
 الى مواليتهم يسرون لسرورهم ، ويحزنون لحزنهم ، لا يبالون بما
 يقاسونه في سبيل ذلك ، ولا يهمهم ان كان مولاهم على حق فيما
 يعمله أو على باطل . وكان ارجوان من أطيب الناس قلبا وأكثرهم
 تعلقا بمولاته ، ولا سيما العباسة ، فانها نظرا لما كانت تتمتع به على
 يده من أسباب الراحة بما يسهل لها من دخول جعفر الى قصرها
 وخروجه ، فانها كانت تبالغ في اكرامه وتتلطف في معاملته وهو
 يزداد تفانيا في خدمتها

فكان ارجوان فى ذلك المساء يعد معدات السفر .. واذا بالخدم يدعونه فخرج ، فرأى شاكرى ينتظره بالباب فعرف انه رسول من زبيدة فقال : « ما وراءك ؟ »

قال الشاكرى : « مولاتنا أم جعفر تستدعيك »

فقال ارجوان : « الساعة ؟ .. »

قال الشاكرى : « نعم .. فى هذه الدقيقة »

فقال ارجوان : « تمهل ريثما أخبر مولاتى العباسة بذلك »

فقال الشاكرى : « لا داعى الى اخبارها ، فابها كلمة تقولها

مولاتنا لك ، ثم تعود .. »

فصدقه ارجوان وخرج ، والعباسة لا تعلم ..

أما الرشيد فكان قد ملء الجلوس فى تلك القاعة ساكتا ، فنهض وتمشى فى دهليز الدار وهو يرتعد من شدة الغضب ويقول فى نفسه : « ماذا عسى أن يكون ذلك الأمر العظيم ؟ » على أن ترفع زبيدة عن التصريح به وإحالة ذلك الى ارجوان الخصى نبهه الى انها فضيحة تمس العرض ..

ثم سمع حركة فى الحديقة فعلم ان الشاكرى قد عاد ، فتقدم حتى رجع الى القاعة ، وكانت أم جعفر قد خرجت منها لئلا تسمع ما يدور بين الرشيد والخصى

فدخل الشاكرى وقال : « ان ارجوان بالباب يا أمير المؤمنين »

فقال الرشيد : « هاتوا السيف والنطع »

فأتاه الشاكرى بهما ، فبسط النطع فى الدهليز خارج القاعة ، ووضع السيف بجانبه . ثم صاح الرشيد : « أين أرجوان ؟.. أدخله »

ولما سمع أرجوان صوت الرشيد بهذه اللهجة أسقط فى يده فدخل وركبته تصطكان من الخوف ووقف متأدبا ، ولما رأى النطع والسيف لم يعد يستطيع الوقوف من شدة الارتعاش ، ولم يجسر على أن يرفع بصره عن الأرض . فأشار الرشيد إلى مسرور بأبعاد الخدم والشاكرية واغلاق الأبواب حتى لا يعلم أحد بما يدور فى هذا الشأن ، ثم نظر إلى أرجوان قائلاً : « برئت من المنصور ان لم تصدقنى فى حديث جعفر لأقتلنك »

فعلم انه يسأله عن أمر جعفر مع العباسة فظل ساكتا ، ولو أراد أن يتكلم لم يطعه لسانه من شدة الخوف . فصاح فيه الرشيد : « ما بالك .. تكلم والا فهذان هما النطع والسيف .. » ثم صاح : « مسرور .. »

فحضر ذلك الرجل الغليظ القلب بأسرع من لمح البصر ، فأشار الرشيد إليه ، فتناول السيف وانتضاه ووقف بجانب النطع ينتظر أمر الخليفة ، فلما رأى أرجوان ذلك جثا عند قدمى الرشيد وأخذ يقبلهما ويكى ، فتلطف الرشيد فى خطابه فقال له بصوت هادئ : « قل الصدق ولا تخف .. ما الذى تعلمه من أمر جعفر ، الوزير وأهل ذلك القصر ؟.. قل حالا .. »

فقال ارجوان وصوته يكاد يختنق ، ولسانه يتلعثم من شدة الخوف والبكاء : « الأمان يا أمير المؤمنين »

فقال الرشيد : « نعم .. لك الأمان ان قلت الصدق ، والا فأتينا سوف نقتلك بهذا السيف .. واعلم اننا مطلعون على كل شيء »
فحدثته نفسه أن يحافظ على سر مولاته تفائيا في سبيل مصلحتها ، ولكن الضعف البشري غلب عليه ، وهو يغلب على كبار الرجال في مثل هذه الحال ، فكيف بعيد خصى. مهما بلغ من اخلاصه ؟.. على انه اتحل لنفسه عذرا لاقرار . وذلك ان الرشيد لم يسأله الا وهو يعلم كل شيء ، فاذا أنكر قتل ولم تنتفع مولاته بقتله ، أما اذا اعترف وظل جيا فقد يستطيع انتقاذها ، أو خدمتها في شيء . مرت تلك الخواطر في ذهنه في لحظة واحدة ، ولما عمد الى الاقرار أحس بوخز الضمير لئلا يقع من اقراره ضرر على مولاته العباسية ، فأطرق وتشاغل ببلع ريقه ، ولا ريق في فمه لما أصابه من الجفاف لشدة خوفه وهول موقفه ، ولاحظ الرشيد تردده ، فصاح فيه : « تكلم .. أو أقتلك .. »

فقال ارجوان وصوته يتلجلج : « ان جعفرا .. قد تزوج أختك العباسية .. منذ سبع سنين ، وولدت منه ثلاثة بنين .. أحدهم .. له ست سنوات ، والآخر .. له خمس سنوات ، والثالث عاش سنتين .. ومات قريبا ، والاثنان الباقيان .. قد أرسلهما الى مدينة الرسول .. وهي حا .. مل .. بالرابع .. » واختنق صوته

- ٥٦ -

الانتقام

وكان الرشيد يسمع كلامه ، والشرر يكاد يتطاير من عينيه فلما فرغ ارجوان من كلامه قال له الرشيد : « كيف يقع ذلك وأنت تعلم به ولم تخبرني ؟ »

فتشدد ارجوان عند هذا السؤال لأن جوابه سهل عليه وقال : « أنت أذنت لوزيرك بالدخول على أهل بيتك ، وأمرتني أن لا أمنعه في أى وقت شاء ليلا أو نهارا .. »

فقال الرشيد وهو يصر على أسنانه : « أمرتك أن لا تحجبه فحين حدثت هذه الحادثة لماذا لم تخبرني أول الأمر ؟ » (١) ثم التفت الى مسرور وقال : « اضرب عنقه »

فأمسكه مسرور بيد من حديد وقاده الى النطع بعنف ، كأن له عليه ثأرا دمويا فسقط ارجوان وهو يصيح : « الأمان .. الأمان .. »

فلم يمهله مسرور حتى يقول الثالثة ، لئلا يجيب الرشيد طلبه فيعفو عنه وهو سفاك غليظ القلب ، يلذ له منظر سفك الدماء ،

(١) إعلام الناس ١١٤

ويفتخر بعدد الذين قتلهم ، وبسرعة فتكه بهم ، فابتدر أرجوان بضربة سيف على عنقه فأزاح رأسه عن كتفيه

أما الرشيد فحوّل وجهه وسأل عن زبيدة فدلوه على غرفتها فدخل عليها ، وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما ، وكانت متربعة على فراشها ، وقد أطرقت تفكر . فلما رأت الرشيد داخلا تحفزت للقيام ولم تقم . أما هو فلم يلتفت الى شيء من ذلك لما هو فيه من الحنق ، وقال وصوته يرتجف ، ولحيته ترقص وقد امتنع لونه : « رأيت ما عاملني به جعفر ..؟ وما ارتكب من هتك عرضي وفضيحتي بين العرب والعجم »

فقالت زبيدة في صوت هادئ وجأش رابط : « هذه شهوتك واراadtك .. عمدت الى شاب جميل الوجه ، حسن الثياب طيب الرائحة ، جبار في نفسه ، فأدخلته على ابنة خليفة من خلفاء الله ، وهي أحسن منه وجها وأنظف منه ثوبا وأطيب رائحة ، لكنها لم تر رجلا غيره ، فهذا جزاء من جمع بين النار والخطب »

فقال الرشيد : « ألا تزالين تعنفيني .. والله سأمحو هذا العار عني بالدماء »

فسرّها تهديده وأحبت أن تتمكن من عزمه انتقاما من جعفر فقالت : « سنرى ما يكون .. وأخشى انك اذا رأيت وزيرك غيرت عزمك اذ يغلب عليك حنان الأخوة فتعفو عنه ..! » . قالت ذلك وهي تتشاغل بتثنية أهدا بكمها المزركش بالقصب ، وبان

الغضب والعتب في عينيها

فأحس الرشيد بما ينطوى تحت تلك العبارة من القوارص ،
 وشعر انه صاحب الذنب وحده لأنه كثيرا ما سمع نصحتها له في
 هذا الشأن ولم يعرها التفاتا ، ولكنه استكبر تعريضها بذلك في
 تلك الساعة ، ولولا احترامه لها ما صبر على توبيخها . ومع ذلك
 فقد كظم غيظه وتجلد وتنهد ونظر اليها وقال : « كفى يا ابنة
 العم .. فما علينا الا كتمان هذا الخبر ما استطعنا الى كتمان
 سبيل .. وأى انسان علمت انه اطلع عليه قتله .. الا أنت .. وقد
 قتلت ارجوان بعد أن امّنته ، لأنى لم أطق صبرا أن أرى رجلا
 يعلم بهذه الخيانة التى لطختى بها أختى ووزيرى الذى أسميه
 أخى » ثم اتبه لنفسه وندم على تصريحه بما فى خاطره على جعفر ،
 ولاسيما بين يدي زبيدة وهى أشد أعدائه نقمة عليه . فتماسك
 وحاول الابتسام والتجلد وقال : « ولكن الانسان موضع الخطأ
 والنسيان .. »

فأدركت زبيدة ما يتضارب فى خاطره من العواطف وأحست
 انه يهم بالخروج ، فوقفت له وحاولت اجلاسه فامتنع وودعها وهو
 لا ينظر اليها اما خجلا أو حنقا . فأمسكت بيده واستوقفته
 فوقف وهو لا يلتفت اليها فقالت : « تمهل .. ألا تحب أن تعرف
 مكان الغلامين ؟ »

فأجفل الرشيد وقال : « الغلامان ؟ .. علمت انهما فى المدينة »

قالت زبيدة : « كلا .. بل هما في مكان قريب أنا أعرفه ،
وسيحضران متى شئت »

فقال الرشيد : « في بغداد ؟ »

قالت زبيدة : « نعم .. »

فتحول الرشيد عنها وصاح وهو لا يزال في القاعة « مسرور »
فحضر مسرور أسرع من البرق ، فقال له الرشيد وزبيدة
واقفة : « هل رأيت شيئا الليلة ؟ »

فقال مسرور : « كلا يامولاي .. لأنني أعمى أصم » وهي علامة
تحريضه على الكتمان ، ثم أمره أن يأتيه بالبرذون .. وسار في
أثره فأتاه به ، فركبه وسأقه نحو قصر الخلد ، ومسرور يعدو في
ركابه وقد مضى هزيع من الليل . فقضى الطريق وهو غارق في
بحار الهواجس وقد نسي نفسه لما جاش في خاطره من أمر
العباسة . وأعمل فكرته فيما دهمه من الأمر العظيم ، فرأى أن
ملكه وسطوته وأمواله أو أي شيء مما حازه من نعيم الدنيا
لا يخفف عنه وطأة ذلك المصاب . وحدثته نفسه أن يستقدم أخته
في تلك الساعة أو يذهب إليها ويفتك بها ، ولكنه خشي الفضيحة ،
فجعل يصبر نفسه إلى الغد لعله يهتدى إلى سبيل آخر

- ٥٧ -

التردد

أما العباسة فقد كانت في غفلة عن كل ذلك ، تهتم بأعداد معدات السفر ، وعتبة تبذل جهدها في طمأننتها وتطيب خاطرها ، وتمنيها بما ترجوه لها من السعادة متى خرجت من بغداد ، وأقامت في خراسان ، اذ يكون زوجها صاحب السلطة فيها . وكانت العباسة اذا عملت فكرتها واستخدمت عقلها رأت انها تعرض نفسها لخطر عظيم ربما آل الى سفك الدماء . اما اذا استشارت قلبها وتصورت اجتماعها بحبيبها ولا رقيب عليهما .. فيقومان بتربية الولدين في طمأنينة وسلام ، فلا يحرمان من حبهما وحنانهما ، تبرق أسرتها وتنشط نفسها ، ثم يعترضها غضب أخيها اذا علم بصنيعها .. فتعود الى الانقباض . وأخيرا أحسن بانفراج كربتها فجأة لحاظ طرق على ذهنها يغنيها عن هذه المخاوف . وذلك أن تكتم اسمها وخبرها في خراسان ، فتعيش مع زوجها وولديها متنكرة حتى يقضى الله بما يشاء . وكانت هذه الخواطر تخفف من مخاوفها ، ولا سيما اذا تذكرت ارجوان خادمها الأمين لأنه كان من أعظم أسباب تعزيزتها

وبينما هي في تلك الهواجس رأت عتبة تعدو نحوها والبعثة

ظاهرة على وجهها ، فخفق قلبها وتصاعد الدم الى محياها ، ولم يكن أسرع من وقوع الرعب في ذلك القلب لما تعلمه صاحبتة من الأخطار المكددة بها من كل جانب ، ولا سيما في تلك الساعة وهي على ما قدمناه من القلق . فلما رأت عتبة على هذه الصورة صاحت فيها : « ما وراءك ؟ »

فقال عتبة : « أرجوان .. » وسكتت

فبغت العباسة وقالت : « ماذا جرى له ؟ »

فقال عتبة : « لا أعلم أين هو ؟ »

قالت العباسة : « أليس هو في القصر ؟ ابحثي عنه لعله في

احدى الغرف يقوم باعداد معدات السفر .. »

فهمت عتبة بالخروج وهي لا تنويه ، ثم عادت ووقفت متحيرة وأطرقت وهي تتشاغل بحك صدغها ، فازدادت العباسة خوفا ، وقالت : « ما بالك يا عتبة ؟.. ماذا جرى لأرجوان ؟.. قولى أين هو ؟.. »

فقال عتبة : « لا أدري يامولاتى ، ولكن أخبرنى أحد الخدم

انه خرج من القصر و ... »

فقطعت العباسة كلامها قائلة : « خرج من القصر ؟ !.. أفى

مثل هذه الساعة يتركنا ؟.. والى أين ذهب ؟ »

فقال عتبة : « لا أعلم .. » وغصت بريقها

فصاحت العباسة : « ويحك قولى .. أين هو ؟ »

فقلت عتبة : « أظنه ذهب الى دار القرار .. »
 فصاحت العباسة : « دار القرار ، ذهب الى أم جعفر ، وأى
 شغل له هناك ؟ »

فقلت عتبة : « أخبروني ان شاكر يا جاء في طلبه على عجل ،
 ولم يمهله ريثما يستأذنك .. »

فعضت العباسة على شفيتها وأطرقت لحظة ، ثم استأنفت
 السؤال قائلة : « شاكرى جاء في طلبه ؟ .. وماذا تظنين سبب
 ذهابه ؟ »

فقلت عتبة : « أظنه ذهب لأمر مخيف .. »
 فقلت العباسة : « أمر مخيف ؟ .. ولماذا ؟ .. قد يكون ذهابه
 لغرض بسيط .. ! »

قلت عتبة : « بل هو ذهب لأمر مخيف .. لأن أمير المؤمنين
 هناك الليلة .. »

فضربت العباسة يدا بيد ، وصاحت : « أمير المؤمنين هناك ؟ ..
 ومن أخبرك بذلك ؟ .. قولى .. لقد أزعجتني يا عتبة ! .. »

فقلت عتبة : « علمت انه هناك من جاسوس لنا في قصر
 الخلد جاءنى من ساعة وأخبرنى ان الرشيد ركب برذونه وجاء
 الى دار القرار ومعه الخادم اللعين مسرور .. ولم أنقل لك هذا
 الخبر في حينه لأننى كنت مشغلة فى الاستعداد للسفر ، وكنت

أحسب مجيئه لأمر خاص به ، فلما علمت بذهاب ارجوان على هذه الصورة وقع الرعب في قلبي فجئت اليك .. انى خائفة من عاقبة ذلك ياسيدتى .. »

فأطرقت العباسة وقد أخذ الخوف منها مأخذا عظيما ، وعمدت الى التفكير فيما سمعته .. وارتبكت فى أمرها ، فقالت : « ما الذى تخافينه من استدعاء ارجوان وأخى هناك ؟ ! .. ومع ذلك فنحن على أهبة السفر غدا »

قالت عتبة : « صدقت .. وأنا قد فرغت من الاستعداد ، ومتى رجع ارجوان ورأينا فى الأمر ما يدعو الى سرعة الذهاب خرجنا حالا .. ألا تخرجين فى هذا المساء ؟ »

فقالت العباسة : « ولكن الوزير أمرنا أن نتنظر حتى يأتينا رسوله .. »

فقالت عتبة : « سنرى .. وسأرسل خصيا يتجسس خبر ارجوان ويعود الينا سريعا »

قالت العباسة : « افعلى .. » وتحولت عنها الى الشرفة التى تعودت أن ترى رسول جعفر منها اذا جاءها بخبر .. وخرجت عتبة لارسال الخصى

- ٥٨ -

العباسة والرشيد

وقفت العباسة في الشرفة ساعة ، وعيناها تتطلعان الى الطريق ،
والظلام يحجب بصرها .. وكلما رأت شبحا ظنت انه رسول جعفر
ظلت العباسة على هذه الحال حتى مضى نصف الليل ، والهواجس
تتقاذفها ، فلما استبطأت عتبة همّت أن تبعث في استقدامها ، فاذا
هي آتية تعدو مهرولة والدمع يتساقط من عينيها وقد نبش
شعرها ، وامتقع لونها ، وابيضت شفتاها ، فصاحت العباسة :
« ما بالك يا عتبة ..؟ ما لي أراك تبكين ..؟ ماذا حدث ؟ »
قأسرعت عتبة وأمسكتها بيدها وجرتها الى حافة الشرفة ،
وهي لا تتمالك عن الارتعاش وقالت : « اذهبى ياسيديتى ..
انزلى من هذه الشرفة .. أطلبى الفرار بنفسك .. »
فقال العباسة : « ماذا جرى ؟ هل عاد الجاسوس الذى
أرسلته ..؟ ماذا قال ؟ »
فقال عتبة : « عاد .. ولم تنفعا عودته .. انزلى من هذه
الشرفة واختبئى فى الشارع ، وسأرسل اليك من يصحبك الى
مولاى الوزير .. انزلى .. انزلى .. »
فاستغربت العباسة حالها ، وقالت لها : « ماذا جرى ..؟
قولى .. »

فقال عتبة وصوتها يرتجف ويتقطع : « أمير المؤمنين ..
يامولاتى .. أمير المؤمنين » وأومات بيدها نحو الداخل

ففهمت العباسة ان الرشيد جاء الى القصر ، وأدركت ان الأمر
بلغ أشده وان الساعة آتية لا ريب فيها ، لأن أخاها لا يأتيها بعد
نصف الليل الا لأمر عظيم ، ولا سيما بعد تلك المقدمات .. فعظم
عليها الأمر لأول وهلة فوقفت لحظة . ثم غلبت عليها عزة النفس
ونسيت ما كانت فيه من الاضطراب ، وأكبرت أن تفر على هذه
الصورة وهى لا تضمن النجاة . وتحولت رعدتها الى سكينه ،
وثاب اليها رشدها ، وظلت واقفة مكانها وعتبة تشد بهدب ثوبها
وتحرّضها على الفرار من تلك الشرفة .. ثم سمعت دبدبة ، ووقع
أقدام كثيرة ، فاجتذبت ثيابها من عتبة وقالت : « دعينى ، فانى
أحب أن أرى أخى وأسمع قوله » ثم تراجعت وهمست فى أذنها
قائلة : « ارسلى رجلا سريع الخطى يمضى الى الوزير فيخبره بما
جرى لنا ليكون على حذر من أمر نفسه ، مخافة أن يصيبه
ما أصابنا .. لأن مجيء أخى بعد منتصف الليل على هذه الصورة
يدل على خطر يهددنا جميعا »

قالت العباسة ذلك ونزلت من الشرفة نحو الدار ، فلقيت
الرشيد مارا فى الدهليز نحوها وعليه ثوب بسيط فوقه عباءة
واسعة لأنه جاءها متنكرا ، وكان قد ذهب الى قصره على أن
تؤجل أمر العباسة الى الغد — كما تقدم — فعظم عليه القلق ولم

يستطع النوم ، فبادر اليها ومعه مسرور خوفا من أن يبلغها غضبه فتعمد الى الفرار لعلمه بمن يحيط به من جواسيسها وجواسيس جعفر ، ولم يكن يتوقع أن يراها خارج الفراش .. فكيف وقد شاهدها تتأهب للسفر !

أما العباسة فتجلدت ورحبت بالرشيد قائلة : « لقد شرفنى أخى بزيارته » .

فلم يجبها الرشيد ، بل ظل ماشيا الى مقصورة لها فى أحد جوائب القصر تغوّد أن يجالسها فيها اذا زارها .. فتبعته وركبتها تصطكان وهى تحاول أن تهدىء من روعها ، وقد ذهب خوفها من الموت ، لأن توقع المصيبة شر من وقوعها . وكبير النفس اذا تراكت عليه المخاوف وتحقق من وقوع الخطر ، تجلد ورجع اليه رشده .. فالعباسة تشددت وقام فى نفسها أن تناقش أخاها الحساب .. فاذا قتلت بعد ذلك فلا تندم على الحياة

وكانت عتبة تمشى فى أثرها وهى تبكى وتتمتم ، فأشارت اليها العباسة أن تنصرف لأداء المهمة التى كلفتها بها.. ورأت العباسة فى دهليز الدار مسرورا الخادم واقفا ، فلما وقع نظره عليها حيّاها باحترام فلم ترد عليه التحية لعلها بفضاظة قلبه — والنساء يكرهن أهل الغلظة والحشونة بلا سبب يدعو الى الكراهية — وما زالت العباسة تمشى وراء أخيها الرشيد حتى دخل المقصورة وجلس على

المتعد وهو يلتف بالعباءة وعلى رأسه عمامة صغيرة من الوشي .
وتوسمت العباسة في وجهه الغضب الشديد حتى كاد الشرر
يتطاير من عينيه ، فتجاهلت ووقفت أمامه تنتظر ما يبدو منه
أما هو ، فقد أمرها بإغلاق الباب فأغلقتة ، ووقفت في جراءة لم
يعهد لها فيها من قبل ، فابتدورها قائلاً : « أراك في ثياب السفر
يا عباسة فالى أين ؟ »
فقالت العباسة : « الى حيث لا أرى أخا ، ولا أخاف ظلما »

- ٥٩ -

الجدال

فاستغرب الرشيد مفاجأتها اياه بهذه الجرأة على حين انه لم
يكن يتوقع منها غير التذلل والتضرع ، فحمى غضبه ، ولكنه
صبر نفسه ريثما يوجه اليها بعض الأسئلة ويسمع اجابتها عنها ..
قال : « أتعلمين لماذا جئتك في هذا الليل والناس نيام ..؟ الا أنا
وأنت ؟ »

فقالت العباسة : « كلا .. »

قال الرشيد : « فلماذا بادرتنى بهذه الوقاحة ؟ »

فقالت العباسة : « سألتنى سؤالا ، فصدقتك في الاجابة عنه ! »

قال الرشيد : « لقد جاء الصدق متأخرا بعد الخيانة التي ارتكبتها »

فقلت العباسة : « لا أعتقد انى ارتكبت خيانة .. ولو سألتنى مثل هذا السؤال من قبل ما كذبتك »

قال الرشيد : « ألم تكونى أخت أمير المؤمنين ؟ »

فقلت العباسة : « بلى .. وأرجو أن لا أزال أخنه »

قال الرشيد : « ومثلك تخون أخاها فى رجل من الموالى ؟ »

فقلت العباسة : « قلت لك انى لم أرتكب خيانة قط ، وحاشا

لله أن أخون أحدا .. »

قال الرشيد : « أتجيبينى بهذه القحة ، وقد أصبح أمرى

مشهورا حتى أذلتنى بين الملأ بأمر أتيته لم يخطر ببالى ؟ »

فقلت العباسة : « وأى أمر تعنى ياهرون .. أو لعلك تعد

الصدق خيانة ؟ »

قال الرشيد : « أعنى أمرى مع جعفر الوزير الذى لم يرع

حرمتى ولا خشى سطوتى .. »

فأجبت العباسة عند ذلك أن تجادله بالبرهان لعله يرق لها

ويغذرها ويبقيها ، فقلت : « ان الوزير لم يخرق لك حرمة ، ولا

أراد بك سوءا .. فافرق يا أخى ولا تتعجل فى حكمك .. »

فصاح الرشيد فيها : « لا تدعينى أخا لك .. فانى برىء من

قربتك .. »

فقلت العباسة : « تبرأ منى ما شئت .. ولكن ذلك الرجل لم يرتكب خيانة .. »

قال الرشيد : « ويحك .. ألا تزالين تحاولين الكتمان ؟ .. فاعلمى أنى عرفت كل شيء ، وقد صارحنى ارجوان خادمك الخائن بسرّك .. وإذا أصررت على الانكار فان ولديكما يشهدان على ذلك .. »

فلما سمعت العباسة ذكر ولديها تحرك حنانها ، وخيّل لها انها اذا أصرت على الجفاء دفعته الى ايّ قاع الأذى بهما ، فصغرت نفسها وضعف عزمها عن المقاومة وغلب عليها الحنان ، واستسهلت فى سبيل استبقائهما أن تتذلل وتستعطف - وليس أشد وقعا على قلب الوالدين من أن يصابوا فى أولادهم ، فاذا خافوا ذلك لا يبالون بما يضحّون فى سبيل انقاذهم ، ولو ارتكبوا أكبر الكبائر فى هذا السبيل ، والاستعطاف من أسهل الوسائل - فجشت العباسة عند ركبتى الرشيد ، وأرادت أن تتكلم فسبقتها العبرات ، فظنها تهم بالاعتراف بجريمتها توطئة للاستغفار فحوّل وجهه عنها وقال : « قد تحققت انى مطلع على حقيقة فعلك فلم ترى بدا من الاعتراف والاستعطاف ، ولكن هيهات ، ان من يأتى ما أتيت به لا علاج له غير القتل الشنيع »

فكفكت العباسة الدمع وتجلدت وهى لا تزال جاثية وقالت : « انى لا أستعطفك من أجل نفسى ، ولا أنا أعترف بجريمة .. »

ولكننى أطالبك بحق لا أخالك تنكره «
قال الرشيد : « وأى حق تعنين ؟ »
فقلت العباسية : « تمهل يا أمير المؤمنين — ولا أقل يا أخى
لئلا أغضبك — تمهل وأنا أذكر لك ذلك الحق .. »
فتجلد الرشيد وقال : « قولى .. »
فقلت العباسية : « ألم تعقد على جعفر عقدا شرعيا
صحيحا ؟ »

قال الرشيد : « بلى .. ولكننى فعلت ذلك ليحل لكما أن
يُنظر أحدكما الى صاحبه .. وليس لما وراء ذلك »
فقلت العباسية : « وهل يجوز العقد على هذه الصورة .. ؟
وإذا جاز فى رأيك أنت .. فهل يُعَد من يتم شروطه خائنا ؟ »
قال الرشيد : « لا تكثرى من الجدل ، فانكما علمتما منذ
كتابة ذلك العقد ان المراد به النظر .. لرغبتي فى مجالستكما ،
لأنى كنت أحبكما وأحب حديثكما .. (وهز رأسه وصرَّ على
أسنانه) وهذا جزاء المحبة ! »

فقلت العباسية وفى صوتها لحن الملاينة : « ولكن ألا يظن أمير
المؤمنين اننا كنا بدون هذا العقد خيرا منا معه ؟ .. »
فقطع الرشيد كلامها وقال : « لا ريب فى ذلك لأنكما بعد أن
كنتما من أحب الناس الى صرتما أبغض الأبالسة عندى .. »
فقلت العباسية : « ولماذا ؟ ألانا أتينا أمرا حلاله الله وحرمته

أنت .. أليست طاعة الله أولى من طاعة أمير المؤمنين ؟ .. »

- ٦٠ -

عذر الرشيد

فلما أحس الرشيد بأن العباسية كادت تفحمة زاد غضبه ، ليس لأنه أدرك وجه الحق عندها .. ولا هو يتعمد أذاها ظلما وبهتاناً ولكن العادة غلبت على طباعه .. تعود أن لا يسمع غير التأمين على ما يقوله ، والتنفيذ لما يريده حقا كان أو باطلا ، شأن أصحاب السلطة المطلقة ، ولا سيما في تلك العصور ، وقد كثر المتلقون الذين يتزلفون الى وليّ الأمر بالاطراء والاغراء .. لا يبالون بما قد يكون من عواقب تغريهم ، فيستبد الحاكم المطلق بأموره فكرا وقولا وفعلا حتى ينسى ميزان الحق ويسوغ لنفسه ما لا يسوغه لسواه ، كأنه من طينة غير طينة البشر . ويتوهم انه صاحب الحق دائما ، وان ارادته اذا أضيفت الى حقه - وان كان قليلا - تضاعف ورجحت كفته ..

فلا يلام الرشيد لاصراره على خطأ العباسية وتجاهله عن سماع حجتها ، وعذره في ذلك انه شب على نفوذ الكلمة حتى صار الاستبداد طبيعة فيه تغلب على عقله وسداد رأيه ، ولا سيما في حال الغضب . فلما سمع حجة العباسية عمد الى الاستعانة بسلطته

الشخصية فقال : « ولكننى نهيتكما فعصيتما نى ، ومن عصى أمير المؤمنين حق قتله .. »

فقلت العباسة : « اذا لم يكن بد من أن تعد عملنا عصيانا .. فأنا العاصية .. وليس جعفر .. ولا .. »
فقطع الرشيد قولها واتتهرها ، وقال وكأنه يتحفز للوثوب :
« أراك تحبينه وتتحملين التبعة عنه ؟ »

فتنهدت العباسة وقد هاجت أشجانها وقالت : « نعم أحبه .. ولولا ذلك ما خالفت أمرك فيه .. نعم انى أحبه وأراه أهلا لمحبتى ومحبة من هو أعظم منى لأنه من خاصة الناس ، وقد أتى أعمالا ترفع قدره فوق أقرانه ، وليس أرفع قدرا منه غير أمير المؤمنين وحده » . قالت العباسة ذلك وقد عادت اليها الانفة وأبرقت عيناها واحمرت وجنتاها كأن الحجل غلب عليها ، ومثل هذا التصريح عظيم من نساء ذلك العصر ، ولا سيما فى حضرة الخليفة أما الرشيد فلما سمع تصريحها ازداد استغرابا ودهشة وقال : « ويحك .. أتعترفين بحبه فى حضرتى ، ثم أنت تفضلينه على سائر الناس حتى بنى هاشم جميعا ؟ وهو عبد ، واذا رفعت قدره فهو مولى أعجمى .. لا تجادلينى فى المحال .. فانه مقتول .. »
فلما سمعت العباسة تصريحه بقتل جعفر ارتعدت فرائصها ، وعاد اليها ضعفها وهان عليها التذلل فى سبيل اتقاؤ حبيبها فضلا عن ولديها . فتجلدت وأمسكت عواطفها وعمدت الى الملاينة ،

فقلت : « هرون .. أخى هرون .. بل أمير المؤمنين .. اذا كنت تنكر العباسية الآن ، فتذكر انها كانت أختك ، وكنتما تلعبان معا فى الصغر وتتحابان .. فاصنع لقولها على الأقل عن ذلك الوزير ، فانه وزيرك ، ولم يقصر فى خدمتك .. أتقتله لغير ذنب ارتكبه ، انه لم يرتكب ذنبا .. واذا لم يكن مفر من قتل أحدنا ، فاقتلنى أنا .. لأنى أنا المخطئة دونه .. »

فقال الرشيد وهو يضحك غضبا واستخفا : « وأنت أيضا مقتولة .. وسأقتل وليكما لأخو أثر هذا العار من الوجود .. » فلما سمعته العباسية يهددها بقتل الولدين اقشعر بدنهما ووقف شعرها ونهضت رغم ارادتها وصاحت بصوت مختنق : « تقتلهما ؟ ما ذنبهما ؟ .. انهما طفلان بريئان .. انهما ملكان كريمان لا يعرفان حلالا ولا حراما .. بالله الا أشفقت عليهما ؟ » ثم ضمت يدها الى صدرها وقالت : « ولدى .. آه .. يا أمير المؤمنين .. رفقا بدينك الطفلين » . قالت ذلك وصوتها يتقطع وتكاد تشرق بدموعها ..

فلما رآها الرشيد تبكى على هذه الصورة ، تحركت فيه عاطفة الأخوة وهو والد يسهل عليه تصور عطف الوالدين . وربما جال فى خاطره وهو يجادلها ويدافعها أن يلتمس لها عذرا أو يغضى عن عملها ، ولكن ما سبق الى ذهنه مما لحقه من العار بسببها كان يعترض حنانه . وكان الرشيد من أكثر الناس غيرة على العرض

وأشدهم رغبة في صيانتته ، وقد يغتفر كل ذنب غير التعرض لدولته أو عرضه .. وهو يعد عمل جعفر تعرضا للأميرين معا . وقد توهتهم ان وزيره انما استولد العباسية ليكون في أولاده دم هاشمي يساعده على طلب السلطة وهي يومئذ لا مطمع فيها لغير القرشيين . فكان الرشيد وهو يسمع استعطاف أخته ويرى عذرها يغالب عواطفه ، ولا سيما حين سمعها تدافع عن الولدين ، وهو يعلم براءتهما كما تعلم هي ، ولكنه يرى بقاءهما عثرة له أو حجة عليه . فلما طلبت استبقاءهما وهي تبكى لم يلتفت الى بكائها ، بل أجابها مختصرا : « أقتلهما لأخفى هذه الخيانة من الوجود » فعادت العباسية الى التذلل رفقا بالولدين ، فقالت وهي تبكى وتشهق : « اشفق يا أخى .. نعم يا أخى .. فانك أخى .. تذكر الرحم .. واذا كنت لا تزال تعد عملنا خيانة فاقتلنا كلينا وابق ذينك الولدين فانهما بريئان .. » فقال الرشيد : « انهما يقتلان بذنبكما ، ولا يحو هذا الذنب غير القتل »

فلما رأت العباسية أن الاستعطاف لا يجدى نفعا ، عادت انفسها وعزة نفسها ومسحت دموعها ونظرت الى الرشيد نظرة حادة كادت تخترق صدره لولا اصراره على الغضب وقالت : « ألا تزال تعد عملنا ذنبا ونحن انما أطعنا به أمر الله .. ؟ » قال الرشيد : « لا تحاولي محالا ، فقد عصيتما أمير المؤمنين فارتكبتما خيانة لا صبر لى على احتمالها » ووقف كأنه يهم

بالخروج فاستوقفته العباسة وقالت : « لقد أخرجتني يا هرون ،
حتى ألبأتني الى التصريح بما لم تتعود سماعه مني ، ولا من امرأة
سواي .. كيف تحرم علينا أمرا أحلته لنفسك ؟ »

فانتهرها الرشيد ويده على قبضة خنجره قائلاً : « بمثل هذا
الخطاب تخاطبينني يا وقحة وتقولين اني أرتكب مثل جريمتكما ؟ »
فقلت العباسة : « نعم .. أقول لك ذلك ولا أخاف لائماً ..
فان ما تحاسبنا عليه زواج شرعى عقدته أنت بيدك ، ولا تحاسب
نفسك ، ولا أنا أحاسبك على مثله . ولكنى أذكرك بمن فى قصرك
من الجوارى والسرارى فانهن كثيرات ، ولا ترى بأساً فى التمتع
بهن والشرع ينهك عنهن .. فكيف تنهاني عن يزواج رجل شرعى .
أليس ذلك من الظلم ؟ .. تتهادون الجوارى بالعشرات والمئات
بلا حرج ولا بأس ، حتى ان نساءكم يهدينكم منهن ما يطيب
لكم .. هذه زوجك أم جعفر قد أهدتك عشرة جوارى من أجل
النساء (١) . وقد فعلت ذلك وهى لا ترى فيه حطة ولا ذنباً لها
ولا لك . ولكنكما تريان ذنباً لمثلئى أن تتزوج من رجل عقدت
له عليها عقداً شرعياً ، واذا استعطفتك غضبت وهددتها بالقتل ،
وهددت زوجها بالقتل أيضاً ، ولا ترضى مع ذلك الا بقتل طفلين
لا ذنب لهما ، ولا تقبل فيهما شفاعاة من والدتهما الحزينة التى
رضيت أن تقتلها وتبقيهما .. »

(١) الاغانى ١٣٧ - الجزء السادس عشر

- ٦١ -

الفتك

فلما سمع الرشيد قولها وما فيه من الجرأة ، لم يعد يصبر على رؤيتها فانتهرها قائلاً : « أراك تماديت في القحة ، وقد أخطأت لأنى أفسحت لك مجال القول .. وقد نفذ صبرى وآن لى أن أفرغ منك » ثم نادى : « مسرور .. »

فدخل ذلك الفرغانى الغليظ القلب وحسامه الى جانبه ، فلما رآته العباسة استعازت بالله من رؤيته وتحققت من قرب منيتها فالفنت الى الرشيد وقالت : « انى مقتولة الآن لا محالة ، وليس من يدفع عنى هذا القضاء .. فاذا كنت لا تصدقنى بدفاعى عن نفسى ، فانى أتوسل اليك أن تصدقنى فى جعفر فانه لا يستحق القتل ولا ذنب له فى شىء مما تتهمه به وارفق بالطفلين .. » قالت ذلك وخنقتها الدموع

أما الرشيد فحين دخل مسرور صاح فيه : « هل أوصدت أبواب القصر وحبست أهله ؟ »

فقال مسرور : « نعم يامولاي .. »

قال الرشيد : « وأين الخادمان والفعلة الذين أتيت بهم معك ؟ »

فقال مسرور : « هم على مقربة منا .. هل أدعوهم ؟ »

قال الرشيد : « ادع الخادمين فقط .. »

فخرج مسرور ثم عاد ومعه خادمان يحملان صندوقا كبيرا . فلما رأت العباسة ذلك تحققت من انها مقتولة ، والتفت الى أخيها فرأته قد حوّل وجهه عنها وأشار الى مسرور ، فهجم عليها بالسيف فقالت لأخيها : « أنت مصر على قتلى ؟.. ألا تخشى الله في ؟.. تقتلني لأنى أطعت الله وعصيتك ، ولكنكم معاشر الرجال تحللون لأنفسكم ما تحرمونه على نساءكم.. أمن العدل أن يكون في قصرك مئات من السراري والجواري وتقتلني من أجل رجل تزوجته بشرع الله وسنة رسوله ..؟ اننى لا أبالى أن أموت ولقد لقيتك وناقشتك الحساب » ثم خفضت صوتها وقالت : « ولكننى أبالى أن ترتكب ذلك بزواجى العزيز وولدى الحبيين !.. » ثم ولّت وجهها نحو طريق الحجاز حيث تظن أن ابنيهما يقيمان ، وعبّ - تَعَوَّدَت أن تستنشق ريحهما من تلك الجهة ، وقالت : « استودعتكما الله يا حسن ويا حسين » ثم حوّلت وجهها نحو الشماسية كأنها تهم أن تناجى حبيبها فسبقها مسرور بالسيف فقتلها ، والرشيد لا يلتفت اليها ، وود انه لم يشهد قتلها لأنه كان يحبها كثيرا ، وكثرة محبته لها أوجبت شدة ثقته عليها لما اعتقده من خيانتها فلما سقطت العباسة ميّتة ، أوما مسرور الى الخادمين فوضعاها في الصندوق ونادى الرشيد : « أين الفعلة ؟ » فخرج مسرور وعاد بهم ، وهم عشرة من الرجال الأشداء يحملون المعاول

والزنايل ، وقد حسروا عن سواعدهم وشمروا عن سيقانهم كأنهم من الأبالسة ، فأمرهم أن يحفروا وسط تلك المقصورة فحفروا حتى بلغوا الماء فقال : « حسبكم .. هاتوا الصندوق » فأتوا به وأدلوها به في تلك الحفرة ثم قال : « ردوا عليه التراب » ففعلوا وأعادوا الموضع كما كان ، ثم أخرجهم وأقفل الباب وأخذ المفتاح معه ، وأمر مسرورا أن يحرس القصر ، ولا يدع أحدا يخرج منه أو يدخل اليه ، فأوصى الحرس بذلك وشدد عليهم وقال : « أى انسان يأتى الى هذا المكان ، اقبضوا عليه »

ثم قال الرشيد لمسرور : « خذ هؤلاء القوم واعطهم أجرهم ، ووافنى فى القصر » ففهم مسرور انه يأمره بقتلهم فأخذهم ووضعهم فى جواليق وخيَّط عليهم بعد أن أثقلهم بالصخر والحصى ، ورماهم فى وسط دجلة وعاد الى قصر الخلد ، فوجد الرشيد هناك وقد طار نومه ، فلما أقبل سأله الرشيد : « هل فعلت ما أمرتك به ؟ »

فقال مسرور : « قد أعطيت القوم أجورهم » (١)
قال الرشيد : « خذ هذا المفتاح وابقه معك حتى أسألك عنه »
ودفع اليه مفتاح المقصورة
فتناوله مسرور وقال : « سمعا وطاعة »

(١) اعلام الناس للتلبيدي ١١٤

وكان الصبح قد اقترب فقال الرشيد : « نحن في صباح
الخميس ، وهو موعد موكب جعفر الوزير .. فلا تبعد عني »
فأوماً مسرور مطيعاً ..

- ٦٢ -

الوداع

أما جعفر فقد كان في غفلة عن كل ذلك وهو يتهيأ للرحيل في الغد ، وقد صمّم على السفر عاجلاً بعد ما جرى من الحديث بينه وبين اسماعيل مما زاد من مخاوفه.. ولم يكن له بد من وداع الخليفة قبل خروجه الى خراسان على جاري العادة في خروج العمال الى أعمالهم . وكان قد أعد كل شيء ولم يبق غير الركوب والخروج ، فلما عزم على وداع الرشيد نادى خادمه حمدان فجاءه فقال له : « انك تعلم اننا مسافرون اليوم .. »

فقال حمدان : « نعم يا مولاي .. فهل أذهب الى مولاتي العباسة فأتى بها الى هنا ، أو نوافيك الى النهروان ؟ » فاستحسن جعفر سرعة خاطره وتيقظه في خدمته ، فابتسم وقال : « بل أرى أن توافيانى الى النهروان ، وليس هناك ما يدعو الى العجلة في الذهاب اليها . والأفضل أن تؤجل ذلك الى حين عودتى من وداع الخليفة .. »

فقال حمدان : « أمرك يا سيدي .. »

فلما كان الضحى خرج جعفر في موكبه الحافل وحوله الفرسان

والركابية حتى أقبل على قصر الخلد ، فوسعوا له فدخل الأبواب
بالأبهة والعظمة على جاري العادة وهو يقول في نفسه : « هذه
آخر مرة أدخل فيها هذه الأبواب للقاء رجل أداجيه ويداجيني ،
فمتى صرت الى عملى فى خراسان كنت بين أهلى وأعوانى ولا
نظننا نلتقى بعد الآن الا اذا جاءنى لحرب .. » وما لبث أن وصل
الى دار الخاصة فترجّل

وكان الرشيد قد جلس للناس فدخلوا على اختلاف مناصبهم
وانصرفوا حتى دخل جعفر وسلم ، فرد عليه الرشيد التحية
بأحسن منها ورحب به وضحك فى وجهه ، وأجلسه فى مرتبة ،
وكانت أقرب المراتب اليه . وأخذ يحدثه ويلطفه ساعة وهو يظهر
البشاشة والاستئناس . وأتوه وهو هناك بكتب وردت من
النواحي فقرأها على الرشيد وأمضاها . ثم نظر اليه وهو يظهر
الامتنان من اجتهائه به وقال : « لقد غمرنى أمير المؤمنين بنعمه
وأعلا مقامى حتى أسند الى أعظم عمل من أعمال دولته ، فوجب
على شكره .. »

فضحك الرشيد ومازحه وقال : « انك أخى .. ولو قسمت
هذه المملكة بينى وبينك لأنصفتك .. »

فتظاهر جعفر بالحنج من هذا الاطراء ، وتأدب وتلملم فى
مقعده وقال : « انى من موالى أمير المؤمنين .. وكل ما يأتينى منه
انعام وتفضل على مولاه » ثم قال : « وان أقصانى أمير المؤمنين

عن مجلسه فانى عبده أبذل دمي في طاعته «
 فقال الرشيد : « بورك فيك .. ولا شك اني سأشعر بافتقاري
 الى رأيك بعد أن توليت أمور الدولة وتركتني لا أهتم بشيء من
 أمر نفسي »

فلما سمع جعفر قوله تذكر انها نفس العبارة التي قالها
 لاسماعيل حينما باحثه أمس فوخزه ضميره .. وخشى أن يكون
 كلامه قد بلغ الرشيد ، ولكنه استبعد أن ينقله اسماعيل ، ولم يدر
 في خلده ان ذلك الغلام كتب به اليه مع علمه انهم يتجسسون ،
 كل واحد على صاحبه ، على انه لم يعمل فكرته في ذلك لاعتقاده
 بقرب النجاة من هذه المخاوف بالخروج الى خراسان ، فأظهر
 شكرا لاطراء الرشيد وقال : « مهما بذل العبد في خدمة مولاه
 فلا منة له ولا فضل »

ومكث جعفر ينتظر أمر الرشيد بانصرافه الى خراسان لأن
 التأدب يقضى أن يبدأ الخليفة بذلك ، فلما لم يسمع منه شيئا في
 هذا الشأن قال : « هل يأذن لي أمير المؤمنين بالانصراف ؟ » .
 ولم يذكر خراسان فقد تحتمل عبارته على انه يطلب الانصراف
 الى منزله

فقال الرشيد : « هل تهيأت للسفر الى عملك ؟ »

قال جعفر : « نعم ياسيدي .. »

فقال الرشيد : « وهل تنوى الذهاب في هذا اليوم ؟ »

قال جعفر : « اذا أمر أمير المؤمنين .. »

وكان الرشيد يريد تأخير به حيلة ريشما يدرك غرضه ، فمتى أراد الفتك به كان قريبا منه لأنه ظل حتى تلك الساعة مترددا في ذلك الأمر ، لما يعلمه من أحزاب البرامكة .. حتى بنى هاشم أنفسهم كان أكثرهم يحبونهم ، فعلم ان الفتك بجعفر يقتضى الاحتياط واعمال الفكرة ، فهو ليس كالفتك بالعباسة .. فرأى أن يحتال في تأخير سفره ، فقال له : « وهل استطعت ارتفاع نجمك في هذا النهار ؟ »

قال جعفر : « كلا يامولاي » وكانوا شديدي التمسك بالطوالع يعتقدون بالسعد والنحس في النجوم باختلاف الساعات، وكانت منازل الكبراء لا تخلو من اسطرلاب لاجراج الطالع عند اللزوم ، وكان عند الرشيد اسطرلاب متقن الصنعة ورثه عن جده أبى جعفر المنصور لأنه كان شديد العناية بالتنجيم والمنجمين ، وكان الاسطرلاب موضوعا على رف من الأبنوس المرصع بالعاج بجانب سرير الرشيد ليستخدمه عند الحاجة ، وكان له المام بهذه الصناعة وجعفر أعلم منه ، فبادر الرشيد حينئذ الى الاسطرلاب وأمر الحاجب أن يأتيه ببعض المنجمين.. فما لبث أن جاء بأحدهم ، لأنهم من جملة أرباب الفنون المقيمين في قصر الخلد على عادة الخلفاء في ذلك العصر

فلما دخل المنجم قال له الرشيد : « كم مضى من النهار ؟ »

فقال المنجم : « ثلاث ساعات ونصف ساعة .. »
قال الرشيد : « خذ الارتفاع ».

فأخذه المنجم وأخبر الرشيد ، فجعل الرشيد يحسب له ذلك
بنفسه ونظر الى نجمه ثم التفت الى جعفر وقال : « يا أخى هذه
ساعة نحس لا أرى الا انه يحدث فيها حدث ، فالأوفق أن تؤجل
سفرك الى الغد وهو يوم الجمعة فتصلى وترحل فى سعادتك ،
وتبيت فى النهروان وتبكر يوم السبت وتستقبل الطريق فى النهار
فانه أصلح من اليوم »

فشق هذا التأجيل على جعفر ، وأخذ الطالع وحسبه لنفسه
وربما رأى غير ما قاله الرشيد.. لكنه ليس من آداب مجالسة الخلفاء
أن يراجعوهم أو يخطئوهم ، ولعل الرشيد أدرك ذلك فلم يقبل
حساب المنجم فحسب الطالع بنفسه

فقال جعفر : « صدقت يا أمير المؤمنين ، ان هذه الساعة ساعة
نحس .. وما رأيت نجما أشد احتراقا ولا أضيق مجرى من البروج
فى مثل هذا اليوم ، ورأى أمير المؤمنين صواب »

ولبت جعفر ينتظر أمر الانصراف على عادة الخلفاء ، فتزحزح
الرشيد فقام جعفر وخرج يلتمس قصره ، والناس والقواد
والخاص والعام ، من كل جانب يعظمونه ويجلونه فى داخل القصر
وعلى قارعة الطريق وفى كل مكان ، والكل غافلون عن حقيقة
حاله وما يحدق بحياته من الخطر . وأكثر ما يشاهده الناس من

مظاهر السعادة في أهل الدولة أو أرباب الثروة يقدرونه فوق قدره لأنهم غافلون عما يشوبه من المتاعب والأخطار

خرج جعفر من قصر الخلد وهو لا يصدق انه سيستقل بعمله في خراسان ، ويعيش آمناً بين أهله وأعوانه ، ومعه زوجته العباسية وابناهما ، وينجو من دسائس أهل البلاط وما يهدده من خطر على حياته

فلما وصل جعفر الى قصره بالشماسية بعث الى حمدان ، فلما أتى أخبره بتأجيل السفر الى الغد ، وأوصاه أن يهتم بأمر العباسية فيبقى في الشماسية بعد سفره حتى يخيم الظلام ثم يمضي الى قصرها ومعه الركائب يحملها ، ومن شاءت نقله معها الى النهروان ، أو يسير بها الى ما وراء ذلك لتكون في مأمن ، وهو يعلم انها تحب أن تصطحب عتبة وارجوان . ولكن حمدان لا يحتاج في مثل هذا الى توصية لذكائه وإخلاصه .. ثم خلع جعفر ثيابه وجلس للراحة

- ٦٣ -

عتبة وحارس القصر

أما عتبة فكانت قد أمرتها العباسة ساعة مجيء الرشيد أن تبعث إلى جعفر ، فتخبره بما يهدده من الخطر لعله ينجو بنفسه . فمضت إلى غرف الجوارى والخدم ، لترسل أحدهم في هذه المهمة ، فرأت القصر محاطا بالحرس ولا سبيل إلى الخروج ، فعظم عليها الأمر وذهبت إلى غرفتها ترتعد خوفا على سيدتها بعد ما شاهدته من مجيء الرشيد على تلك الصورة ، وأخذت تفكر فيما دهمها من الأمر ، وأيقنت أن سيدتها ستصاب بشر عظيم ، ولم تعلم أنها مقتولة بعد قليل .. وما أن تحققت من قتلها حتى بكّت وندبتها وعلمت أن الخطر سيمتد إليها ، ولكنها احتقرت حياتها بعد هذا المصاب .. وأصبح ههما أن تنفذ وصية سيدتها إلى جعفر لأنها لم تكن تشك في قتله بعد قتل العباسة ، فلا بد من أن تنبهه إلى ذلك لينجو بنفسه .. فأعملت فكرتها في وسيلة تنذره بها ، فرأت السبل مقفلة في وجهها .. فزادت حيرتها وطلع الفجر وهى تطوف من غرفة إلى غرفة .. وهى تبكى وتندب

ثم رأت أن البكاء لا يجديها نفعا ، وأحست أن خير ما تفعله في تلك الساعة أن تسعى في الخروج من القصر ، فاذا خرجت نجت

من القتل وأبلغت الخبر الى جعفر ، وفي نجاته تعزية لها على مصابها في سيدتها.. وانتقل فكرها فجأة الى أبى العتاهية لاعتقادها انه سبب هذه المصائب كلها ، فلعلته وتذكرت ما كان من حبه لها ، وكيف طلبها من الخليفة وأبت المجيء اليه .. فخيل لها انها اذا وفقت الى مقابلته فلربما استرضته باظهار حبتها له وهو لا يعجز عن اخراجها من ذلك القصر ، لما تعلمه من دالة الشعراء ونفوذهم ، فاذا خرجت لا تعدم وسيلة في الوصول الى جعفر . وتذكرت رغبة أبى العتاهية في المال وهو كثير بين يديها ، فاذا لم تستعطفه بالحب أغرقه بالمال .. ولما تصورت ذلك أحست بارتياح . ولكنها ما لبثت أن عادت الى الانتفاض لأنها لا تعلم أين هو أبو العتاهية في تلك الساعة ، ولا كيف تصل اليه

ثم خطر لها ان المال يذل الصعاب ويلين أغلظ القلوب فعزمت على بذله في أقرب الأسباب ، فأخرجت عقدا من الجواهر كان في جملة ما جمعته من حلى مولاتها للسفر ، وتنكرت في ثوب غريب .. وتقنعت بخمارها ولبست خفها ، وخرجت تطلب باب القصر ، وهى تتجاهل الأوامر بالاحتفاظ به مغلقة .. فلما بلغت الباب ووجدته مقفلا قرعته ونادت البواب الذى كان عليه من عهد مولاتها العباسية فلم يجبها أحد .. فقرعته ثانية ، ففتحت الخوخة وأطل منها رجل عرفت انه حارس من جند الرشيد فقالت له : « أين البواب ؟ .. ما بالكم أقفلتم علينا الأبواب ؟ »

فأقفل الحارس الخوخة وتحول وهو يقول : « ادخلي ..
لا سبيل الى الخروج »
فقلت عتبة : « ويلاه .. ولماذا ؟ »

فصاح فيها الحارس : « ادخلي ولا تكثري من الكلام ، فان
القصر مقفل بأمر أمير المؤمنين »

فصفت عتبة وصاحت : « ما الذى جاء بى اليه .. ؟ »
فأدرك الحارس من ذلك انها ليست من أهل القصر ، ففتح
الخوخة ونظر اليها فرآها تبالغ فى التقنع وهى تقول : « بالله عليك
الا فتحت لى وأطلقت سبيلى فانى لم أرتكب ذنبا ، ولا أنا من
أهل هذا القصر »

فقال الحارس : « وما شأنك ؟ »
قالت عتبة : « جئت البارحة فى مهمة الى مولاتنا العباسية ،
وخيم الظلام قبل الفراغ منها ، فقضيت ليلتى مع بعض الجوارى
وأنا عازمة على الخروج الى سيدى لثلا يستبطننى ويسىء بى
الظن .. »

فقال الحارس : « ومن هو سيدك ؟ »
قالت عتبة : « سيدى .. أبو العتاهية شاعر أمير المؤمنين »
فلما سمع الحارس اسمه استأنس به لشهرته ، والشعراء يومئذ
زينة مجالس الخلفاء

فقال الحارس : « وما الذى جئت به من قبله ؟ »

فأظهرت عتبه انها تخشى التصريح بذلك .. وظلت ساكنة

فقال الحارس : « ما بالك لا تجيبينى ؟ »

قالت عتبه : « جئت من قبله نى مهمة الى مولانا العباسة ..

و .. و .. فافتح لى ولا تعطلنى ، حفظك الله وأبقاك .. »

فلم يشك الحارس فى انها تقول الصدق ، فأراد العبث بها

فقال : « أتيت فى مهمة سرية ؟ .. اذن امكثى فى مكانك .. واحفظى

سرك معك » .. قال ذلك وأغلق الخوخة ..

فصاحت عتبه : « أستحلفك بالله أن تفتح لى ولا تضايقنى ،

فقد كفانى تأخرى الليلة الماضية ، ولا آمن من شر أتوقعه

بسببه ، فكيف اذا تأخرت الليلة أيضا ؟ »

فعاد الحارس وفتح الخوخة وقال لها : « لا أطلق سراحك الا

اذا أخبرتنى عن السر الذى جئت به .. »

قالت عتبه : « أراك تعبت بى وقلبك مستريح ، وأنا قلقة ،

فاذا لم تصدق قولى فانى أستشهد بمولاتى العباسة عليه .. ألا

تصدقها ؟ »

فزاد الحارس تظاهرها بالسذاجة اعتقادا بصدقها ، ولكنه تذكر

تشديد الرشيد عليه ، فخاف أن يخرجها ويتحمل تبعه ذلك فقال

لها : « هذا لايهمنى فانى مأمور بمنع أهل هذا القصر من الخروج

والسلام » وأراد اقفال الخوخة فأمسكتها عتبه منه وحاولت

فتحها وهي تقول : « واذا أخبرتك بسبب مجيئي ، فهل تطلق سراحى ؟ »

قال الحارس : « وما هو ؟.. قولى .. »

فقلت عتبة وهي تخفض صوتها : « أظنك تعلم أن أبا العتاهية

.. ان أبا العتاهية أبطل نظم الشعر .. »

قال الحارس : « نعم .. أعرف ذلك »

فقلت عتبة : « وأظنك تعلم انه يحب المال .. »

قال الحارس : « انه مشهور بذلك »

فقلت عتبة : « فاذا أراد المال نظم القصائد سرا لبعض الأمراء

فنظم أميس قصيدة في مدح العباسة وبعثها معي فحملتها اليها

مساء أمس ، فدفعت الى ' الجائزة وأكرمتنى بالمبيت هنا .. ليتها

لم تفعل .. » وهزت رأسها

فقال الحارس : « وما هى تلك الجائزة ؟ »

فتظاهرت عتبة بالخوف من التصريح وتوقفت عن الجواب ،

فابتدرها الحارس قائلاً : « لِمَ لا تقولين ؟ »

فقلت عتبة بلهجة الخائف المستعطف : « بلى .. » ومدت يدها

الى جيبيها فأخرجت العقد فأبرق بين أناملها كالشمس ، فمد

الحارس يده ليتناوله فأسرعت فى ارجاعه الى جيبيها ، فقال لها

الحارس : « أرينى اياه .. »

فدفعته عتبة اليه وهي تظهر خوفها عليه .. فتناوله وأخذ يقلبه

ويعجب به وهو يقول لها : « انه عقد ثمين ولكن .. هل تظنين انى أخرجك بهذا العقد ، وأنا لا أملك جوهرة من جواهره ؟ »
 فقالت عتبة وهى ضاحرة : « يهمنى الخروج والسلام »
 فلما رآها الحارس تتلهف على الخروج قال لها : « اذا شئت الخروج ، فاخرجى وحدك ! »

فقالت عتبة للحارس : « وماذا أقول لأبى العتاهية ؟ »
 قال الحارس : « قولى له ان مولاتك العباسة لم تعطك شيئا »
 فسرَّها قبوله ذلك .. ولكنها قالت له : « ولكنه لا يصدقنى .. وأرى أن أنصف بينكما ، فأعطيك نصف الجائزة وأحمل اليه نصفها الآخر »

ففرح الحارس بذلك ، وبادر فى الحال فقطع العقد وأخذ معظمه ودفع اليها بالباقي وقال لها : « يكفيك هذا القدر .. فاذا أعجبك ذلك فاخرجى ، والا فادخلى »

فأطرقت عتبة لحظة ثم قالت له : « بل أخرج .. وأحسب انها لم تعطنى شيئا »

فسرَّ الحارس لفوزه بتلك الجواهر ، وفتح الباب وقال لها : « اخرجى ، ولكن احذرى أن تخبرى أحدا بخروجك فانك تقتلين لا محالة »

فخرجت عتبة وهى لا تصدق انها نجت ، وقلبها يكاد يطير فرحا باطلاق سراحها من ذلك الأسر ، وأملا فى نجاة جعفر، وكان

الحارس أكثر فرحا منها . وكانت الشمس قد أشرقت فأسرعت
لا تلوى على شيء ، واكترت حمارا وركبت قاصدة قصر جعفر
بباب الشماسية

- ٦٤ -

الدعوة

أما جعفر فتركناه في قصره ، وقد خلع ثيابه للراحة ثم خطر له أن يجلس للصباح ، وهو مجلس كانوا يعقدونه للشراب صباحا . فأراد أن يودع بغداد به ، فأمر باعداد المائدة وجاءوه بالشراب وسأل عمّن في داره من المغنين ، فقالوا له : « ان أبا زكار الأعمى هنا » فقال : « الىّ به » . فدخل وتصبّت الستارة واستدعى جواريه ليغنيّنه فيتودع من مجالستن في دار السلام ، لاعتقاده انه مسافر في صباح الغد . فأخذ أبو زكار يغنيّ ، والجواري يضربن على العيدان ، وجعفر يشرب ويطرب ويظن ان الناس غافلون عما بينه وبين الرشيد . وربما علموا من ذلك أكثر مما يعلمه هو ولاسيما المغنيّين ، فقد كانوا يطلعون على أسرار الناس بما يتاح لهم من حضور مجالس الأئس التي يدور فيها الشراب ، فاذا طرب المجلساء بدرت منهم بوادر تشف عن سرائرهم ، والمغنون يتجاهلون ذلك ويكتمونه خوفا على حياتهم . فالرشيد مع تكتمه في أمر جعفر لم يكن ليخفي سره على مغنيّيه الموصلى حتى قيل انه سأله ذات مرة وهو في أحد مجالسه : « بماذا يتحدث الناس ؟ » فأجابه الموصلى : « تتحدثون بأنك ستقبض على البرامكة وتولى

الفضل بن الربيع الوزارة (١) « فانتهره الرشيد وصاح فيه قائلاً : « ما أنت وذاك ؟ ويلك ! »

وكذلك أبو زكار الأعمى ، فان عماه كان يحفز جلساءه على التصريح بأكثر مما يصرحون به أمام سواه ، فكان على بيّنة بما يحيط بجعفر من الخطر ، وربما ألمع الى ذلك في بعض غنائه فلا يلاحظه غير العارفين .. فلما دعاه الى الغناء في ذلك اليوم غناه :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى
عليه الموت يطرق أو يغادى
وكل ذخيرة لا بد يوما
وان بقيت تصير الى نفاد
ولو فوديت من حدث الليالى

فديتك بالطريف وبالتلاد (٢)
فلما سمع الحضور قوله أدركوا مراده ما عدا جعفر . وما أتم
أبو زكار غناؤه حتى فتح الباب ودخل الحاجب . فقال له جعفر :
« ما بالك ؟ »

فقال الحاجب : « ان مسرورا خادماً أمير المؤمنين بالباب .. »
فلما سمع اسمه أجفل لأنه كان يبغضه ويستثقل ظله ، لكنه

(١) الاغانى ١٠٣ - الجزء الخامس
(٢) ابن خلكان ١٠٩ - الجزء الاول

م يسعه الا الاذن له فى الدخول ، فدخل .. فصاح فيه جعفر :
« ما وراءك ؟ »

فقال مسرور : « أمير المؤمنين يستدعيك ياسيدى .. »
فانزعج جعفر من تلك الدعوة وقال له : « ويلك يا مسرور ،
أنا خرجت من عنده فى هذه الساعة .. فما الخبر ؟ »
فقال مسرور : « وردت كتب من خراسان ، يريد منك أن
تقرأها له .. »

فاطمأن خاطر جعفر قليلا ، فنهض وهو يقول فى نفسه :
« كنت أحسب مقابلتنا فى هذا الصباح آخر مرة ألقى فيها هذا
الرجل فى بغداد ، فاذا أنا مضطر للقاءه مرة أخرى .. لا حول
ولا قوة الا بالله .. »

ثم دعا بشيابه وسواده وقلنسوته فلبسها وتقلد سيفه وأمر أن
تعد له الركائب وخرج وانفض المجلس .. وفيما هو خارج من
القاعة ومسرور بين يديه جاءه الحاجب ووقف بحيث يراه ويفهم
انه يريد مخاطبته ، فتحول جعفر اليه وسأله عن غرضه فقال :
« ان عتبة جارية مولاتنا العباسية فى دار النساء تطلب أن تراك »
فخطر له ان عتبة جاءت من عند مولاتها العباسية للتداول فى
شأن السفر فقال : « قل لها انى راجع الساعة فأخاطبها بما تريد »
فقال الحاجب : « انها تطلب مقابلةك حالا .. »

فخطر له أن يقابلها ويسألها عن شأنها ، ولكنه خشى أن يلاحظ

مسرور ذلك فيبلغه الى الرشيد . فوقف برهة يتردد في الأمر ، ثم تذكر ريحان وانه يعلم بكل ما يتعلق بالسفر ، فقال للحاجب : « دعها تقابل غلامنا ريحان وتطلب ما تريده ، فهو مفوض من قبلنا »

فأشار مطيعا ، وخرج جعفر حتى بلغ باحة القصر .. فركب في موكبه من الفرسان والغلمان وساروا يطلبون قصر الخلد يتقدمهم مسرور على فرس ويتوسط الموكب جعفر بسواده وقلنسوته ، وحوله الفرسان من نخبة رجاله ، وأكثرهم من الفرس ، وكلهم يقدونه بأرواحهم ، وكان اذا ركب اعتزّ بهم .. فقطعوا الشماسية حتى أتوا الجسر فتخطوه وأقبلوا على الميدان أمام قصر الخلد . فلما وصلوا باب القصر ترجّل مسرور وأشار الى فرسان الموكب أن يقفوا هناك فوقفوا وهم في غفلة عما يريد ، فدخل مسرور وجعفر والغلمان في ركابه ولم يفتن لاشتغال خاطره بأمر تلك الدعوة . ولما دخلوا أوماً مسرور سرا الى الحراس فأغلقوا الباب ، وكانوا قد أحيطوا علما بذلك قبل ذهابه .. ثم دخلوا الباب الثانى فاستبقى الغلمان خارجه ودخل جعفر فأقفل الباب وراءه . ولما دخل الباب الثالث التفت فاذا هو وحده . ولم يبق معه أحد من رجاله ، فندم على ركوبه في تلك الساعة وقد تعذر عليه الرجوع . ورأى في فناء القصر قبة تركية كان قد نصبها مسرور هناك بأمر الرشيد ، وحولها أربعون غلاما من السودان .. فظن أن الرشيد

ينتظره فيها ، فدخلها فلم يجد أحدا ، وانما شاهد في أرضها سيفاً ونطعا فأيقن بالهلاك ، ووقف وركبته ترتعدان وغلب عليه الخوف وصغرت نفسه لعلمه بوحشية مسرور ، وانه لو أراد مقاومته لا يقوى عليه . وهب انه غلبه فلا فائدة من فوزه وهو محصور في تلك الدار ، فعمد الى الملاينة فقال لمسرور : « ما الخبر يا أخى ؟ » فضحك مسرور في استخفاف وقال : « أنا الساعة أخوك ، وفي منزلك تقول لى : ويلك .. أنت تدرى ما القضية .. وما كان الله ليهملك ولا يغفلك .. فقد أمرنى أمير المؤمنين بضرب عنقك وحمل رأسك اليه الساعة »

فلما سمع جعفر قول مسرور بهذه الصراحة ، اقشعر بدنه وكاد الدم يجمد في عروقه وغلب عليه صغر النفس ، ولعل ذلك الضعف طراً عليه من الشرب - ويتوقع القارئ أن يرى من جعفر الوزير ثباتاً ورباطة جأش في هذا الموقف شأن الرجل الكبير - ولكن الانغماس في الترف والخمر يضعف القلوب ويوهن العزيمة ، فلا صبر لصاحبهما على التجلد اذا تحقق من وقوع الخطر ، ولا سيما ساعة خروجه من مجلس الشراب كما كان حال جعفر في ذلك الصباح - فلما سمع مسرورا يخاطبه بهذه اللهجة الشديدة لم يتمالك عن الترامى عند قدميه وأخذ يقبلهما ويقول : « يا أخى مسرور أنت تعلم مدى اكرامى لك ، دون جميع الغلمان والهاشية ، وان حوائجك عندى مقضية في سائر الأوقات ، وأنت تعرف مكاتتى

من أمير المؤمنين وما يفضى به الى من الأسرار ، ولعلمهم بلبغوه
عنى باطلا ، وهذه مائة ألف دينار أحضرها لك الساعة قبل أن
أقوم من موضعي هذا .. واتركني أهيم على وجهي .. «

فقال مسرور : « لا سبيل الى ذلك أبدا .. »

قال جعفر : « احملني الى أمير المؤمنين وأوقفني بين يديه ..
فلعله اذا وقع نظره عليّ تتداركه الرحمة فيصفح عني »

فهم مسرور رأسه ، وقال : « ما من سبيل الى ذلك أبدا ، ولا
يمكنني مراجعته .. وقد علمت انه لا وسيلة الى بقائك على قيد
الحياة بأية حال »

قال جعفر : « امهلني ساعة .. وارجع اليه ، وقل له انك فرغت
مما أمرك به واسمع ما يقول ، وعد فافعل ما تريد .. فان فعلت
ذلك وحصلت لى السلامة فاني أشهد الله وملائكته اني أشاطرك
نعمتي مما ملكته يدي وأجعلك أمير الجيش وأملكك أمر الدنيا »

فلما سمع مسرور هذه الوعود ارتاحت نفسه اليها وخطر في
باله ان الرشيد ربما أمر بالقتل في ساعة غضبه ، فاذا سكن غضبه
يغير رأيه ويعفو عنه فيكتسب هو هذه الأموال ويتمتع بهذا
المنصب ، فأطرق .. فلما رآه مطرقا طمع في الحياة ، ولبث ينتظر
ما يبدو منه .. فاذا هو يقول : « ربما يكون ذلك » ومد يده اليه
فحل سيفه ومنطقته وأخذهما وعهد به الى الحراس الواقفين
هناك ، وأوصاهم بحراسته وخرج

فلما خلا جعفر الى نفسه ، تلفّت فلم ير غير النطع والسيف
فرجع الى رشده ، ومع ما يغلب على المرء من الأمل فى الحياة مهما
بلغ من تعرضه للخطر فجعفر لم يكن يرجو نجاة لما يعلمه من
الأسباب التى بعثت الرشيد على قتله بعد ما كان يدور بينهما من
المداجاة والمخادعة .. وأيقن فى تلك الساعة ان الرشيد يعلم بصلته
بالعباسة .. ثم تذكر مجيء عتبة بتلك العجلة .. فندم على
استمهالها ريثما يعود ، وخطر له أن تكون قد جاءت بتحذير أو
تنبيه كان ينفعه لو اطلع عليه قبل خروجه ، فزادت مصيبته وأصبح
كأنه يرى الموت رأى العين ، وهاجت أشجانه فتمثلت له العباسة
كما فارقها للمرة الأخيرة وقد تواعدا على الفرار الى خراسان ،
وتذكر ما كان يرجوه من النجاة بها وبولديه لو سافر بالأمس بغير
وداع ، أو لو قابل عتبة قبل خروجه . فضاقت صدره وتجمست
مصيبته فدهمه البكاء ، وود لو انه يرى العباسة قبل موته ويقبّل
طفليه قبل هذا الفراق الأبدى . فأخذ فى البكاء وجعل يخاطب
نفسه قائلاً : « وا حسرتاه عليك أيتها الحبيبة ، بلّ وا لهفى على
قبلة من ولدى ..! قضيت العمر أتحرّق على ساعة ألاعبها فيها
كما يلاعب الأب أولاده ، فلما ظننت ذلك قريباً فاذا هو بعيد عني
بتعد الأبدية — وأنت يا زوجتى بشرع الله .. وان ادّعى أخوك
الرشيد خيانتنا — لقد تحمّلت خطر الموت من أجلّى وعرضت
نفسك لغضب هذا الرجل المستبد حبا لى .. نعم ، لم يحملك على

ذلك غير الحب الصادق ولولاه لكنت فى نعمة وسعادة ، لأن بنى هاشم جميعا يتمنون رضاك .. ماذا عسى أن يكون حالك اذا عرف أخوك الرشيد بأمرنا فانه يقتلك لا محالة .. اذا لم يكن قد قتلك الآن .. هل جاءت عتبه لتخبرنى بقتلك وتحذرنى من مثله رفقا منك بحبيبك أن يصيبه ما أصابك ؟ ربما كان ذلك .. وأنت جديرة بهذه الخصال . فقد عرفت تفانيك فى سبيل حبي غير مرة .. فاذا كنت قد قضيت نحبك قبلى فأنا نادم على طلب البقاء ، بل أنا راغب فى اللحاق بك .. واذا كنت لا تزالين على قيد الحياة فأنت لاحقة بى لا محالة لأن أخاك لم يسرع الى الفتك بى الا وقد اطلع على ما يظنه خيانة .. والله يعلم اننا انما أطعنا به الشرع وشروط الحب » وسكت لحظة ريثما ييلع ريقه ويمسح دموعه ثم قال : « وولدانا ؟ .. يا حسن ويا حسين .. أين أنتما الآن ؟ .. هل تعلمان بما حل بوالديكما على يد ذلك الحمال الظالم .. ؟ آه من استبداده وقسوة قلبه .. » قال ذلك وغص بريقه وأحس باختناق صوته واذا بالمفتاح يعالج الباب . فأجفل واتبه لنفسه .. فسكت وبصره شاخص نحو الباب ، حتى اذا فتح دخل مسرور ووجهه مقطب فعلم انه لم ينجح فى مهمته ، وهمّ أن يخاطبه فسمعه يقول : « ذهبت الى أمير المؤمنين فلما رآنى سألنى عنك فقلت له قد أنقذت أمرك فيه .. فقال : ائتنى حالا برأسه .. » فلما سمع جعفر قوله تجلد وقال له : « افعل ما بدا لك ،

ولكننى أسألك سؤالاً واحداً أصدقنى فى الإجابة عنه وأنا فى آخر لحظة من لحظات الحياة »

فقال مسرور : « وما ذلك . ؟ »

قال جعفر : « ماذا جرى للعباسة ؟ قل الصدق ولا تخف من وشاية ، فإن سامعك مقتول .. »

فقال مسرور : « ان العباسة قتلت .. »

فصاح جعفر : « قتلت !.. اقتلنى .. عجل بقتلى .. لا رغبة لى فى الحياة »

ولم يتم جعفر كلامه حتى ضربه مسرور بالسيف على عنقه فأطار رأسه ، فحمل الرأس وهو ينقط دماً وذهب به الى الرشيد

- ٦٥ -

الرشيد ورأس جعفر

قد علمت ان الرشيد هو الذى أمر مسرورا أن يفعل ما فعله
 ودبر هذه الحيلة فى ادخال جعفر قصر الخلد منفردا على تلك
 الصورة الى القبة التركية .. وكان قد أمره باقامتها فى صباح ذلك
 اليوم على أثر خروج جعفر من دار الخاصة ، وذلك ان الرشيد
 ظل بعد خروجه ساعة يخطر فى تلك الدار ذهابا وايابا ويعمل
 فكرته قبل الاقدام على ذلك الأمر العظيم ، ويتردد بين التعجيل
 والتأنى ، لعلمه بما للبرامكة من المريدين الذين يبدلون أرواحهم
 فى سبيل نصرتهم . ولكنه أصبح بعد توالى قلقه وطول سهره
 وهو لم يذق طعاما ولا شرابا ، ولا يزداد الا تقمة وغضبا —
 والأرق وحده يورث ضيق الخلق وحدة الطبع مع ضعف القلب
 فكيف اذا رافقه القلق والاضطراب — فخاف الرشيد اذا أجّل
 الفتك به ، أن يعلم جعفر بمقتل العباسة فيتأهب للدفاع ، وربما انقلب
 الأمر الى عكس ما يريد . وكان من الجهة الأخرى يحب جعفرا
 حبا شديدا ، وقد ربا وعاشا معا على غير كلفة .. وكان يعده أخا
 له فيشق عليه قتله . ولكنه كلما خطر الحب فى ذهنه اعترضه

ما أحفظه عليه من خيائته ومس عرضه ، فيقف شعره ويقشعر
بدنه فلا يرى راحة الا بالاصرار على قتله

قضى في ذلك حينا وهو يتمشى في الدار منفردا ، واستغرق في
تلك الأفكار حتى نسي نفسه .. ولو دخل عليه أحد في تلك
الساعة لرآه يسرع في مشيته تارة ويبطئ أخرى ، وهو بين
اطراق وتصويب يحك ذقنه أو يشير بأنامله تهديدا أو وعيدا أو
استمهالا وترددا ، لا ينتبه لشيء مما يكسو جدران تلك القاعة من
الستائر المطرزة أو الطنافس الموشاة ، كأنه لا يرى من الألوان غير
السواد . وربما وقف لحظة أمام ستارة ليقرا ما عليها من الشعر
أو ينظر فيما يكسوها من الأشكال ، وقد يقرأ البيت أو الفقرة
فلا يدرك لها معنى .. لاستغراقه في الهواجس ، فاتفق انه وقف
أمام اسطوانة بجانب سريرہ قرأ عليها بيتين استفزا عزيمته وقضيا
بتنفيذ أمره وهما :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد.
وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة
انما العاجز من لا يستبد

وكان مترددا وقد تضارب في ذهنه الاقدام والاحجام ثم
تساويا كأنهما في كفتي ميزان .. واذا توازنا ، فان أى شيء يضاف
الى احدى الكفتين يجعلها ترجح . فما فرغ من تلاوة هذين

البيتين حتى رجع عنده الاقدام فصمم على الفتك به ، فصاح :
« مسرور » فدخل بأسرع من لمح البصر ، فأوصاه بما يعمله على نحو
ما تقدم ومكث في القاعة ينتظر رجوعه وهو على أحر من الجمر ،
حتى جاءه بالحيلة التي اتحلها جعفر لعله يصفح ، فردده واستعجله
بالقتل .. فرجع وضرب عنقه وحمل رأسه وهو قابض عليه من
لحيته ، فتدلى الرأس مقلوبا والدم ينقط من أوداجه ويسيل على
خديه وعينيه وشعره

دخل مسرور بالرأس ، والرشيذ جالس على السرير ، فطرحه
على وسادة بين يديه وتحنى في أحد جوانب الدار. فلما وقع نظر
الرشيذ على ذلك الرأس أحس بزوال الخطر ، ولكنه لم يتمالك
عن الأسف .. فامتقع لونه وجاشت عواطفه وتذكر سابق الحب
بينهما . فنظر الى الرأس هنيهة ويده قضيب من الأبنوس المطعم
بالعاج تعود أن يتسلى به وهو جالس ، فجعل ينكت البساط
به ويخاطب الرأس قائلا : « يا جعفر .. ألم أضعك موضع نفسى ؟
يا جعفر ما كافأتنى .. ولا عرفت حقى .. ولا حفظت عهدي .. ولا
ذكرت نعمتى .. ولا نظرت في عواقب الأمور .. ولا فكرت في
صروف الدهر .. ولا حسبت لتقلبات الأيام واختلاف أحوالها
حسابا .. يا جعفر خنتنى في أهلى وفضحتنى بين العرب والعجم ..
يا جعفر أسأت الى والى نفسك .. وما فكرت في عاقبة أمرى .. »
وكان يقول ذلك والقضيب بيده ينكت به البساط أو ينقر به



« قال الرشيد : .. يا جعفر خنتني في اهلي وفضحتني بين العرب والعجم
.. يا جعفر اسات الى والى نفسك.. وما فكرت في عاقبة امرك .. »

أسنان جعفر كأنه يستنطقه ، ومسرور واقف يسمع ويرى .. ولو كان له قلب لانفطر ، ولكنه كان فظا غليظ القلب

وبينما الرشيد يخاطب جعفرا بمثل ما تقدم ويعاتبه ، ومسرور لا يجرؤ على حركة ولا قول .. اذ سمعا وقع خطوات مسرعة نحو الباب ما زالت تقترب حتى سمعا قرعا وقائلا يقول : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ، هل أدخل ؟ »

فأجفل الرشيد لأنه عرف صوت اسماعيل بن يحيى ، فأشار الى مسرور بأن يأخذ الرأس ويمضى . ففعل وخرج من باب في الجانب الآخر من القاعة . ولم ينتظر اسماعيل جواب الرشيد فدخل ..

أما الرشيد فما كاد يرسل بصره نحو الباب حتى رأى اسماعيل داخلا والبغلة بادية على وجهه ، وحول قلنسوته عمامة لم يحسن هندامها ، ولا مشط لحيته أو أصلح من شأنه ، كما ينبغي في مقابلة الخليفة ..

فلما رآه الرشيد داخلا تجلد ورد التحية وأشار اليه أن يجلس فجلس على مقعد بغيد عن الرشيد وهو يلهث حتى كاد يختنق من العجلة ، فنهض الرشيد ومشى نحوه وحاول الابتسام ترحيبا به ، ولكن التأثير غلب على تجلده وكظم غيظه

أما اسماعيل فلما رأى الرشيد واقفا وقف تأدبا ، فأمره

بالجلوس وجلس الى جانبه ، وقد أدرك ان اسماعيل انما جاءه في ذلك الحين لأمر هام ، فاستعجل في الاستفهام منه عن غرضه ، فقال اسماعيل : « جئتك شافعا يا أمير المؤمنين .. وان أبيت فمستمها لأمرك الى حين »

- ٦٦ -

قضى الأمر

فأدرك الرشيد انه جاءه بشأن جعفر ، وعجب لاطلاعه على أمره مع مبالغته في الكتمان كما علمت .. وانما عرف اسماعيل ذلك من ريحان - غلام جعفر - بعد مجيء عتبة بالخبر في ذلك الصباح .. اذ حينما رفض جعفر مقابلتها وأحالها الى ريحان ، قصّت عليه الخبر ، وكان الموكب قد مشى فلم يجرؤ أن يتبعه لئلا تبدو الشبهة لمسرور فوقع في حيرة وتشاور مع عتبة ، ونظرا لما يعلمانه من صداقة اسماعيل وجعفر أجمعا على الذهاب اليه . فأسرع ريحان الى قصره فوجده جالسا في الحديقة ، فأخبره بما جرى واستحثه على التوسط لدى الرشيد ، فتعجل في لبس ثيابه وجاء الى قصر الخلد فمنعه الحراس من الدخول في بادئ الأمر، ثم أذنوا له فدخل وهو لا يعلم بقتل جعفر .. ولم يخطر له أن يعجّل الرشيد بقتله الى هذا الحد . وسأل عن الرشيد ف قيل له انه منفرد في دار الخاصة ، فجاء ودخل كما تقدم

فلما سمع الرشيد قوله ، وعلم انه يشفع اليه في جعفر تجاهل وقال : « ان شفاعتك مقبولة ، وأمرك نافذ ولو على ولي العهد »

فاستبشر اسماعيل وقال : « أطال الله بقاء أمير المؤمنين وحفظ
أنجاله .. وانما أنا أشفع اليك في وزيرك جعفر .. »
فهر الرشيد رأسه وقال : « جئت متأخرا يا ابن العم .. فقد
نفذ القضاء »

فلما سمع اسماعيل قوله أجفل وتراجع وقال : « قتلت
جعفرا ؟ »

فقال الرشيد : « قتلته .. »

قال اسماعيل : « قتلته يا أمير المؤمنين ؟ .. قتلت وزيرك
وصاحب خاتمك ومدبر دولتك ؟ »

قال الرشيد : « لا سبيل الى اطالة القول يا اسماعيل .. ان
وزيرى هذا قد قتل بخيائته ، ولوعلمت ما ارتكبه وأنت هاشمى
لحكمت عليه بالقتل »

فحسبه اسماعيل يشير الى ما يتهمون به من حب الشيعة العلوية
باطلاقه ذلك العلوى ، وقد تحدثا عن ذلك من عهد غير بعيد .
وكان اسماعيل يعتقد انه لا يستحق القتل لاطلاعه على سعى
أعدائه ووشايتهم به فقال : « ألم يكن أمير المؤمنين قد عزم على
إبعاده الى خراسان ثم يفكر فى شأنه ؟ »

فقال الرشيد : « قد كنت عزمت على ذلك ثم رأيت أن التفكير
فى أمره وهو فى قبضتنا أقرب الى صيانة ملكنا ونيل مرادنا ،
لأنه اذا سار الى خراسان كان فى أهله وأحزابه .. وأهل خراسان

لا يزالون ناقلين علينا منذ قتل جدى المنصور أميرهم أبا مسلم ..
نعم انهم يعجزون عن مناوأتنا ولكنهم يشغلوننا ، فمن سداد
الرأى أن تتدارك الخطر قبل وقوعه »

فقال اسماعيل : « رأى أمير المؤمنين أصوب .. ولكن حساد
جعفر كثيرون ، وقد وشوا به وأكثروا ذنوبه وبائعوا فى الطعن
عليه ، وأمير المؤمنين حريص على الخلافة لبنى هاشم فعجل بقتله
وربما كان بقاءه أنفع لمصلحة الدولة ، ولكن قضى الأمر .. »

فلما سمع الرشيد تعريض اسماعيل بذكر الواشين أراد أن
يسترق منه أخبارهم لينتقم منهم أو يجتنب أذاهم فقال له : « وهل
أنت على يقين من ذلك يا اسماعيل ؟ .. ومن هم الواشون ؟ »

فهمَّ اسماعيل أن يطلعه على ما يعلمه من سعى ابن الهادى
والفضل بن الربيع وغيرهما .. ولكنه أمسك لسانه ، وأعمل
فكرته ، فرأى أن التصريح يزيد الخرق اتساعا ويزيد الدولة ضعفا
وارتباكا ، وهو حريص على صيانتها كما علمت .. فلو كان جعفر
حيا لكان الخطر من التصريح قليلا ، أما وقد قتل فأصبح ذكر
الواشين والاقرار بأقوالهم وأعمالهم وشاية أخرى ، فندم على ما
بدر منه وعزم على كتمان ذلك فقال : « اذا كنت قد قتلت جعفرا
فانها احدى المصيبتين ، فاذا ذكرت لك غيره جررت الدولة الى
مصيبة أخرى .. فليعفى أمير المؤمنين من ذلك ، وهو يعلم رغبتى
فى سلامة هذه الدولة ، وقد خالفتنى فيما أردته من تبرئة جعفر ..

فلا تكلفنى الوشاية بآخرين ، ولو علمت أن فى ذلك خدمة نافعة ما كتمته .. فأطعننى فى هذا واعلم انى انما أكتسه لخير بنى هاشم ، كما كان تصرىحى ببراءة جعفر لنفس هذا السبب .. وأرجو من الرشيد أن لا يعدء كتمانى وقاحة .. واذا عده كذلك فله أن ينتقم بما يشاء ، انى لا أبخل بروحى فى سبيل هذا الكتمان »

وكان الرشيد يجلب اسماعيل ، ويعتقد فى اخلاصه وصدق نيته ويضن بحياته فقال له : « ان حياتك عزيزة علينا ياعماء وحاشا لله أن نسيء الظن بك ، وهب انك عصيتنا فانما تعصانا لتتفعنا وأما جعفر فلو كان ذنبه مقصورا على ما علمت من تعرضه للدولة ونصرته للشيعة لصبرنا عليه واحتطنا له كما صبرنا فيما مضى ، لأن انحيازه للشيعة لم يكن جديدا علينا . ولكنه ارتكب ما هو أفظع من ذلك كثيرا .. ارتكب ما لو علمته لسبقتنى الى قتله بسببه .. ولا تسألنى عما ارتكبه ، فانى حريص على كتمانته ولو علمت ان يمينى علمت به لقطعتها .. » قال ذلك وقد اشتد غضبه وزاد انقباض أساريه وارتجفت شفتاه حتى رقصت لحيته ثم هز رأسه وقال : « آه .. آه .. لو أستطيع قتله مرة أخرى لفعلت .. »

فتهيب اسماعيل من غضب الرشيد ، ولم يفته الأمر الذى سمعه يلوح اليه فان خبر العباسة بلغه على علاته وهو على خلاف رأيه ، فتجاهل ولو رأى مجالا للكلام ما تكلم لئلا يجر الكلام الى

الجدال بلا فائدة ، لعلمه بشدة غيرة الرشيد على العرض ، وحرصه
على شرف بنى هاشم ، فظل ساكتا ..
ثم سمعا الأذان لصلاة الظهر ، فنهض الرشيد ، ونهض
اسماعيل واستأذن وخرج ..

- ٩٧ -

الحسن والحسين

أما الرشيد فأمر صاحب وضوئه فجاءه بالماء فتوضأ وخرج للصلاة في المسجد ، فصلى بالناس جماعة ورجع الى داره فأنفذ بعض خاصته للقبض على والد جعفر وأخيه وجميع أولاده ، وعلى قصورهم ودورهم واستباح ما فيها ، فاستولى رجاله على ما وجدوه هناك من الجوارى واستبقوهم لخدمتهم الا ریحان وعتبة .. فانهما فضلاً للحاق بمن قتل ، فقاوما بعض الذين جاءوا للنهب فقتلوهما ، ووجه الرشيد مسرورا الى معسكر جعفر في النهروان فأخذ جميع ما فيه من مضارب وسلاح وخيام وغير ذلك وأصبح الرشيد يوم السبت وقد قتل من البرامكة وحاشيتهم ألف انسان ، وترك من بقى منهم لا يرجع الى وطنه ، وحبس يحيى ابن خالد والد جعفر والفضل بن يحيى أخاه في مطمورة وأمر بصلب جثة جعفر على جسر بغداد .. فصُلِبَتْ

فلما اطمأن خاطره ذهب الى زبيدة زوجته ، وأخبرها بما كان فاستحسنت ذلك ولكنها تذكرت الصبيين فقالت له : « لقد فعلت فعل أهل الحزم وأنقذت الخلافة من الأعداء ، ولكن ما الذي فعلته بالصبيين ؟ »

فأطرق الرشيد وأعمل فكرته فابتدرته زبيدة قائلة : « اذا أردت محو العار الذى لحقنا فبادر الى ازالة أثره لأن بقاء الصبيين وصمة باقية .. »

فقال الرشيد : « وهل تعلمين مقرهما ؟ »

قالت زبيدة : « اذا شئت دلت خادمك على مكانهما .. »

فقال الرشيد : « اخبرى مسرورا بذلك »

فدلت زبيدة على مخبئهما ، ومضى الرشيد الى قصره وجلس ينتظر مجيئهما ..

وكان الغلامان قد خبأهما الفضل بن الربيع على يد أبى العتاهية فى بيت على شاطئ دجلة ، وأوقف عليهما الحراس فذهب مسرور اليهما وحملهما الى قصر الخلد بعد أن قتل رياشا وبرة الخادمين القائمين على تربيتهما

ولما جاء مسرور بالغلامين أدخلهما على الرشيد ، وكان جالسا على وسادة وحده ..

فدخل الغلامان وهما يدرجان ويضحكان ووجهاهما يطفحان سرورا وسذاجة وبطهارة ، يحسبان أن مسرورا جاء بهما الى فرجة أو وليمة ، فلما رأى الرشيد جمالهما انقبضت نفسه أسفا على ماسينالهما من الأذى ، لعلمه بأنهما بريئان طاهران .. ولكنه كان قد صمم على محو أثر تلك الخيانة من الوجود ، فتجلد ودعاها

اليه ، فأسرعا وتراميا عليه وهما يلتفتان لمشاهدة ما فى تلك القاعة
من الرياش الفاخر والألوان الزاهية

فسأل الرشيد أكبرهما : « ما اسمك يا قرّة عينى ؟ »

قال : « الحسن »

فقال الرشيد للصغير : « وما اسمك يا حبيبى ؟ »

قال : « الحسين »

فأعجب الرشيد بمنطقهما لأن لغتهما وفصاحتهما هاشمية ، ثم
أعمل فكرته فيما هو عازم عليه من الأمر الخطير وهو والد يحب
أولاده ، ولو لم يكن والدا لكان الاقدام على ذلك العمل أسهل
عليه لأن الحنان لا ينضج ويبلغ أشده الا فى قلوب الوالدين ،
والوالد لا يقصر حنانه على أولاده ، بل هو يتعود ذلك حتى
يحن على كل ولد .. وزد على ذلك ان فى الغلامين دما هاشميا ،
والقربابة من أسباب العطف فعظم الأمر على الرشيد ، ولبت حيناً
يفكر والغلامان يلاعبانه ويعبثان بلحيته وطوقه حتى كاد الحنان
يغلب عليه ، فتذكر ما هو فيه وخشى غلبة الضعف فعاد الى الحزم
وسرعة الفتك لئلا يحول بينه وبين ذلك شفيع ، فعمد الى قتلتهما
على أن لا يرى ذلك بعينه ولا يسمعه بأذنيه . فتصادمت عواطفه
وجاشت أشجانه ، فغلب عليه البكاء وأغرق فيه حتى منعه من
الكلام والغلامان يتعجبان لبكائه . أما هو فنظر اليهما والدمع
يتفرق فى عينيه وقال : « يعز على حسنكما وجمالكما .. لا رحم

الله من ظلمكما » ثم قال : « يا مسرور أين المفتاح الذي دفنته اليك .. وأمرتك بحفظه ؟ »

فقال مسرور : « هو حاضر يا أمير المؤمنين »

قال الرشيد : « فأتني به .. »

ثم دعا الرشيد بجماعة من الغلمان وأمرهم أن يذهبوا مع مسرور الى تلك الحجرة ، ويحفروا فيها حفرة عميقة وأوماً الى مسرور بأن يقتل الغلامين ويدفنهما في تلك الحجرة .. أوماً بذلك وهو يبكي بكاء شديداً حتى ظن مسرور انه رحمتها ولا يلبث أن يعدل عن قتلها ، فاذا هو قد مسح عينيه ونهض وأشار الى مسرور بأن يمضي .. فأطاعه ومضى بهما الى تلك الحجرة ، ثم عاد وأخبر الرشيد بأنه قتلها ودفنهما هناك وقتل الرجال الذين ساعدوه على ذلك

وأمر الرشيد منذ ذلك اليوم أن لا يذكر البرامكة في مجلس ولا يستعان بمن بقي منهم في شيء أبداً . فخرجوا على رءوسهم هائمين في البلاد شاردين متنكرين جائعين (١) عارين ، وأصبح الناس يتحدثون بنكبتهم مثل حديثهم بثروتهم وسخائهم . وبخلاف الجولاء أعدائهم فنالوا ما تمنوه من التكيل بهم وتولوا مصالح الدولة بعدهم ، ولا سيما الفضل بن الربيع .. فانه تقلد الوزارة وصار اليه الأمر .. فسبحان مغير الأحوال

(١) اعلام الناس للتلبيدي ١١٧ - وابن خلكان ١٠٥ - الجرد الاول

طبع
بمطابع مؤسسة دار الهلال

المسدد القسام

من روايات تاريخ الإسلام

الأميين والمأمون

لجرجى زيدان

ترقبه أول يوليو ٨٤

مصر للطيران

علم مصر في كل مكان



أكثر من

٥٠

سنة خبرة

مصر للطيران

في خدمتكم

أوروبا - أفريقيا - آسيا

الجامبويا ٧٤٧ - إيري باص - بونج ٧٠٧ - بونج ٧٣٧

Bibliotheca Alexandrina



0403899